
الحرب المفتوحة
كل أداة سلاح - كل شخص جندي - كل مكان ساحة حرب
ترجمة
ضرار الخضر
NORS
Studies
مركز نورس للدراسات

الحرب المفتوحة

تشاو ليانج ووانج تشانجسوا

(بيجين: أدبيات الحزب الشيوعي الصيني ودار نشر الفنون، شباط 1999)

ترجمه: ضرار الخضر

راجعه وقدّم له: عمار فرهود



ملاحظات الكاتب:

كتاب "الحرب المفتوحة"، نُشِر في الصين في شباط من سنة 1999 وعرض اقتراحات عن تكتيكات للبلدان النامية وخصوصاً الصين تعوِّض من خلالها الفجوة مع الولايات المتحدة في الحرب التقنية. الكتاب يشمل جدول المحتويات، والمقدمة والخاتمة ومعلومات شخصية عن المؤلفين مطبوعة على الغلاف. كتب هذا الكتاب اثنان من العقداء البارزين من الجيل الأصغر سناً من الضباط الصينيين ونشره الحزب الشيوعي الصيني ودار نشر الآداب في بيجين، مما يعني أنه حاز على الأقل على موافقة عناصر من قيادة الحزب الشيوعي الصيني. وتدعّم هذا بالمقابلة التي أُجرِيَت للإشادة بكياو ومراجعة للكتاب نشرتها صحية زونجو كينجنياو باو الرسمية التابعة لرابطة الشباب في 28 حزيران.

وبما أن هذا الكتاب نُشر قبيل قصف السفارة الصينية في بلغراد، فقد لفت انتباه الصحافة الغربية والصينية على حد سواء، لدعوته إلى تنويع الوسائل العسكرية منها وغير العسكرية لضرب الولايات المتحدة خلال أوقات الصراع.

اختراق المواقع الالكترونية، استهداف المؤسسات المالية، الإرهاب، استخدام الإعلام وشن حرب الشوارع، من بين الطرق المطروحة. وفي المقابلة مع مؤلفي الكتاب اقتبس كياو من الكتاب ما يلي: " القاعدة الأولى في الحرب المفتوحة هي أنه ما من قواعد، فلا شيء ممنوع". ويستطرد حول هذه النقطة قائلاً إنه متأكد من أن البلدان القوية لن تستخدم النهج ذاته مع البلدان الضعيفة لأن: "البلدان القوية تضع القواعد وتُعلِي من شأنها وفي الوقت ذاته تنتهك هذه القواعد وتَستَغِل الثغرات فيها... فالولايات المتحدة تنتهك قوانين الأمم المتحدة وتضع قواعد جديدة إن لم تناسب تلك القواعد غاياتها، لكن يجب عليها حماية قواعدها الخاصة وإلا فإن العالم لن يثق بها".

مقدمة مركز نورس

يَعتَبِرُ المتابع اليوم التمدد الصيني الواسع النطاق على مستوى العالم هو خطة استراتيجية اقتصادية سياسية صينية تنتهجها القيادة الصينية لعدم رغبتها في التوسع والتمدد من خلال الحرب وأدواتها.

لكن الحقيقة أن الصينيين يعتبرون ما يقومون به حرباً من أنواع الحروب يطلقون عليها الحرب المفتوحة، وبسبب نقص المعلومات باللغة العربية عن الفكر العسكري الصيني غاب عن القارئ العربي فهم كيف يدير الصينيون هذه الحرب من خلال الاستراتيجية والتكتيكات الخاصة بالحرب المفتوحة التي يتّبعونها لتحقيق أهدافهم.

يُعتَبَر مفهوم الحرب المفتوحة مفهوماً جديداً طوّره الصينيون ليتلائم مع التطورات الحاصلة في العالم اليوم على مستوى الاقتصاد والعسكرة والسياسة والإعلام والمجتمع والدين وحتى الصحة، وتجاوز الصينيون بهذا المفهوم العسكري الجديد كل الحدود العلمية المتعارف على أن المفاهيم العسكرية لا تتجاوزها، حيث اعتبروا أن الحرب صارت تدخل في كل شيء وتصل إلى كل بُعد من أبعاد الكون فأضحى كل شخص جنديّ وكل أداةٍ سلاح وكل مكان ساحة حرب، وهذا التعميم يشمل كل شيء تقريبا في العالم الحقيقي والإفتراضي وغيرهما.

يَعتَبِر الكاتبان الصينيان "وهما ضابطان كبيران في جيش التحرير الشعبي الصيني" أن العقلية العسكرية الصينية الجديدة هذه قادرة على تجاوز العقلية العسكرية الأمريكية والأوروبية، فهي أشد تأثيراً وفتكاً في نتائجها من المفاهيم السابقة وبنفس الوقت أقل سفكاً للدماء وأكثر توفيراً في المصاريف والتكاليف.

وُلِدَ المفهوم الصيني من خلال خلط عوامل النجاح السابقة للمفكرين العسكريين والسياسيين والاقتصاديين والإجتماعيين على مر التاريخ، وفق نظام خلط ممكنٍ ودقيق ومتجانس ضمن خطةٍ محكمة وواضحة ومترابطة, وهذا الخلط هو ما ميّز هذا المفهوم الجديد لسببين:

الأول: نظرته لكل شيء على أنه سلاح من الممكن استخدامه في تحقيق الهدف السياسي للدولة.

الثاني: قدرته على استخدام هذا الخليط الجديد في أي اتجاه يريد ليبني عليه لاحقاً مفهوم النصر.

بإختصار مفهوم الحرب المفتوحة هو تطوير صيني مختلف لمفهوم الحرب الهجينة الذي ترجم مركز نورس عدداً من الدراسات عنه.

يتمنى مركز نورس للدراسات أن يساعد هذا الكتاب القارئ العربي المهتم على فهم هذه النظرة الجديدة كليّاً لمفهوم الحرب والتي لم يسبق أن امتلكت المكتبة العربية مادة علمية حول هذا المفهوم الجديد.

بماذا يتميّز الكتاب؟

سيشعر القارئ المهتم بمفاهيم الحرب الاستراتيجية بأن محتويات الكتاب عادية ونعيشها منذ سنوات ولكن سيُدهش عندما يعلم بأن ما نعيشه اليوم كواقع قد توقّعه الكاتبان قبل أكثر من عشرين عاماً، ولعل أبرز ما توقّعاه هو سيادة سلاح الطيران "مروحي أو مسيّر" على الدبابات في الحروب البريّة وهذا ما يحصل اليوم حيث تتوجه الجيوش اليوم للإستغناء عن الدبابات وتضخيم أسطولها الجوي "مروحي كان أو مسيّر". كذلك توقّع الكاتبان تحطم مفهوم النصر لمن يملك التكنولوجيا الأحدث في المجالات العسكرية وغيرها حيث أن الكاتبان يؤكدان أن مفهوم الحرب هو أوسع وأشمل من التقدّم التكنولوجي إضافة لتوُقِعِهما تجاوز مفهوم الحرب للبعد التكنولوجي أي عدم اقتصار التطور على التحديث والإزدهار التكنولوجي وإنما سيتجاوز مفهوم الحرب هذا إلى نفس الإنسان وعلاقة المجتمع بقيادته السياسية ونظرة المجتمعات والأعراق والطوائف لبعضها البعض كل ذلك سيكون ضمن مفاهيم الحرب الجديدة. ولعل أبرز ما توقّعه الكاتبان هو بدأ انهيار الولايات المتحدة الأمريكية بعد عام 2020 وصعود قوى أخرى دولية تنافس على سيادة العالم وهذا ما يحصل اليوم ويراه الجميع.

ولعل أبرز ما نلاحظه اليوم من تطبيق صيني لمفهوم الحرب المفتوحة والذي نجده مفصّلاً في هذا الكتاب هو في كسر احتكار أمريكا لكثير من السلع ذات الأثر الإستراتيجي من خلال الاستراتيجية الإقتصادية الصينية المندرجة ضمن مفهومها للحرب المفتوحة، هذا الكسر للإحتكار هو ما جعل الصين ودول عديدة تدخل سباق التنافس الإستراتيجي مع أمريكا اليوم.

في كثير من السلع كانت حكراً على أمريكا لكنها أصبحت بمتناول الجميع بفضل سياسة الصين الاقتصادية ومفهوم الحرب المفتوحة.

تنويه:

مركز نورس قام بإعادة صياغة لعدد من الجمل والمصطلحات بما يتناسب مع اللغة العربية والعلم العسكري كما أضفنا عدد من الهوامش الشارحة لبعض الشخصيات أو المصطلحات العلمية.

الكتاب تم نشره في عام 1999 باللغة المندرية "الصينية" وتمت ترجمته للإنجليزية بعد عام واحد.

شكر:

نتوجه بالشكر لكل من ساهم في هذا العمل من الترجمة والتدقيق والمراجعة العلمية والتصميم والتبرع بالمال لإتمام هذا المجهود راجين أن يترك أثراً طيّباً لدى القارئ ومحفّزا للشباب العربي لبدء المطالعة في العلم العسكري لأنه أهم أساس في بناء الأمم ونهضتها وحمايتها فالأمم التي لا تعرف كيف تدافع عن نفسها لن تجد من يدافع عنها مجاناً ومن سيدافع عنها لن تكون ضريبة هذه الأمة له أقل من ضريبتها لمن سيحتلها, والتاريخ مليء بالأمثلة التي تؤكد أن قادة الأمم العظيمة أتقنوا الحرب وفنونها مع السياسة وفنونها.

توطئة

كل الذين عاشوا في العقد الأخير من القرن العشرين سيكون لديهم شعور عميق بالتغيرات الجارية في العالم. لا نصدّق أي شخص يدّعي أن تغييرات حدثت في التاريخ في عقد واحد أعظم مما حدث في هذا العقد. وبطبيعة الحال فالأسباب وراء هذه التغييرات الكثيرة، كثيرة جداً لا حصر لها، لكن الناس يرددون قلة من الأسباب، وواحدة منها حرب الخليج.

حرب واحدة غيّرت العالم؛ ربط هذه النتيجة بحرب واحدة حدثت ذات مرة على بقعة محدودة واستمرت لـ 42 يوماً فقط يبدو أمراً مبالغاً فيه. لكن هذه هي الحقيقة، وما من داعٍ لسرد الكلمات الجديدة التي ظهرت بعد 17 كانون الثاني سنة 1991 كلمة كلمة، يكفي أن نذكر: البوسنة والهرسك، كوسوفو، الاستنساخ، مايكروسوفت، الهكرز، الانترنت، جنوب شرق آسيا، الأزمة المالية، اليورو، إضافة إلى القوة العالمية الوحيدة والأكبر ألا وهي الولايات المتحدة. هذه الكلمات كافية فهي تكوّن فكرة كافية إلى حد كبير عن المواضيع الرئيسية في هذا الكوكب خلال العقد الماضي.

لكن ما نريد قوله إن كل هذا مرتبط بالحرب، بشكل مباشر أو غير مباشر، رغم أننا لا نريد جعل الحرب أسطورة، وبالذات الحرب غير المتوازنة حيث يكون الفرق جلياً في القوة الفعلية بين الأطراف المتنازعة. بل على العكس تماماً، الحرب التي غيّرت العالم بأكمله في غضون شهر ونصف في صميم اعتباراتنا. لاحظنا أيضاً حقيقة ثانية، هي أن الحرب نفسها قد تغيّرت الآن. اكتشفنا هذا من تلك الحروب التي يمكن وصفها بالتعابير الممجِّدة والتي وصلت إلى قمة ما يمكن للحرب أن تحققه في التاريخ، والتي ظن الناس أنها أهم الأدوار التي لُعِبَت على المسرح العالمي؛ باتت فجأة تشغل مقعد ممثل من الدرجة الثانية.

الحرب التي غيّرت العالم بالتأكيد غيّرت الحرب نفسها. هذا بالفعل رائع، لكنه أيضاً يدفع الناس للتفكير ملياً. لا، ما نشير إليه ليس التغييرات في أدوات الحرب، أو



أنماط الحرب، أو أشكال الحرب، بل إنَّ ما نشير إليه هو وظيفة الحرب. من يتخيّل أن ممثلاً متعجرفاً لا يطاق، غيّر ظهوره الحبكةَ بأكملها، يجد نفسه فجأة آخِرَ شخص يؤدي هذا الدور الفريد من نوعه. بل إنهم أخبروه حتى قبل أن يغادر خشبة المسرح أنهم على الأرجح لن يتعاملوا معه لتمثيل هذا الدور، على الأقل لن يكون له الدور الرئيسي حيث يحتلُّ وسط خشبة المسرح لوحده. ماذا سيكون شعوره عندها؟

ربما أكثر هؤلاء الذين يشعرون بهذا الشعور بشدة هم الأمريكيون، الذين ربما يُعتَبَرون من بين القلة التي تريد أن تلعب جميع الأدوار، بما فيها المنقذ ورجل الإطفاء وشرطي العالم ومبعوث السلام...إلخ. في أعقاب "عاصفة الصحراء" لم يعد بوسع العم سام إحراز انتصارات جديرة بالثناء. سواء في الصومال أو في البوسنة والهرسك وباتت هذه هي الحالة الثابتة. وخصوصاً في الأعمال الأخيرة التي تحالفت فيها الولايات المتحدة مع بريطانيا لتنفيذ هجمات على العراق؛ كانت ذات الخشبة وذات الطريقة وذات الممثلين، لكن لم يكن ثمة طريقة لأداء ناجح للدراما الرائعة التي انتزعت ذلك الإعجاب العميق قبلها بثماني سنوت. فقد واجهت الولايات المتحدة قضايا سياسية واقتصادية وثقافية ودبلوماسية وعرقية ودينية.. إلخ أكثر تعقيداً من القضايا التي واجهها عسكريون في العالم، والقيود المفروضة على الوسائل العسكرية، التي نجحت حتى الآن، باتت فجأة واضحة للعيان. لكن في عصر "القوي دائماً على حق" -ومعظم التاريخ في هذا القرن تنطبق عليه هذه المقولة- كانت هذه قضايا لا تصنع مشكلة. المشكلة هي أن الولايات المتحدة قادت قوات متعددة الجنسيات وأنهت هذه الفترة في صحراء الكويت، وبالتالي بدأت مرحلة جديدة.

في الوقت الراهن من الصعب أن نعرف ما إن كان هذا العصر سيؤدي إلى بطالة أعداد كبيرة من العسكريين، أو أنه سينهي الحروب من العالم. كل هذه الأمور لم تتحدد بعد. النقطة الوحيدة المؤكدة لحد الآن هي أنه من الآن وصاعداً، فالحرب لن تكون ما كانت عليه في الأصل. ما أريد قوله هو: إن كان الإنسان لا يملك خياراً آخر غير خوض الحرب، فإنه لم يعد بوسعه تنفيذها بالطرق التي ألِفناها.

من المستحيل إنكار تأثير المجتمع البشري وروحه على الدوافع الجديدة المتمثلة بالحرية الاقتصادية ومفهوم حقوق الإنسان والوعي بضرورة حماية البيئة، لكن من المؤكد أن التحوُّلات في الحرب سيكون لها آثارها المعقدة. من ناحية أخرى، لن يتمكّن طائر الحرب الخالد من عمل النرفانا[1] عندما يكون على حافة الانهيار: عندما يميل الناس إلى الحد من استخدام القوة العسكرية لحل الصراعات ويبتهجون بذلك، تولد الحرب بشكل جديد وفي ميدان آخر، متحولة إلى أداة لقوى عديدة بيد أولئك الذين يُضمِرون نيّات السيطرة على البلدان أو المناطق الأخرى. وبهذا المعنى ثمة سبب يجعلنا نعتقد أن الهجوم المالي الذي نفذّه جورج سورس على شرق آسيا، والهجوم الذي نفّذه أسامة بن لادن على سفارة الولايات المتحدة، والهجوم بالغازات السامّة على مترو أنفاق طوكيو الذي نفّذه أوم شنيري كيو، والأضرار التي ألحقها أمثال موريس جار بالإنترنت؛ ما هي إلا: شبه حرب أو نصف حرب أو حرب فرعية، حيث لا تصل درجة الدمار فيها إلى درجة الحرب، هذا هو النوع الآخر من الحروب في مرحلته الجنينية.

لكن أياً كانت التسمية التي تُطلِقُها على هذا النوع من الحروب، فإننا لا نستطيع أن نتفاءل بهم أكثر مما مضى، فليس ثمة ما يدعونا للتفاؤل، وهذا بسبب أن تقلُّص وظائف الحرب بصفة عامة لا يعني على الإطلاق أن الحرب انتهت. وحتى فيما يُسمى عصر ما بعد الحداثة أو عصر ما بعد الصناعة، لن تتوقف الحرب تماماً، إنها فقط تعيد غزو المجتمع البشري بشكل أكثر تعقيداً وأكثر شمولاً وأكثر خفاءً وبأسلوب أكثر دهاءً. إنها كما يقول بايرون في قصيدة رثاء شيلي، "لم يحدث شيء، بل غرق كل شيء في بحر التغيير". الحرب التي غرقت في بحر تغييرات التقنيات الحديثة وأنظمة السوق ستُشن بأشكال غير نمطية. بمعنى، بينما نرى تقليصاً نسبياً في العنف العسكري نرى في الوقت نفسه تزايداً كبيراً في العنف السياسي والاقتصادي والتقني. لكن بغضِّ النظر عن شكل العنف فالحرب هي الحرب، والتغيير في المظهر الخارجي لا يُخرِج أي حرب عن مبادئ الحروب.

1 نورس: **الترفانا**: هي حالة تُطلق على أتباع الدين الهندوسي عندما يصلون لمرحلة عدم الشعور بالألم وكذلك التفوق على كل أشكال المعاناة.

إن علمنا أن المبادئ الجديدة للحرب لم تعد: "استخدام السلاح لإجبار العدو على الرضوخ لإرادة عدوه" لكنها: "استخدام كافة الوسائل، بما في ذلك القوات المسلحة وغير المسلحة، العسكرية منها وغير العسكرية، والقاتلة وغير القاتلة لإرغام العدو على قبول مصالح عدوّه"

هذا يمثِّل التغيير؛ تغييراً في الحرب وتغييراً في أسلوب الحرب نتيجة لذلك. إذاً ما الذي أدى للتغيير؟ وما هي أنواع التغييرات؟ وإلى أين اتجهت التغييرات؟ وكيف يمكن للمرء مواجهة هذه التغييرات؟ هذا هو الموضوع الذي يبحثه هذا الكتاب ويسلّط الضوء عليه، وهو أيضاً ما دفعنا لتأليف هذا الكتاب.

(كُتِب في 17 كانون الثاني سنة 1999، في الذكرى الثامنة لاندلاع حرب الخليج)

الجزء الأول:

عن الحرب الجديدة

"رغم أن الدول القديمة كانت عظيمة، إلا أنها تلاشت تماماً عندما أُغرِمت بالحرب"

سيما رانجو



التكنولوجيا هي صنم الإنسان الحديث:[1]

عندما تهب نسائم النفعية الدافئة لتسيطر على تفكير الإنسان، ليس من المفاجئ أن تُعتَبر التكنولوجيا أنفع للناس من العلم، فعصر الاكتشافات العلمية ولّى مع زمان أينشتاين، لكن الانسان الحديث يميل لرؤية كل أحلامه تتحقق خلال حياته، وهكذا فعندما يتحدّى الإنسان مستقبله فإنه يسجد للتكنولوجيا ويتوقَّع العجائب منها، تحدوه آمال ترى المستقبل من خلال عدسة تكبّر أداء التكنولوجيا بمقدار ألف مرة. وبهذا الشكل أنجزت التكنولوجيا تطوُّرات مذهلة وشاملة في مدة قصيرة من الزمن، ونتج عن هذا فوائد لا تحصى على الجنس البشري التوّاق إلى النجاح السريع والعوائد الفورية. لكننا نسينا ونحن ننتشي فخراً بهذا التقدم التقني، أننا خسرنا قلوبنا[2]، في نفس الوقت الذي سلّمنا فيه أنفسنا للعصر التقني المظلم.

التكنولوجيا تصبح يوماً بعد يوم أكثر إبهاراً وخروجاً عن السيطرة، مختبرات بيل وسوني تستمر بطرح الألعاب الجديدة، وبيل غيتس يفتح نافذةً (نظام ويندوز) جديدة كل سنة، ودوللي الماعز المستنسخة تثبت أن الإنسان يخطط الآن لعمل ما كان يظنه من اختصاص الخالق وحده. المقاتلة الروسية المُرعِبَة سوخوي 27 لم تخض أي معركة، ثم جاءت سوخوي 35 لتتخذ وضعيتها[3] مثل قطعة في متحف،

1 في كتابه الإنسان والتكنولوجيا، شبَّه سبنجلر التقنية بالثالوث؛ فالتقنية أبدية مثل الأب ولا تتغير، ومثل الأبن ستخلص البشرية ومشرقة في كل مكان مثل روح القدس. كانت عبادة الفيلسوف سبنجلر للتكنولوجيا مثل عبادة علماء اللاهوت للإله، فكانت مجرد شكل من أشكال الجهل مع دخول الإنسان إلى عصر التصنيع العظيم، الذي ازدهر بشكل كبير في عصر ما بعد الصناعة.

2 في هذا الصدد نجد لدى الفيلسوف والباحث الفرنسي جين لادرهر رأياً فريداً من نوعه، فهو يعتقد أن للعلم والتكنولوجيا تأثيراً مدمِّراً وعلى الثقافة وكذلك فلها تأثير توجيهي على الثقافة، وبتأثير الجمع بين هذين الأثرين من الصعب على البشرية أن تقيّم التكنولوجيا بتجرد، ونحن باستمرار نتأرجح بين هاتين الحركتين: التعصب للتقنية ومعاداة التقنية. وفي كتابه «تحدي العلم والتكنولوجيا للثقافات» يمكن ملاحظة أثر التكنولوجيا على العديد من جوانب الفكر البشري من منظور أوسع.

3 على الرغم من أن تحسين الأسلحة التي تتجاوز المدى البصري (BVR) قد أحدث بالفعل تغييرات هائلة في المفاهيم الأساسية للقتال الجوي، إلا أنه بعد كل شيء لم يقضي تمامًا على القتال قصير المدى. تعتبر SU-27، القادرة على مناورات «الكوبرا» وSU-35 القادرة على «التحركات» الخطافية، من أبرز الطائرات المقاتلة حتى الآن (سنة 1999).



وبعد أن تؤدي السوخوي 35 مهمتها في اجتذاب الاهتمام ستُحال إلى التقاعد بعد أدائها هذه الخدمة التي لازالت موضع جدل كثير. التقنية مثل "الحذاء السحري" في قدم الإنسان، وبعد أن ضبطت المصالح الاقتصادية الزنبرك، لم يعد بوسع الناس سوى الرقص مع الحذاء، والدوران معه في الوقت المناسب وفقاً للإيقاع الذي حددوه (تتحدث قصة الحذاء السحري عن حذاء له زنبرك، بمجرد ارتداء الحذاء وتدوير الزنبرك يبدأ بالرقص بلا توقف).

أسماء مثل واط وإديسون تقريباً هي مرادفات للابتكارات التقنية الكبيرة، وتسمية العصور بأسماء هذه القامات العلمية ربما يكون منطقياً، لكن الوضع تغيّر من الآن وصاعداً، فوفرة الاكتشافات التقنية المتنوعِّة التي لا حصر لها في آخر 100 سنة أو نحوها يجعل ظهور أي تقنيات جديدة تنتزع أهمية ذاتية في مجال حياة الإنسان أمراً صعباً. بينما يمكن القول إن صيغاً مثل: "عصر المحرِّك البخاري" و "عصر الكهرباء" أسماءٌ تعكس حقائق العصر، أما اليوم، فالتكنولوجيا في كافة المجالات تتخطى باستمرار حدود ما حققته سابقاً لدرجة أنه لا يتسنّى للناس الإشادة ولو قليلاً بهذه الإنجازات التقنية، قبل أن تطغى موجة أعتى وأحدث من الإنجازات التكنولوجية، أما تسمية عصر من العصور باسم تقنية معيَّنة فقد بات من الماضي. ولهذا إن سمّى المرء هذا العصر بالعصر النووي أو عصر المعلومات فإنه يقدّم الانطباع بأنك تستخدم جانباً واحداً لتوصيف الوضع بأكمله.

ما من شكٍ أن ظهور تقنية المعلومات كانت بشرى سارة للحضارة البشرية، لأنها الشيء الوحيد القادر حتى الآن على صبِّ طاقة كبيرة في "الجان" التقني الذي خرج من القمقم، وانتشر في كل مكان كالنار في الهشيم، وفي نفس الوقت تقدّم تعويذة سحرية كوسيلة للسيطرة عليها (التكنولوجيا). لكن يظهر هنا سؤال آخر: بيد من ستكون تلك التعويذة السحرية التي ستمكِّن صاحبها من السيطرة على تكنولوجيا المعلومات؟ يرى الرأي المتشائم أنه إن كانت التكنولوجيا تتطور باتجاه يُفقِدُ الإنسان سيطرته عليها،



فسيتحول البشر بالتأكيد إلى ضحايا لها[1]، رغم أنَّ الاستنتاجات الْمُرتَعِدَة ليست قادرة أبداً على إخماد حماسة الناس اتجاه التكنولوجيا. والتوقُّعات المتفائلة تُظهر التكنولوجيا بمظهر جذّاب للبشر، المتعطِّشين للتقدم التقني. بعد كل شيء، فإن ميزات التكنولوجيا الفريدة في التبادل والمشاركة تمثِّل بصيص الأمل الذي نأمل أن يُخرِجَ البشرية من بربرية التكنولوجيا، رغم أن هذا ما يزال غير كافٍ لجعلنا مثل مستشرفي المستقبل الذين لا يستطيعون رؤية الصورة العامة بسبب غرقهم في التفاصيل، واللذين يَصِفُون العصر بأنه عصر التقنية. وخصائص التقنية هي بالضبط التي تمنعها من استبدال التقنيات المختلفة التي نملكها من قبل بشكل كبير، بالتقنيات التي تظهر حديثاً وتلك التي ستظهر قريباً، مثل التكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا النانو وتكنولوجيا المواد؛ هذه التقنيات التي لديها علاقة تفاعلية بتقنية المعلومات حيث تعتمد كل منها على الأخرى ويطوِّر الآخر.

على مدى 300 سنة الماضية اعتاد الناس على الوقوع في الحب الأعمى لما هو جديد في التكنولوجيا وتجاهل القديم منها، وأصبح السعي الذي لا نهاية له للتكنولوجيا الجديدة الجواب الشافي على كل التساؤلات حول الوجود، وأضَلَّت غواية التكنولوجيا الناس تدريجياً، فأصبح لزاماً على المرء أن يرتكب عشرة خطايا ليغطي على خطأ واحد، وكي يحل الناس مشكلة واحدة لا يترددون في إيقاع أنفسهم في عشرة مشكلات جديدة[2]، على سبيل المثال: اخترع البشر السيارات كوسيلة نقل

---

1 رونج: هو أكثر المتشائمين التكنولوجيين حدة. في وقت مبكر من عام 1939، أدرك رونج سلسلة المشكلات التي تجلبها التكنولوجيا الحديثة، بما في ذلك نمو التحكم التكنولوجي وخطر المشكلات البيئية. وفي رأيه، أصبحت التكنولوجيا بالفعل قوة شيطانية لا مثيل لها. فهي لم تستحوذ على الطبيعة فحسب، بل جردت الإنسان من حريته أيضاً. في كتابه «الوجود والزمان»، وصف مارتن هايدجر التكنولوجيا بأنها «سخافة بامتياز»، داعياً إلى عودة الإنسان إلى الطبيعة من أجل تجنب التكنولوجيا التي تشكل أكبر تهديد. وأشهر المتفائلين التكنولوجيين هم [نوربرت] وينر وشتاينبوخ. في كتب: علم التحكم الآلي، والله والروبوتات، والاستخدام البشري للبشر في وينر، ومجتمع المعلومات والفلسفة وعلم التحكم الآلي لشتاينبوخ، وغيرها من الأعمال المماثلة، يمكننا أن نرى الآفاق المشرقة التي يعدون بها المجتمع البشري، والتي ستنقلهم التكنولوجيا إليها. وكذلك من أبرز المتشائمين من التكنولوجيا والمجتمع الذي ستخلقه هو ثيودور كازينسكي في مقالته الشهيرة «المجتمع الصناعي ومستقبله».

2 في كتاب **ديفيد إهرنفيلد**، غطرسة الإنسانية، يستشهد بالعديد من الأمثلة على ذلك. يقول شوارتز في كتابه (ذكي جداً) إن «حل مشكلة واحدة قد يولد مجموعة من المشاكل الجديدة، وهذه المشاكل قد تحول في النهاية دون اعتماد هذا النوع من الحل». وفي الوعي العقلاني، يناقش رينيه ديبو ظاهرة مماثلة.



أكثر راحةً، لكن سلسلة طويلة من المشكلات تلاحقت بعد السيارات؛ التعدين والعملية الميكانيكية واستخراج الوقود، وتكرير المطاط (لعجلات السيارات) وشق الطرقات ...إلخ، وهذه تحتاج بدورها إلى سلسلة طويلة من الوسائل التقنية لحلها، حتى أنها أدَّت في النهاية إلى التلوث البيئي وتدمير مصادر المواد الخام، والاستيلاء على الأراضي الزراعية واستخدامها لأغراض غير الزراعة، والحوادث المرورية، والعديد من المشكلات الشائكة غيرها. وعلى المدى الطويل، تبدو مقارنة الهدف الأصلي من استخدام السيارات للنقل مع هذه المشكلات الناشئة منها، في الغالب غير مهمة. وبهذه الطريقة فالتوسع غير العقلاني للتكنولوجيا يسبِّب للبشر خسارة متواصلة للأهداف بسبب شجرة التداعيات المعقّدة للتكنولوجيا، لدرجة أنهم يتيهون فينسون طريقهم ولا يعرفون كيف يتراجعون، يمكننا أن نسمي هذه الظاهرة "التأثير التَّشَعُّبي". لحسن الحظ، ظهرت تكنولوجيا المعلومات الحديثة في هذا العصر، ويمكننا القول جازمين بأن هذه هي أهم ثورة في تاريخ التكنولوجيا، ولا تكمن أهميتها الثورية بمجرد أنها تكنولوجيا حديثة جداً، بل في أنها عامل ربط يمكنه بسلاسة اختراق طبقات الحواجز بين التقنيات وربط تقنيات متنوِّعَة تبدو غير مترابطة أبداً. ومن خلال ربط هذه التقنيات لا تُستحدَث تقنيات جديدة ليست من هذا النوع من التكنولوجيا ولا من ذاك، وفي نفس الوقت تمثّل نَوعَي التكنولوجيا معاً، بل إنها تقدّم أيضاً نهجاً جديداً للعلاقة بين الإنسان والتكنولوجيا.

من منظور الإنسان فقط يمكن للإنسان أن يرى جوهر التكنولوجيا بوضوح كأداة وعندها فقط يمكنه تجنُّب أن يصبح عبداً للتكنولوجيا -للأداة- خلال عملية حل المشكلات الصعبة التي تهدد وجوده. لدى الإنسان القدرة الكاملة على تطوير قواه على التخيُّل بحيث يستفيد تمام الاستفادة من هذه القوى عند استخدام كل تقنية، ولا يكون كالدب الذي دخل الكَرم (فَخَرَّبَهُ كله ظناً منه أن كل شجرة مختلفة عن الأخرى) فيستخدم التقنيات الجديدة ويستبدلها بالقديمة، فالاستخدام المستقل للتقنيات الفردية يصبح يوماً بعد يوم غير واقعي. لقد قدّم نشوء تقنية المعلومات إمكانيات لا حصر لها للمنافسة بين العديد من التقنيات القديمة والجديدة، وبين

التقنيات الجديدة والمتطورة، وأثبتت الحقائق التي لا حصر لها أن الاستخدام المتكامل للتكنولوجيا يمكنه تشجيع التقدُّم الاجتماعي أكثر من تشجيع اكتشاف التكنولوجيا[1]، وبصيغة أخرى استخدام التطور التكنولوجي لزيادة الترابط الإجتماعي.

يمكن تشبيه هذه العملية باستبدال العازفين المنفردين بأوركسترا متعددة العازفين، فالاندماج العام للتكنولوجيا يقود العالم بشكل لا رجعة فيه نحو العولمة، بينما الميول للعولمة تسرّع بدورها عملية الاندماج التقنية، وهذه هي السمة المُمَيِّزَة لعصرنا.

ستُلقي هذه الميزة بظلالها حتماً على كل منحى من مناحي هذا العصر، وبطبيعة الحال فعالم الحرب لن يبقى استثناءً، فالقوة العسكرية المتعطِّشَة للتحديث لن تبقى دون تغذية بالتقنيات الجديدة، والحرب تبقى على الدوام الأم التي تنجب التقنيات الجديدة. خلال حرب الخليج، صعد ما يزيد على 500 نوع جديد من السلاح المتطوِّر من موديل الثمانينات إلى خشبة المسرح العالمي، مما جعل الحرب تبدو ببساطة وكأنها تجريب للأسلحة الحديثة. لكن ما ترك انطباعاً عميقاً عند الناس لم يكن الأسلحة نفسها، بل الاتجاه إلى وضع نظام منهجي لتطوير واستخدام السلاح. مثل "الباتريوت" الذي يعترض صواريخ "سكود"، فيما يبدو أشبه باصطياد العصافير ببندقية الصيد، بينما هي في الحقيقة أسلحة كثيرة منتشرة على نحو نصف الكرة الأرضية: فبعد أن يُحَدِدَ القمر الصناعي لبرنامج الدعم الدفاعي DSP الهدف، تُرسَل إشارة إلى المحطة الأرضية في أستراليا، والتي بدورها تُرسلها إلى مقر القيادة المركزية في الرياض عبر مقر القيادة في جبال شايان الأمريكية، وبعدها يصدر الأمر لمشغِّلي "الباتريوت" ليضعوا محطاتهم في وضع الاشتباك، في غضون 90 ثانية اعتماداً على العديد من المراحل والتنسيق ما بين الأنظمة الفضائية وأنظمة C31، لتكون

1 في كتابه: «عصر العلم ومستقبل البشرية»، يشير إي شولمان إلى أنه «أثناء التطور الديناميكي للثقافة الحديثة، التي تقوم على التطور الهائل للتكنولوجيا الحديثة، نواجه بشكل متزايد حقيقة التعاون بين التخصصات المتعددة ... من المستحيل أن يوجِّه فرع خاص واحد من العلوم عملنا بطريقة علمية كافية.



بالفعل إنها "الطلقة التي يسمعها العالم". التنسيق في الوقت الفعلي بين العديد من الأسلحة حتى لو كانت متباعدة جداً أوجد قوة قتالية غير مسبوقة، وهذا ما كان فوق الخيال قبل ظهور تكنولوجيا المعلومات. كان يمكن القول بأن ظهور الأسلحة الفردية قبل الحرب العالمية الثانية كان قادراً على إطلاق شرارة ثورة عسكرية، أما اليوم فلا أحد قادر على الهيمنة على المشهد بمفرده.

الحرب في عصر التكامل التقني والعولمة جرّدت الأسلحة من حقها بوسم الحرب بأسمائها، وفيما يتعلَّق بنقطة البداية الجديدة، فقد أعادت تنظيم علاقة الأسلحة بالحرب، بينما أدّى ظهور أسلحة بمفاهيم الجديدة -وخصوصاً الجديد من الأسلحة- تدريجياً إلى طمس وجه الحرب؛ فهل يُعتَبَر هجوم "هكر" واحد عملاً عدائياً أم لا؟ هل يمكن النظر إلى استخدام الأدوات المالية لتدمير اقتصاد بلدٍ ما معركة؟ هل أدى بث قناة سي إن إن لجثة جندي أمريكي عارية في شوارع مقديشو إلى زعزعة تصميم الأمريكيين على تبوء مكانة شرطي العالم؟ وبالتالي تغيير الوضع الاستراتيجي؟ وهل يجب تقييم الأعمال وقت الحرب حسب الوسيلة أم حسب النتيجة؟ من الجلي أننا إن واصلنا تعريفنا للحرب على النحو السابق فلن نجد أجوبة لأسئلتنا هذه، وعندما ندرك فجأة أن كل هذه الأعمال غير الحربية يمكن أن تكون العوامل الجديدة المكوِّنة لحروب المستقبل، يجب علينا أن نستنتج اسماً جديداً لهذا الشكل الجديد من الحروب: الحرب التي تتجاوز كافة الحدود المادية والمعنوية، باختصار الحرب المفتوحة.

إن ترسّخ هذا الاسم، فإن هذا النوع من الوسائل الحربية سيكون جاهزاً، وتلك المعلومات ستكون موجودة في كل مكان في العالم، وستكون ساحة المعركة كل مكان في العالم. وهذا يعني أن كل الأسلحة والتقنيات ستكون رهن الإشارة، وأن كافة الحدود التي تمتد بين عالمين من الحرب واللاحرب، وما هو عسكري وغير عسكري ستتلاشى تماماً، وستعني أيضاً أن العديد من مبادئ الاشتباك الحالية ستتغير، وحتى قواعد وقوانين الحرب قد تدعو الحاجة إلى إعادة كتابتها.

ومع ذلك فمن الصعب معرفة إن كانت الحرب مُستَعِرَةً أم لا، إن أردتَّ مناقشة



الحرب، وخصوصاً الحرب التي ستندلع مساء بعد غدٍ أو صباح بعد الغد، فليس أمامك سوى طريق واحد، وهو أن تُرهِف حواسك لتحدد طبيعتها بحذر كبير، وعليك أن تجسَّ جيداً نبض الحرب اليوم.



الفصل الأول:

ثورة السلاح التي تأتي في المقدمة حتماً

"بمجرد وضع التكنولوجيا في خدمة الأهداف العسكرية، فضلاً عن استخدامها بالفعل للأغراض العسكرية، فإنها تصبح على الفور إلزامية، وعادة ما تتعارض مع إرادة القادة لأنها تشعل شرارة تغييرات أو حتى ثورات في طرق القتال"

إنجلز

تسبق الثورة في السلاح باستمرار الثورة في الشؤون العسكرية بخطوة واحدة، وتِبَعَاً لوصول السلاح الثوري يكون وصول الثورة إلى الشؤون العسكرية مسألة وقت، وتاريخ الحرب يقدِّم على الدوام هذا الدليل: فظهور البرونز أو الفولاذ آتى أُكُلَهُ في كتائب المشاة، والأقواس والسهام والسروج قدّمت تكتيكات جديدة لسلاح الفرسان[1]، ومدافع البارود الأسود ساهمت في تطوُّر أساليب الحرب الحديثة، منذ أن استُخدِمَت الطلقات المخروطية والبنادق[2] في ميدان المعركة احتلت موقع طليعة التكنولوجيا في ذاك العصر، وسرعان ما رسَّخ وجود هذه الأسلحة في كافة الحروب.

أولاً، حكمت السفن الحربية الفولاذية الكثيرة البحار، مما افتتح "عصر السفن الحربية"، ثم حكمت أختها "الدبابة" الحرب البرية، ثم سيطرت الطائرات على

1 **يقول إنجلز**: «في العصور البربرية كان القوس والسهم سلاحاً حاسماً، مثلما كان السيف الفولاذي في عصر ما قبل الحضارة، وكما كانت الأسلحة النارية في العصور المتحضِرة. وفيما يتعلّق بكيفية تغيير الركائب لأساليب القتال يمكن الرجوع إلى ترجمة وتعليق غوزون في مقال له بعنوان (الركائب والإقطاعية: هل تخلق التكنولوجيا التاريخ؟) فيقول: جعلت الركائب القتال اليدوي الفوري ممكناً، وكان هذا أسلوباً جديداً وثورياً في القتال، نادراً ما أحدث اختراع بسيط مثل الركاب هذا التغيير الكبير في التاريخ، لقد أدى اختراع الركاب إلى سلسلة من العمليات العسكرية والثورات الاجتماعية في أوروبا.

2 كان لابتكار البندقية والطلقات المخروطية ما بين عامي 1850 و1860 تأثير ثوري هو الأعمق والأسرع مقارنة بأي تطوير لأي تقنية أسلحة متطورة أخرى، حتى أن ابتكار القنابل شديدة الانفجار والطائرات لا يداني هذا التأثير، وكذلك ابتكار الدبابات التي ظهرت في القرن العشرين لا يقارن بالتغيير الذي أحدثه اختراع البندقية والطلقة.

الأجواء، حتى وُلِدَت القنبلة الذرية، معلنة بدء "العصر النووي". واليوم تنصبُّ التقنيات الحديثة العديدة انصباباً على تقنيات السلاح، حتى باتت الأسلحة رسمياً النائب الحقيقي عن الحرب. عندما يناقش الناس مستقبل الحرب، فإنهم يكونون معتادين على استخدام أسلحة معيَّنة أو تقنيات معيَّنة لتوصيفها، فيسمّونها "الحرب الالكترونية"، "حرب الأسلحة الدقيقة"، و"حرب المعلومات".

وباستخدامهم أسلوباً نمطياً في التفكير لا يلحظ الناس أن تغييراً غير واضح لكنه مهم للغاية يحدث خلسة.

ليس لأحد الحق في وضع سمة مميزة للحرب:

الثورة في السلاح تمهيد للثورة في الشؤون العسكرية، والاختلاف عن الماضي هو أن الثورة القادمة في الشؤون العسكرية لن تحدث بتأثير سلاح فردي أو سلاحين، فالعدد الكبير من الابتكارات التكنولوجية الجديدة شجّعت الناس باستمرار للتطلُّع للجديد منها والانبهار به، وإلى جانب ذلك سرعان ما رفعت هذه التكنولوجيا الغموض عن كل نوع من أنواع الأسلحة. ففي الماضي، كان كل ما يحتاجه الناس هو ابتكار عدد قليل من الأسلحة أو المعدات، مثل ركاب السرج ومدفع مكسيم الرشاش[1]، وكان هذا كافياً لتغيير شكل الحرب، بينما اليوم نحتاج إلى ما يزيد على مئة نوع من الأسلحة لصنع نظام تسليحي معيّن قبل أن يكون له تأثير حقيقي على الحرب. لكن كلما ابتُكِرَت أسلحة جديدة تناقص دور الأسلحة الفردية في الحرب، وهذه مفارقة متأصلة في العلاقة بين السلاح والحرب.

وبهذا المعنى، وخلافاً للاستخدام الشامل للسلاح النووي-وهو احتمال يتضاءل

1 خلال معركة السوم في الحرب العالمية الأولى في الأول من تموز سنة 1916، شنّت القوات الإنجليزية هجوماً عل الألمان الذين استخدموا مدافع مكسيم الرشاشة لصد القوات الإنجليزية، التي كانت تعمل في تشكيلات مرتبة بشكل صارم، فأدى ذلك لسقوط ستين ألفاً بين قتيل وجريح في غضون يوم واحد، ومنذ تلك الواقعة بدأ استخدام تجميع القوات في تشكيلات في ساحة المعركة بالتراجع تدريجياً.



باستمرار، وبالتالي فلا يمكن تسمية هذا العصر بعصر الحرب النووية- ولا واحدة من الأسلحة الأخرى، ولا حتى تلك التي تكون ثورية بطبيعتها، تملك الحق بتسمية حرب المستقبل عليها.

ربما لأن الجميع يدركون هذه النقطة تحديداً، بات لدينا مُسَمَّيات مثل: "حرب التكنولوجيا المتقدمة" و"حرب المعلومات"[1]، والتي تهدف لاستخدام المفهوم الواسع للتكنولوجيا بدلاً من استخدام مفهوم لأسلحة محددة، باستخدام مقاربة التعلم الضبابي[2] لحل هذه المشكلة المعقَّدة، لكن يبقى هذا غير كافٍ لحل المشكلة.

عندما يسبر المرء أغوار هذا المصطلح: "التكنولوجيا العالية"[3]، التي ظهرت بداية في الصناعة المعمارية في الولايات المتحدة، يجده غامضاً بعض الشيء، ما هي مكوِّنات التقنية العالية؟ وإلى ماذا تشير؟ وفقاً للمنطق اللغوي فكلمتا عالي ومنخفض مفاهيم نسبية. لكنَّ استخدام مفهومٍ متقلِّبٍ بشدة بهذا الأسلوب غير المنطقي لتسمية الحرب التي تتطور بشكلٍ لا نهايةَ له يشكِّل مشكلة بحد ذاته، فعند جيل معيّن تصبح التكنولوجيا العالية بمرور الزمن تقنية منخفضة، فهل نحن مستعدون لوصف الألعاب الجديدة التي تظهر باستمرار على أنها عالية التقنية؟

1 إذا لم نعتبر آراء وينر عن الألعاب الحربية على أنها أقرب مناقشة لأسلحة المعلومات، يمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار كلام توم لونا عام 1976 بأن حرب المعلومات هي: «صراع بين أنظمة صنع القرار» وهذا يجعله أول من ابتكر مصطلح «حرب المعلومات» (الولايات المتحدة، مجلة المخابرات العسكرية، 1997) ويمكن أن يكون البحث المستقل الذي أجراه الباحث الصيني الشاب شين ويغانغ عام 1990 بعنوان: حرب المعلومات، أقدم دراسة عن حرب المعلومات. وفي كتاب توفلر بعنوان: «قوة الموجة الثالثة» أضفى توفلر على حرب المعلومات نظرة عالمية، في حين أن حرب الخليج باتت الإعلان الأنجح لهذا المفهوم الجديد للقتال، وعند هذه النقطة باتت مناقشة «حرب المعلومات» رائجة.

2 هو أسلوب في برمجة الآلة لجعلها تتخذ القرار بشكل مشابه للإنسان، حيث لا يكون الجواب على أي مشكلة 0 أو 1 كما في لغة الحاسوب بل يكون الجواب مجموعة كبيرة من الاحتمالات الموجّهة تتراوح قيمتها بين 0 و1.

3 يرى الخبراء الأجانب أن «التكنولوجيا العالية» ليست مفهوماً ثابتاً تماماً بل إنها مفهوم مرن، حيث تؤكِّد البلدان المختلفة على التكنولوجيا العالية بشكل مختلف، وتشمل التكنولوجيا العسكرية العالية بشكل أساسي تكنولوجيا الأجهزة الإلكترونية الدقيقة العسكرية، وتكنولوجيا الحاسبات، والتكنولوجيا الكهروضوئية، وتكنولوجيا الطيران، والتكنولوجيا الحيوية، وتكنولوجيا المواد الجديدة، وتكنولوجيا التخفّي، وتكنولوجيا الطاقة الموجَّهة. وأهم ما يميِّز التكنولوجيا العسكرية العالية هو «التكامل»، أي أن كل تقنية عسكرية عالية تتكون من تقنيات مختلفة لتشكيل مجموعة تكنولوجية.

أم أن هذا يمكن أن يؤدِّي في عالم اليوم الذي يسوده الانفجار التكنولوجي إلى خلطٍ ومشكلاتٍ في تسمية واستخدام كل تقنية تظهر حديثاً؟ ناهيك عن السؤال عما يجب أن يكون معيار تحديد فيما إن كان شيءٌ ما عالياً أم لا؟ وبالنسبة للتكنولوجيا ذاتها، فلكل تقنية اعتباراتها، مما يعني أن لكل منها وقته المحدود. فـ"العالي" البارحة يمكن جداً أن يكون "منخفضاً" اليوم، و"الحديث" اليوم سيصبح بدوره "قديماً" غداً.

بمقارنة الدبابة إم 60 وطائرة "كوبرا" المروحية والطائرة بي 52 القاذفة، التي كانت أسلحة المعركة الرئيسية من الستينات والسبعينات؛ فإنَّ دبابة "أبرامز" وطائرة "أباتشي" المروحية، وطائرة إف117، وصواريخ "باتريوت" وصواريخ كروز من طراز "توماهوك" تُعتَبَرُ تقنيات مُتقدِّمَة، لكن عند مقارنة هذه الأسلحة بطائرات بي2-وطائرة إف22 وطائرة "كومانش" المروحية ونظام "جي ستار" الراداري للاستطلاع المشترك والرد الفوري، يمكن القول إن هذه الأسلحة باتت قديمة الطراز؛ يمكن القول إن مفهوم السلاح العالي التقنية، مفهوم متغيِّر باستمرار، ويصبح بشكل طبيعي شبيهاً "بالعروس"، وبالتالي كما أن " الأزهار تتفتح كل سنة لكن الناس يتغيرون"[1]، فكل ما تبقى من هذا هو الاسم الذي يشبه الغلاف الفارغ، الذي يصف باستمرار الفتاة التي ستصبح "العروس" القادمة. وهكذا بهذه السلسلة من الحرب بروابطها المتصلة، يمكن لأي سلاح أن ينخفض مستواه من العالي إلى المنخفض ومن الحديث إلى القديم في أي وقت وفي أي مكان، فالوقت لن يتوقف عند أي نقطة؛ ولا يستطيع أي سلاح التربُّع على عرش أحدث التقنيات مدة طويلة. وبما أن الحال كذلك، فما الذي تشير إليه ما تسمى الحرب ذات التقنية العالية؟

حرب التقنية العالية كما قيل عنها عموماً، لا يمكن أن تكون مرادفاً لحرب المستقبل، ولا تكنولوجيا المعلومات أيضاً -وهي واحدة من التقنيات العالية في العصر الحالي والتي يبدو أنها ستحتلُّ موقعاً مهماً في تكوين كل السلاح الحديث- كافية لتكون هي حروب المستقبل. حتى وإن احتوت كل الأسلحة في حروب المستقبل مكوِّنات

1 نورس: مَثَل صيني

معلوماتية كجزء أصيل منها وإن كانت محوسبة بالكامل، فلا يمكننا تسمية الحرب باسم حرب المعلومات، ويمكننا تسميتها على الأكثر حرباً محوسبة[1]. وهذا لأنه بغضِّ النظر عن مدى أهمية تكنولوجيا المعلومات، فإنها لا تستطيع أن تحل محل وظائف وأدوار كل تقنية بحد ذاتها. على سبيل المثال، الطائرة إف22 التي تحتوي تكنولوجيا المعلومات ضمن تقنيتها، ما تزال طائرة مقاتلة وصواريخ توماهوك ما تزال صواريخ، ولا يستطيع المرء تصنيفها على أنها من أسلحة المعلومات، ولا يستطيع كذلك تسمية الحرب التي تُستخدم فيها هذه الأسلحة بحرب المعلومات[2].

---

1 ما زالت الآراء مختلفة فيما يتعلق بتعريف حرب المعلومات. وتعرِّف وزارة الدفاع الأمريكية وهيئة الأركان المشتركة حرب المعلومات على أنها: الإجراءات المُتخذة للتدخل في معلومات العدو ومعالجة المعلومات وأنظمة المعلومات وشبكات الكمبيوتر لتحقيق التفوق في المعلومات على العدو، مع حماية معلوماتنا ومعالجة البيانات وأنظمة المعلومات، وشبكات الحاسب الخاصة بنا. وحسب كرّاس الجيش الأمريكي الميداني FM100-6 «تفهم وزارة الدفاع الأمريكية حرب المعلومات بشكل يميل نحو تأثرات المعلومات في النزاعات الفعلية»، في حين يعلم الجيش أن المعلومات قد تدفقت بالفعل من كل جانب، من وقت السلم إلى الأعمال العسكرية في الحرب العالمية» (دار نشر العلوم العسكرية، الترجمة الصينية)، وبالمعنى الواسع: «تشكل حرب المعلومات إجراءات تستخدم معلومات لتحقيق أهداف وطنية». وهذا هو التعريف الذي قَدَّمَهُ جورج شتاين، الأستاذ في جامعة الطيران الأمريكية لحرب المعلومات والذي يعكس رؤية أوسع بعض الشيء من رؤية الجيش. وفي مقال نُشِر في العدد الصيفي لعام 1997 من مجلة «القوة الجوية» التي تصدر كل ثلاثة شهور، طرح الكولونيل براين فريدريكس أن: «حرب المعلومات قضية تتجاوز نطاق الدفاع الوطني». وربما يكون هذا الوصف هو الأدق لحرب المعلومات بالمعنى الواسع.

2 يعارض بعض الضباط الشباب الأذكياء في الجيش الأمريكي بشكل متزايد مفهوم «حرب المعلومات» في الجيش الأمريكي، في مواجهة الموقف الذي تتسع فيه تداعيات مفهوم «حرب المعلومات»، ويشير المقدم جيمس روجرز في القوات الجوية إلى أن «حرب المعلومات» ليست شيئاً جديداً، حتى لو كان أولئك الذين يؤكدون أن تقنيات واستراتيجيات حرب المعلومات ستحل حتماً محل الحرب المسلحة، واثقون من أنفسهم. وطرح الملازم في البحرية روبرت جيرلي: أن الأسباب السبعة لسوء الفهم فيما يتعلق بحرب المعلومات هي: 1- الإفراط في استخدام الأساليب المتماثلة. 2- المبالغة في التهديد الذي تمثِّله هذه الحرب. 3- المبالغة في تقدير القوة الذاتية.4- الأهمية التاريخية والدقة. 5- تجنب انتقاد المحاولات الشاذة. 6- الافتراضات التي لا أساس لها على الإطلاق. 7- التعريفات غير القياسية. كما كتب الرائد في القوات الجوية يولين وايتهيد سنة 1997 في مجلة القوة الجوية أن المعلومات ليست كاملة القوة، وأن أسلحة المعلومات ليست «أسلحة سحرية». وبالتأكيد لا تقتصر الأسئلة حول حرب المعلومات على الأفراد، إذ إن وثيقة مجلة سلاح الجو الأمريكي «أسس حرب المعلومات» تميِّز بشكل صارم بين «الحرب في عصر المعلومات» و«حرب المعلومات»، وتنص على أن «الحرب في عصر المعلومات» هي حرب تستخدم أسلحة محوسبة؛ مثل استخدام صاروخ كروز لمهاجمة هدف، بينما تتعامل «حرب المعلومات» مع المعلومات على أنها عالم مستقل وسلاح قوي، وبالمثل فقد أعرب بعض العلماء المشهورين عن آرائهم الخاصة، فيذكِّرُنا إليوت كوهين الأستاذ في جامعة جونز هوبكنز أنه: « مثلما لم تؤدِ الأسلحة النووية إلى القضاء على القوات التقليدية، فلن تقضي ثورة المعلومات على تكتيكات حرب العصابات أو الإرهاب أو أسلحة الدمار الشامل».

الحرب المحوسبة بالمعنى الواسع للكلمة وحرب المعلومات بالمعنى الضيِّق شيئان مختلفان تماماً، فالأول يشير إلى أشكال متنوعة من الحرب التي تتحسن وتواكب تكنولوجيا المعلومات، بينما تشير الثانية بشكل أساسي إلى الحرب التي تُستخدَم تكنولوجيا المعلومات فيها بغية الحصول على المعلومات أو منع وصولها. كما أن الأسطورة المعاصِرة التي اختلقها عَبَدَةُ تكنولوجيا المعلومات أوقعت الناس في خطأ الاعتقاد بأن هذه التكنولوجيا هي التكنولوجيا الصاعدة الوحيدة، بينما غربت الشمس على البقية. ربما تضع هذه الأسطورة مزيداً من المال في جيوب بيل غيتس، لكنها لا تستطيع تغيير حقيقة أن تطوير تكنولوجيا المعلومات تعتمد بنفس القَدْرِ على تطوير تكنولوجيا أخرى، ويشكِّل تطوير تقنيات المواد المتعلقة بها قيداً مباشراً على التَّقَدُّم في تكنولوجيا المعلومات. فعلى سبيل المثال تطوير التكنولوجيا الحيوية سيحدد مصير مستقبل تكنولوجيا المعلومات[1]، وبالحديث عن تكنولوجيا المعلومات سننتقل كذلك إلى موضوع سابق وسنطرح مجدداً افتراضاً جديداً: إن استخدم الناس أسلحةً حيويةً موجَّهَةً بنُظُمِ المعلومات لمهاجمة حاسوب حيوي[2] هل سيُعتَبَر هذا حرباً بيولوجية أم حرب معلومات؟ أخشى أنه لن يكون بوسع أحد الإجابة على هذا السؤال بجملة واحدة، لكن هذا شيء ممكن الحدوث جداً. وفي الواقع فليس من الضروري في الأساس أن يُتعِب الناس أذهانهم كثيراً بالتساؤل ما إن كانت تكنولوجيا المعلومات ستنمو بشكل أقوى وأعند مما هي عليه اليوم لأنها هي نفسها نتيجة لاجتماع تقنيات أخرى، وظهورها الأول وكل خطوة تخطوها للأمام هي عملية امتزاج بالتقنيات الأخرى، لدرجة أنها جزء منهم، وهم جزء منها، وهذه بالضبط هي السِّمة الجوهرية لعصر الاندماج التكنولوجي والعولمة. وبطبيعة الحال مثلَ الصور التي يصنعها الختم الفولاذي، فهذه السمة يمكن أن تترك بصمتها

1 تمثِّل الأنظمة الجزيئية المصممة والمُنتَجَة باستخدام التكنولوجيا الحيوية مواد الإنتاج لمكونات ألكترونية أعلى تصنيفاً، على سبيل المثال: حواسيب الجزيئات البروتينية فيها سرعة الحساب وإمكانات الذاكرة أكبر بمئات المرات من حواسيبنا الحالية. (كتاب: منظورات عسكرية جديدة للقرن القادم، لدار نشر العلوم العسكرية عام 1997).

2 الحواسب الحيوية تستخدم نظماً من جزيئات مشتقة حيوياً، مثل حمض نووي ريبوزي منقوص الأكسجين والبروتينات لأداء العمليات الحسابية بما فيها تخزين، استرجاع، ومعالجة البيانات، وأصبح تطوير الحواسب الحيوية ممكناً من خلال توسع علم التقانة النانوية الحيوية الجديدة.



المميزة على كل سلاح حديث. بالتأكيد لا شك بأن أسلحة معينة متطورة ستلعب دوراً رئيسياً، لكن كما هو الحال في تحديد نتيجة الحرب من الصعب جداً اليوم على أي طرف أن يحتل موقعاً لا يُنازَع عليه؛ يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تكون رائدة، لكنها لن تكون وحيدة، هذا إن لم تتغير التكنولوجيا نفسها. مما يعني أيضاً أنه ما من أحد يستطيع أن يضع اسمه بكل وقاحة على حرب حديثة.

"خض الحرب التي تناسب سلاحك" و"اصنع الأسلحة التي تتناسب مع الحرب":

هاتان الجملتان: "خض الحرب التي تناسب سلاحك" و"اصنع الأسلحة التي تلائم الحرب" توضّح الخط الفاصل بين الحروب التقليدية وحروب المستقبل، كما أنها تُظهِرُ العلاقة بين الأسلحة والتكتيكات في نوعي الحرب، وتعكس الأولى التكيُّف اللاإرادي أو السلبي للإنسان مع السلاح والتكتيكات في الحرب التي تحدث في الظروف الطبيعية، بينما تطرح الثانية الخيار الواعي أو الإيجابي الذي يتخذه الناس فيما يتعلق بذات المسألة عندما يكون الاختيار متاحاً لهم. في تاريخ الحرب يكون القانون العام غير المكتوب الذي التزم به الناس دوماً هو: "خض الحرب التي تلائم أسلحتك". وفي العادة لا يبدأ المرء في صياغة تكتيكات تتطابق مع وضعه إلا بعد أن يمتلك سلاحاً أولاً، ومع مجيء الأسلحة أولاً ثم مجيء التكتيكات بعدها يقيّد تطوير السلاح بشكل حاسم تطوّر التكتيكات (يضع تطوير السلاح الخطوط العامة لتطوير التكتيكات)، وبطبيعة الحال، يوجد عوامل تحدُّ من هذا التطور هي العصر والتكنولوجيا، لكننا لا يمكن أن نقول إنه ليس ثمة علاقة بين هذا التلازم بين السلاح والتكتيكات من جهة وبين التفكير الخطي (الطردي) لكل جيل من الخبراء المختصين بصناعة السلاح من جهة ثانية، فهم يفكرون فقط بتطوير أداء السلاح نفسه، ولا يأخذون بعين الاعتبار الجوانب الأخرى (العلاقة بالتكتيكات). ربما هذا أحد العوامل التي تفسّر لماذا تسبق ثورة السلاح بثبات الثورة في الشؤون العسكرية.

رغم أن المقولة القائلة: "خض القتال الذي يلائم سلاحك" سلبية بطبيعتها لأن

الجزء الثاني الذي تعنيه هذه المقولة دون أن تنص عليه (لا تخض القتال الذي لا يلائم سلاحك) يعكس نوعاً من العجز، لكننا لا نريد الاستخفاف بالمعنى الإيجابي التي تحمله هذه المقولة في هذا العصر وهذا المعنى الإيجابي هو السعي للوصول إلى التكتيكات المثالية للأسلحة التي يمتلكها المرء. أي، السعي للوصول إلى أفضل أسلوب قتال يمكن استخدام الأسلحة به، وبالتالي الوصول إلى ذروة الأداء لهذه الأسلحة. اليوم هؤلاء المنخرطون في الحرب أتمّوا إما عن وعي أو عن غير وعي الانتقال بهذه القاعدة من السلبية إلى الإيجابية، كل ما في الأمر أن الناس يعتقدون خطأً أن هذه المبادرة تقتصر على الدول المتخلِّفَة التي تتخذها في ظلِّ عجزها، وهم بالكاد يدركون أن الولايات المتحدة؛ القوة الأولى في العالم يجب عليها أن تواجه بشكل مماثل هذا النوع من العجز، حتى وإن كانت أغنى دولة في العالم، فليس من الضروري لها أن تستخدم جنودها وأسلحتها ذات التقنيات المتطورة لخوض حرب حديثة مُكلِفَة[1]، كل ما في الأمر أن لديها مزيداً من الحرية عندما يتعلق الأمر بالاختيار والمزاوجة في استخدام الأسلحة القديمة والحديثة.

إن كان بوسع المرء أن يجد نقطة توافق واحدة جيدة، فهي التكتيكات الناتجة عن المزاوجة واستخدام الأجيال الحديثة والجديدة من السلاح فهذا لا يجتثُّ الضعف الناجم عن توحيد نمط التسليح فحسب، بل ربما يصبح عاملاً مضاعِفَاً لزيادة فاعلية الأسلحة. القاذفة بي 52 التي توقّع الناس في مناسبات عديدة تقاعدها من الخدمة بسلام، عادت للتألق بعد أن اقترن عملها بصواريخ كروز وأسلحة أخرى عالية الدقة، ولم تسترح أجنحتها حتى هذا اليوم[2]، وباستخدام الصواريخ الخارجية الموجهة بالأشعة تحت الحمراء، تتمتع طائرات آي 10 بإمكانات الهجوم الليلي التي كانت تفتقدها في الأصل، وعندما اقترن استخدام هذه الطائرات بمروحيات الأباتشي تكاملت كل واحدة منهما مع الأخرى بشكل جميل، حتى أن

1 حتى في حرب الخليج التي وُصِفَت على أنها ساحة اختبار للأسلحة الجديدة كان هنالك عدد غير قليل من الأسلحة القديمة والذخائر التقليدية التي لعبت دوراً مهماً في الحرب (لمزيد من التفاصيل انظر «التقرير النهائي لوزارة الدفاع الأمريكية إلى الكونجرس حول حرب الخليج، الملحق»).

2 نورس: وُضِعَت قاذفة بي 52 في الخدمة اعتباراً من سنة 1952 وما تزال مستخدمة حتى اليوم؛ سنة 2020.



هذه المجموعة من الأسلحة التي ظهرت منتصف السبعينيات لم تفقد أَلَقَهَا حتى اليوم. من الواضح أن مقولة "خض الحرب التي تلائم سلاحك" لا تعني بأي شكل من الأشكال الجمود السلبي، على سبيل المثال، سوق الأسلحة المفتوح بشكل متزايد اليوم والقنوات المتعددة للحصول على السلاح قدّمت فسحة كبيرة لاختيار السلاح، والتعايش الكبير للأسلحة الذي يمتد عبر أجيال عديدة أوجد أساساً أوسعَ وأكثرَ فاعليةً في عملية الجمع بين الأسلحة من أجيال مختلفة أكثر من أي عصر مضى، لذا فمن الضروري فقط أن نتخلّص من عاداتنا الذهنية للتعامل مع أجيال السلاح واستخداماتها والجمع بينها وتعديل هذه العادات لنتمكن من تحويل شيءٍ بالٍ إلى شيءٍ خارق. إن كان المرء يعتقد أن عليه أن يعتمد على الأسلحة المتطورة ليخوض حرباً حديثة، فإنه يكون شخصاً مؤمناً بالخرافات بشكل أعمى حول الآثار الخارقة لهذه الأسلحة، وقد يحوّل هذا الإيمان الخاطئ بالفعل شيئاً خارقاً إلى شيء عديم النفع. نحن نجد أنفسنا في مرحلة تحدث فيها قفزة ثورية للأمام في عالم السلاح؛ الانتقال من أنظمة السلاح التي كانت البندقية رمزها إلى تلك التي باتت أسلحة المعلومات رمزها، وهذه قد تكون مدة مطوَّلة نسبياً لتبديل السلاح، في الوقت الراهن ليس لدينا طريقة لتوقُّع هذه المدة، لكن ما يمكننا قوله على وجه اليقين: طالما أن هذا التبديل لم يصل إلى نهايته، فخوض هذا النوع من المعارك الذي يناسب السلاح سيكون النهج الأساسي غالباً لأي بلد في التعامل مع العلاقة بين السلاح والقتال، وينطبق هذا على الولايات المتحدة، التي تمتلك أغلب الأسلحة المتطورة. ما يجب توضيحه هو أن الشيء الأكثر أهمية ليس هو الشيء ذا المستقبل الأفضل، والمبادرة بالعدوان ضمن ظروف سلبية مُسبقة هو فقط نهج محدد لزمن محدد، ولا يشكِّل في حال من الأحوال نهجاً دائماً. لقد انتقل التقدم العلمي على يد الإنسان على مدى فترة طويلة من الاكتشاف الإيجابي إلى الابتكار النشط، وعندما طرح الأمريكيون: "صناعة الأسلحة التي تناسب القتال" أثاروا أعظم تغيير في العلاقة بين الأسلحة والتكتيكات منذ ظهور الحرب.

حدد أولاً طريقة القتال، ثم طوِّر الأسلحة. وفي هذا الصدد كان أول ما قام به

الأمريكيون هو "المعركة الجوية البرية" بينما يمثِّل "ميدان المعركة المحوسب" و"الوحدات الرقمية" المعروفة حالياً [1] والتي أثارت الكثير من الجدل هي محاولتهم الأخيرة، ويشير هذا النهج إلى أن موقع السلاح الذي يتقدم بثبات على الثورة في الشؤون العسكرية قد اهتز الآن، والآن تأتي التكتيكات أولاً ومن ثم يتبعها السلاح، أو أن كل واحد منهما يشجِّع الآخر، مع التقدُّم بأسلوب الدفع والسحب[2] الذي يصبح العلاقة الجديدة بينهم. وفي ذات الوقت، الأسلحة نفسها أحدثت تغييرات ترقى لمستوى إطلاق حقبة جديدة، وتطويرها لم يعد يُنظَر إليه على أنه تحسينات في أداء السلاح الفردي، وإنما فيما إن كان للسلاح ميزات جيدة ليرتبط ويتكامل مع الأسلحة الأخرى. كما في طائرة إف111، التي كانت تشكِّل وحدها صنفاً من السلاح في ذاك الوقت، لأنها كانت متطورة جداً، لا يوجد طريقة لمزاوجتها مع الأسلحة الأخرى، لذا لم يكن ثمة بدٌّ من الاستغناء عنها. وتم استيعاب الدرس الآن فأصبح التفكير الذي يحاول الاعتماد على واحد أو اثنين من الأسلحة التقنية المتطورة ليعمل ك "سلاح فتّاك" يمكنه أن يضع نهاية للعدو، تفكيراً عفا عليه الزمن.

"اصنع اسلحتك لتتناسب مع القتال" نهج يضم الميزات الرئيسية للعصر وسمات المختبر، ولا يمكن النظر إليه كنوع من الاختيار النشط بل يمكن أخذه أيضاً كمواكبة للأحداث المتغيرة عبر التمسك به كمبدأ جوهري، إضافة إلى كونه طفرة كبيرة في تاريخ التحضير للحرب، كما يدلُّ أيضاً على المشكلة الكامنة في الحرب الحديثة: تخصيص أنظمة الأسلحة في تكتيكات ما تزال قيد الاستكشاف والدراسة

1 بدءاً بأسلحة «المعركة الجوية البرية» قسَّم الجيش الأمريكي تطويره للأسلحة إلى خمس مراحل رئيسية: تقديم الطلبات، مسودة الخطة، إثبات المفهوم، التطوير الهندسي والإنتاج، تجهيز الوحدات. ويتَّبع التطوير فيما يتعلق بتجهيز الوحدات الرقيمة ذات المسار (مجلة الجيش الأمريكي، تشرين الأول سنة 1995). وفي شهر آذار أجرى الجي الأمريكي اختباراً قتالياً على مستوى لواء، واختبر ما مجموعه 58 نوعاً من المعدات الرقمية. ووفقاً لجوي إي ويلسون، قائد قسم العتاد في الجيش الأمريكي، فقد كانت مهمته هي التعاون مع قيادة التدريب والعقيدة القتالية، والتفكير في تطوير معدات تقنية متقدمة وجريئة ومبتكرة تلبي احتياجاتهم (الولايات المتحدة، مجلة الجيش، تشرين الأول 1997).

2 استراتيجيات الدفع والسحب هي طرق ترويجية للسوق ، إما عن طريق دفع المنتج نحو العملاء أو سحب العملاء للمنتج من خلال سلسلة البيع بالتجزئة تجاههم ، تم استخدامه تقليديًا في إدارة التوريد من قبل الشركات المصنعة ، ثم تم اعتماده للمسوّقين للمساعدة في استراتيجياتهم الترويجية.

مثل تحضير الطعام لمأدبة كبيرة دون معرفة من هم المدعوون، حيث يكون أدنى خطأ كارثياً. وعند النظر إلى أداء الجيش الأمريكي في الصومال، حيث حدثت خسارة حين واجه قوات عليديد، فلم يتمكن أقوى جيش في العالم من السيطرة على الجماهير الصاخبة، ولم يستطع التعامل مع عدو يقوم بأشياء غير تقليدية. في ميادين المعارك المستقبلية، قد تكون القوات المحوسَبَة مثل طباخ ماهر جيد في طهي الكركند مع الزبدة، أما عندما تواجههم حرب العصابات التي تستهلك قواتهم ببطء وصبر لا يمكنهم سوى التنهُّد يائسين. وربما تكون "فجوة الجيل"[1] في الأسلحة والقوات العسكرية قضية تتطلب اهتماماً استثنائياً، فكلما تقاربت الفجوة بين الأجيال، كانت نجاحات الجيل الأكبر سناً أوضح، وكلما تباعدت الفجوة كانت قدرة كل طرف من الأطراف على التعامل مع الآخر أقل، وربما تصل إلى نقطة لا يستطيع فيها أي طرف إلغاء الطرف الآخر. وبالنظر إلى نماذج محددة لبعض المعارك نجد أن من الصعب لقوات التقنية العالية التعامل مع حرب غير تقليدية أو حرب منخفضة التقنية، وربما يكون هنالك قاعدة هنا، أو على الأقل ظاهرة ملفتة للانتباه تستحق الدراسة[2].

أسلحة المفاهيم الجديدة والمفاهيم الجديدة للأسلحة:

مقارنة بالأسلحة ذات المفاهيم الجديدة، تقريباً كافة الأسلحة التي نعرفها لحد اليوم هي أسلحة بمفاهيم قديمة، والسبب في وصفها بأنها قديمة هو أن الوظيفة الأساسية لهذه الأسلحة هي قوة الفتك والحركية. وحتى أشياء من قبيل القنابل

1 يعتقد سليبكينكو رئيس قسم البحث العلمي في أكاديمية الأركان الروسية، أن الحرب والأسلحة قد مرّت بالفعل بخمس مراحل، ونتجه الآن نحو المرحلة السادسة (الثورة العسكرية الأمريكية والروسية الجديدة، دار نشر العلوم العسكرية طبعة 1996، ص6).

2 نشرت مجلة جامعة الدفاع الوطني، العدد 11سنة 1998 مقالاً عن مقابلة تشن بوجيانغ مع فيليب أودين رئيس هيئة الدفاع الوطني الأمريكية، وذكر أودين «الحرب غير المتكافئة عدة مرات معتقداً أن هذا تهديد للولايات المتحدة، كما نشر أنتوليونو إيشافيرا مقالاً في مجلة باراميترز طرح فيه فكرة: «في عصر ما بعد الصناعة، سيكون أصعب شيء للتعامل معه هو الحرب الشعبية».

الموجّهة عالية الدقة والأسلحة عالية التقنية ليست سوى إضافة عنصرين هما الذكاء والإمكانات الهيكلية، ومن وجهة نظر التطبيق العملي، فالتغيير في المظهر لا يمكنه تبديل طبيعة السلاح كسلاح تقليدي، أي: التحكم الكامل بهذه الأسلحة من قبل جنود محترفين واستخدامها في معارك معيّنة. كل الجهود التي بُذِلَت لجعل هذا الأسلحة -التي أُنتِجَت وفقاً للتفكير العسكري التقليدي- تتوافق مع الحرب الحديثة والمستقبلية وصلت إلى طريق مسدود. أولئك الراغبون باستخدام سحر التقنيات المتقدمة لتضفي لمستها السحرية على الأسلحة التقليدية بحيث يُعاد تصنيعها بالكامل سقطوا بلا شك في فخ التقنية العالية التي تنطوي على هدر لا نهاية له للأموال المحدودة وسباق تسلح. هذه هي المفارقة التي لا بد من مواجهتها في عملية تطوير السلاح التقليدي:

كي نتأكّد من أن الأسلحة في المقدمة، يجب على المرء أن يواصل زيادة التكاليف على أمل الوصول للنتائج المرجوّة، ونتيجة هذه الزيادة المتواصلة في النفقات هي أنه لن يبقى لدى أحد ما يكفي من مال للمحافظة على الصدارة، والنتيجة النهائية هي أن الأسلحة التي تتمثل مهمتها في الدفاع عن البلاد تصبح سبباً لإفلاس الدولة.

ربما أقرب الأمثلة عن هذا هي الأكثر إقناعاً، الماريشال اورغاكوف الرئيس السابق لهيئة الأركان السوفيتية السابق، الذي كان في الواقع مدركاً تماماً لاتجاه تطوير السلاح في "العصر النووي"، وعندما سنحت الفرصة اقترح مفهوم الأسلحة الحديثة المتماهي تماماً مع "الثورة في التقنية العسكرية"، وكان تفكيره متقدماً بشكل واضح على تفكير جيله. لكن ريادة أفكاره لم تجلب السعادة إلى بلده بل جلبت نتائج كارثية[1]، حالما طرح مفهومه-الذي رآه زملائه ضمن ظروف الحرب الباردة تحديداً

1 يعتقد خبراء الدفاع الأمريكيون أن أورجاكوف قد رأى بالفعل أن التكنولوجيا الالكترونية ستؤدي إلى ثورة في الأسلحة التقليدية، وأنها ستحل محل الأسلحة النووية من حيث الآثار والنتائج، ومع هذا فإن من الإنصاف القول إن أورجانوف قد انحرف عن جادة الحكمة والبصيرة فيما يتعلق بقضية الثورة في الشؤون العسكرية بسبب مشكلات في طريقة التفكير. «إذا تجاوز بلد ما الحدود التي يمكن أن يتحملها نظامه وظروفه المادية، لمواكبة التكاليف الباهظة للثورة في الشؤون العسكرية، لكنه استمر في الانخراط في صراعات القوة العسكرية مع خصومه، فالنتيجة الحتمية هي أن هذا البلد سيتخلّف أكثر بالنسبة للقوات العسكرية التي يمكنه استخدامها. لقد كان هذا هو المصير الذي لاقته روسيا في العهدين القيصري والسوفياتي: فقد تحمل الاتحاد السوفياتي أعباء عسكرية باهظة، بينما كان الجيش غير

لوتيرة الحرب- ازدادت وتيرة سباق التسلح الذي استمر لمدة من الزمن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. كان الأمر كذلك، في ذلك الوقت لم يكن بوسع أحد التنبؤ بأن هذا يمكن أن يكون السبب في انهيار الاتحاد السوفياتي وخروجه تماماً من التنافس في مجال أسلحة الدمار الشامل. وانهارت الإمبراطورية القوية دون إطلاق طلقة واحدة، وكأن هذا يثبت بوضوح أبيات قصيدة كبلنغ الشهيرة: "انهيار الامبراطوريات لا يكون بالسقوط المدوي، بل بانقطاع الأنفاس المتروِّي"، ولا ينطبق هذا على الاتحاد السوفياتي السابق فقط بل يبدو أن الأمريكيين يسلكون ذات الطريق الذي سار فيه أعداؤهم السابقون، مما يقدِّم برهاناً جديداً على مفارقة تطوير السلاح التي طرحناها. ومع توضّح الخطوط العريضة لاندماج التكنولوجيا، فالأمريكيون يستثمرون أكثر فأكثر في مجال الأسلحة الحديثة، وكلفة الأسلحة ترتفع أكثر فأكثر، لقد كلّف تطوير طائرتي إف14- وإف15 في الستينات والسبعينات مليار دولار، بينما كلّف تطوير طائرة بي2- ما يزيد على 10 مليارات دولار، وتخطّت كلفة تطوير طائرة إف22- في التسعينات 13 مليار دولار، وبناءً على الوزن فطائرة بي2-[1] التي يبلغ ثمن الواحدة منها ما بين 15-13 مليار دولار تعادل نحو ثلاثة أمثال وزنها ذهباً[2]، وتتراكم الأسلحة المرتفعة الكلفة مثل هذه الطائرة في الترسانة الأمريكية، مثل قاذفة إف117-، مقاتلة إف22- الرئيسية، وطائرة كومانش المروحية، وتكلفة كل قطعة من هذه الأسلحة تتخطى المئة مليون دولار أو تقترب منها، وهذه الكمية الهائلة من الأسلحة بكلفتها غير المعقولة بالنسبة لفاعليتها أثقلت كاهل الجيش

راغب لتقبل الانكماش الاستراتيجي» (مجلة ستراتيجيك ريفيو، سنة 1996، ستيفن بلانك، الإعداد للحرب القادمة: بعض وجهات النظر حول الثورة في الشؤون العسكرية»).

1 سنة 1981 قدَّرت القوة الجوية الأمريكية أن بوسعها إنتاج 132 طائرة B-2 بكلفة نحو 22 مليار دولار، لكن بعدها بثمان سنوات، لم تتمكن بهذا القدر من المال سوى أن تنتج طائرة واحدة من هذا الطراز، وبناءً على قيمتها المقدَّرة على الوزن، فطائرة B-2 تعادل ثلاثة أمثال وزنها ذهباً (مجلة الجيش الحديث، رقم8، عام 1998، صفحة 33، تحليل شو تشاو لأسلوب التخفي في السياسة العسكرية الأمريكية).

2 أجرت وزارة الدفاع الأمريكية تحليلاً في 13 كانون الثاني عام 1993 عن الهجوم الجوي في العراق، وتوصَّلَت إلى أن هنالك حدوداً كبيرة للأسلحة عالية الدقة، وأن تأثير الجمع بين تأثيرات القنابل كان في بعض المرات أفضل منه من تأثير القنابل الدقيقة (الولايات المتحدة، أسبوع اطيران وتكنولوجيا الفضاء، 25 كانون الثاني 1993).

الأمريكي، مما دفعهم خطوة خطوة نحو فخ التقنية العالية حيث ترتفع الكلفة باستمرار. إن استمر هذا مع الولايات المتحدة الغنية والمتهوِّرة، فكيف سيكون الحال مع الدول الأخرى، الأقل ثراء التي تسلك هذا الطريق؟ بالتأكيد سيكون من الصعب على أي شخص مواصلة السير في هذا الطريق، بطبيعة الحال فالسبيل للتخلص من هذا المأزق يكون بتطوير طرق مختلفة.

لذا ظهرت الأسلحة بمفاهيم جديدة لتؤدي الغرض المطلوب. لكن هذا لا يبدو عادلاً للناس فالأمريكيون لهم الصدارة في هذا الاتجاه أيضاً، فمنذ بداية حرب فيتنام قصف الأمريكيون "ممر هوشي منه"[1] بمسحوق يوديد الفضة مما أسفر عن دمار واسع، وتناثر رذاذ المواد الكيميائية المُتلِفة "defoliants" على الغابات شبه الاستوائية مما وضع "الأمريكيين الأشرار" في الصدارة فيما يتعلق باستخدام الأسلحة ذات المفاهيم الجديدة والقسوة الشديدة في استخدامها، وبعدها بثلاثين عاماً وبالاستفادة من ثنائية المال والتكنولوجيا، فلا يمكن لأحد أن يداني مستواهم في هذا المجال.

لكن الأمريكيين ليسوا بالضرورة المتصدرين والمتفردين في كل شيء، فالمفاهيم الجديدة للأسلحة، التي تأتي بعد الأسلحة ذات المفاهيم الجديدة والتي تغطّي مساحة أوسع، كانت امتداداً طبيعياً لظهور هذه الأسلحة. ومع ذلك لم يتمكن الأمريكيون من توحيد جهودهم في هذا المجال، ويعود السبب في هذا إلى أن طرح مفهوم جديد للأسلحة لا يتطلب الاعتماد على مُنطلَق للتكنولوجيا الجديدة، إنه يتطلب فقط تفكيراً واضحاً ومستنيراً. لكن هذه ليست نقطة قوة للأمريكيين، الذين يعبدون التكنولوجيا في طريقة تفكيرهم، فالأمريكيون بلا شك يتوقف تفكيرهم عند الحدود التي لم تصل إليها التكنولوجيا بعد. ولا يمكن إنكار أن الهزات الأرضية المصطنعة، وفيضانات تسونامي، وكوارث الطقس، والموجات تحت الصوتية، والأسلحة البيولوجية والكيميائية الجديدة كلها تؤسس أسلحة ذات مفاهيم

1 نورس: طريق مموه كان يصل بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية، استخدم لأغراض التسلل والإمداد أثناء حرب فيتنام.



جديدة[1]، وتختلف اختلافات كبيرة عما نسميه عادة أسلحة، لكن كلها تبقى أسلحة هدفها المباشر هو القتل أو التدمير، وما تزال مرتبطة بالشؤون العسكرية والجنود والذخائر. وضمن هذا السياق، فهذه ليست سوى أسلحة تقليدية تبدّلت آلية عملها وتضاعفت قوَّتُها القاتلة وإمكاناتها التدميرية عدة مرات.

لكن المفهوم الجديد للسلاح مختلف، فهذا المفهوم وما يدعوه الناس أسلحةً ذات مفاهيم جديدة شيئان مختلفان تماماً. فبينما يمكن القول إن الأسلحة ذات المفاهيم الجديدة هي أسلحة تتجاوز مجال الأسلحة التقليدية التي يمكن أن يتم التحكم والتلاعب بها على مستوى التقنية، والتي تتمتع بالقدرة على إلحاق الأذى المادي أو النفسي بالعدو، وفي مواجهة المفاهيم الجديدة للأسلحة، تبقى هذه الأسلحة أسلحة بالمفهوم الضيق للسلاح، لأن المفهوم الجديد للسلاح هو رؤية للأسلحة بالمعنى الواسع، حيث تُعتَبَر أسلحة تتجاوز المجال العسكري ولكن ما زالت قابلة للاستخدام في العمليات القتالية. ووفقاً للتفكير البشري فكل ما يمكنه نفع الإنسان يمكنه أن يؤذيه أيضاً، وهذا يعني أنه ما من شيء في عالم اليوم إلا ويمكن أن يتحوَّل إلى سلاح، وهذا يتطلب منا فهماً يتجاوز جميع الحدود. مع الحاجة المُلِحَّة التي تطغى على التطورات التقنية لزيادة أنواع الأسلحة، يمكن أن يؤدي تحوّل كبير في تفكيرنا إلى فتح مجال مملكة السلاح بضربة واحدة، فكما رأينا يمكن لانهيار واحد مفتعل للبورصة أو فيروس حاسوبي واحد أو إشاعة واحدة أو فضيحة واحدة أن تسبب حالة اضطراب في أسعار الصرف في بلد العدو أو تفضح قادة بلاد العدو على الانترنت، ويمكن تصنيف هذا كله ضمن الأسلحة ذات المفاهيم الجديدة، المفهوم الجديد للسلاح يقدِّم توجهاً للأسلحة ذات المفاهيم الجديدة، بينما الأسلحة ذات المفاهيم الجديدة تقدِّم صيغاً ثابتة للمفاهيم الجديدة للأسلحة، وفيما يتعلق بتدفق الأسلحة ذات المفاهيم الجديدة، لم تعد التكنولوجيا هي العامل الرئيسي، وإنما العامل الرئيسي المعتبر هو مفهوم جديد يتعلق بالأسلحة.

1 تشمل الأسلحة ذات المفهوم الجديد بشكل أساسي أسلحة الطاقة الحركية، وأسلحة الطاقة الموجَّهة والأسلحة التي تقل سرعتها عن سرعة الصوت والأسلحة الجيوفيزيائية وأسلحة الأرصاد الجوية وأسلحة الطاقة الشمسية وأسلحة الجينات وغيرها من الأسلحة (وجهات نظر عسكرية جديدة للقرن القادم، دار نشر العلوم العسكرية1997 صفحة 3).



ما يجب توضيحه هو أن المفاهيم الجديدة للأسلحة في طور إيجاد أسلحة مرتبطة بشكل وثيق بحياة الناس العاديين. دعونا نفترض أن أول شيء نقوله هو: ظهور الأسلحة ذات المفهوم الجديد سيرفع بلا شك حروب المستقبل إلى مستوى يصعب على الناس العاديين -أو حتى العسكريين-تخيله، ثم الشيء الثاني الذي يجب قوله: المفهوم الجديد للأسلحة سيُذهِلُ المدنيين والعسكريين على حد سواء من أن الأشياء المألوفة لديهم والمقرَّبة منهم قد تصبح أسلحة يمكن خوض الحرب بها. ونعتقد أن الناس ستصحو ذات يوم لتُفاجَئ بأن الأشياء اللطيفة والرقيقة بدأت تصبح هجومية وذات سمات قاتلة.

الاتجاه لأسلحة "ألطف":

قبل ظهور القنبلة الذرية، كانت الحرب على الدوام في "عصر العجز" فيما يخص القوة القاتلة، فانصبَّت جهود تطوير الأسلحة بالدرجة الأولى على تقوية القوة القاتلة، ومن "أسلحة القتل الخفيف" التي مثّلتها أسلحة الفولاذ البيضاء والأسلحة النارية ذات الطلقة الواحدة إلى "أسلحة القتل الثقيل" التي مثّلتها الأسلحة النارية الآلية المتنوعة، تاريخ تطوير الأسلحة كان على الدوام عملية متواصلة لزيادة القوة القاتلة للأسلحة، وأدى امتداد فترة العجز إلى تعطُّش العسكريين إلى الأسلحة ذات القوة القاتلة الأكبر بشراهة يصعب إرضاءها، ومع ظهور غيمة حمراء واحدة فوق أرض خالية في نيومكسيكو في الولايات المتحدة[1]، بات بوسع العسكريين الحصول على أسلحة التدمير الشامل التي يمكنها تحقيق أمانيهم، فهذه الأسلحة لا يمكنها اجتثاث العدو تماماً فحسب بل يمكنها قتله100 أو 1000 مرة، وأعطى هذا البشرية قوة قاتلة تفوق المطلوب، ولأول مرة وُجِدَت بعض السَّعَة التي يمكن ادخارها فيما يتعلق بالقوة القاتلة في الحرب.

تقول لنا المبادئ الفلسفية أن: لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان، واختراع الأسلحة

1 أول تجربة لقنبلة ذرية.

النووية، هذا "السلاح شديد الفتك"[1] الذي يمكنه محو البشرية من الوجود، أوقع البشرية في فخ وجودي صنعه بنفسه. وبات السلاح النووي مثل سيف ديموقليس[2] معلق فوق رأس البشرية ويجبرها على التأمل: هل حقاً تحتاج "سلاحاً شديد الفتك"؟ ما الفارق بين قتل العدو مرة واحدة وبين قتله مائة مرة؟ ما الحكمة من هزيمة العدو إن كان الثمن هو المجازفة بتدمير العالم؟ كيف نتجنّب الحرب المدمِّرة على الجميع؟ يشمل "توازن الرعب" ضمان "التدمير المتبادل" وهو النتيجة المباشرة لهذا النوع من التفكير، أما النتيجة الثانوية لهذا التفكير فهي تقديم آلية لفرملة العملية المندفعة لتعزيز الإمكانات القاتلة للأسلحة، والتي كانت تكتسب سرعة كبيرة، لدرجة أن تطوير السلاح لم يعد مجرد سباق جنوني بين أسلحة القتل الخفيف وأسلحة القتل الثقيل والأسلحة فائقة الفتك، مع محاولة الناس إيجاد مقاربة جديدة لتطوير السلاح الذي لن يكون مؤثراً فقط بل سيسيطر على القوة القاتلة للسلاح.

أي ابتكار تكنولوجي كبير سيكون له خلفية إنسانية عميقة، "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" الذي أطلقته الأمانة العامة للأمم المتحدة سنة 1948 وأكثر من 50 ميثاقاً مرتبطاً بها أسس القوانين الدولية لحقوق الإنسان التي تحدد استخدام أسلحة الدمار الشامل -وخصوصاً الأسلحة النووية- على أنها انتهاك لحق الإنسان في الحياة ويمثّل "جريمة ضد الإنسانية". وتحت تأثير حقوق الإنسان، والمفاهيم السياسية الجديدة الأخرى، إضافة إلى الاتجاه للتكامل بين الاقتصاد العالمي، والمطالب المتشابكة والمواقف السياسية بما فيها مصالح القوى الاجتماعية والسياسية

1 الفكرة من استبدال مفهوم «الأسلحة شديدة الفتك» بمفهوم «أسلحة الدمار الشامل» هي التأكيد على أن القوة الفتاكة لمثل هذه الأسلحة تزيد على حاجات الحرب وتمثِّل نتاج التفكير الإنساني المتطرف.

2 ديموقليس في الحكاية كان خطيباً متزلفاً في بلاط ديونيسوس الثاني من سيراقوسة، طاغية سيراقوسة بإيطاليا في القرن الرابع ق.م. فعرض ديونيسيوس على ديموقليس أن يتبادلا مكانيهما، حتى يتذوق ديموقليس بنفسه حظ الملك. فسارع ديموقليس على الفور بقبول عرض الملك. وجلس ديموقليس على عرش الملك محاطاً بكل الجاه والأبهة، إلا أن ديونيسيوس رتَّب أن يُعلَّق سيف فوق العرش، مربوط من طرفه بشعرة واحدة من ذيل حصان.



المتنوعة، أدى طرح اقتراح مفهوم "الاهتمام المطلق" بالبيئة الإيكولوجية[1] . وخصوصاً قيمة الحياة الإنسانية، إلى شكوك حول القتل والتدمير، مما يشكِّل مفهوماً بقيمة جديدة للحرب والأخلاق الجديدة للحرب.

الاتجاه نحو أسلحة "ألطف"[2] ليس إلا انعكاساً لهذا التغيير الكبير في خلفية الإنسان الثقافية على إنتاج وتطوير الأسلحة. وفي نفس الوقت أعطانا التقدم التقني الوسائل لضرب العدو في مركزه العصبي مباشرة دون أذية بقية الأعضاء، مما يعطينا خيارات جديدة لتحقيق النصر، وكل هذا يجعل الناس تؤمن بأن أفضل طريق لتحقيق النصر هي السيطرة وليس القتل. لقد حدثت تغييرات في مفهوم الحرب ومفهوم السلاح، والمقاربة لاستخدام القتل غير الخاضع للسيطرة لإجبار العدو على الاستسلام غير المشروط بات الآن من بقايا عصر منقضي، فقد مر عصر مفرمة اللحم على طراز حملات فيردان.

ظهور أسلحة القتل الدقيق والأسلحة غير القاتلة نقطة تحول في تطور السلاح، تشكف للمرة الأولى أن الأسلحة تتطور في اتجاه تصبح فيه "ألطف" وليس "أقوى". يمكن لأسلحة القتل الدقيق أن تصيب الهدف بدقة، وتقلل الخسائر الجانبية، ومثل سكين غاما التي يمكنها استئصال الورم دون إراقة نقطة دم واحدة، قادت هذه الأسلحة إلى الضربات "الجراحية" وما يماثلها من التكتيكات الجديدة، لدرجة أن الأعمال القتالية غير الواضحة يمكن أن تؤدي إلى نتائج استراتيجية ملحوظة جداً، على سبيل المثال: بمجرد استخدام صاروخ واحد لتتبع إشارة هاتف نقال، استطاع الروس إسكات دوداييف للأبد والذي كان يمثِّل لهم صداعاً مزمناً، وفي نفس الوقت أخمدوا الكثير من الاضطرابات التي كانت تعج بها الشيشان تلك البلد الصغيرة جداً، الأسلحة غير القاتلة يمكنها اجتثاث الإمكانات القتالية من الأشخاص والمعدات

1 نورس: البيئة الأيكولوجية هي: علم البيئة هو فرع من فروع علم الأحياء الذي يدرس التفاعلات بين الكائنات الحية وبيئتها الفيزيائية الحيوية، والتي تشمل كلا من الكائنات الحية والمكونات غير الحية. تشمل الموضوعات ذات الأهمية التنوع البيولوجي والتوزيع والكتلة الحيوية ومجموعات الكائنات الحية، وكذلك التعاون والمنافسة داخل الأنواع وفيما بينها.

2 تشير كلمة «لطيف» في مصطلح «أسلحة ألطف» إلى حقيقة أن هذه الأسلحة تقلل القتل والخسائر الجانبية.

دون خسائر في الأرواح[1]. الاتجاه الراسخ في هذه الأسلحة يُظهِر أن البشرية تخوض عملية للتغلب على تفكيرها المتشدد، وبدأت بتعلم السيطرة على القوة القاتلة التي تمتلكها بالأصل لكنها قوة مفرطة بشكل متزايد. خلال القصف الرهيب الذي تواصل لأكثر من شهر خلال حرب الخليج، لم يتجاوز عدد القتلى من المدنيين العراقيين الآلاف[2]، وهو عدد أقل بكثير من الخسائر التي تعرضت لها مدينة دريزدن الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. تمثِّل الأسلحة الألطف آخر خيار واعٍ للبشر من بين خيارات متنوعة في ميدان السلاح والتي أُضيفت إليها المكونات البشرية وقتها -بعد أن امتلأت الأسلحة بعنصر التكنولوجيا الجديدة- مما أضفى على الحرب سمةَ طيبةِ القلب. ومع ذلك تبقى الأسلحة اللطيفة أسلحة، ولا يعني كونها أسلحة لطيفة أنها ستقلل من فعالية الأسلحة في ميدان المعركة. كي تتخلص من الإمكانات القتالية لدبابة يمكن للمرء استخدام المدافع أو الصواريخ لتدميرها، أو حزم أشعة الليزر لتدمير معداتها البصرية أو إعماء الطاقم، في ميدان المعركة، يحتاج المصاب رعاية أكثر من القتيل، والأسلحة المسيّرة (التي لا يستخدمها البشر بشكل مباشر بل يتحكمون بها عن بعد) يمكنها أن تدمِّر مرافق الحماية التي تزداد تكاليفها باستمرار. وبالتأكيد أولئك الذين يطوِّرون أسلحة ألطف يُجرون حسابات صارمة للتكلفة والفعالية لهذا. يمكن للخسائر أن تجرِّد العدو من إمكاناته القتالية، مما يسبب له الذعر وخسارة إرادة القتال، وبالتالي يمكن اعتبار هذا طريقة جديدة بشدة لتحقيق النصر، اليوم لدينا بالأصل ما يكفي من التكنولوجيا، ويمكننا إيجاد طرق عديدة للترهيب الأشد فعالية، مثل استخدام أشعة الليزر لعكس صور المصابين على السماء مما قد يكون كافياً لإخافة أولئك الجنود المتدينين جداً، لم يعد هنالك

---

1 في عدد نيسان من مجلة الدفاع الدولي البريطانية، كشفت المجلة أن الولايات المتحدة كانت تبحث بدأب عن تنويع الأسلحة غير القاتلة، بما في ذلك الأسلحة البصرية، أسلحة المايكرويف عالية الطاقة، أسلحة الموجات الصوتية، والموجات الليزرية. ونقل عدد مجلة الدفاع الأسبوعية في السادس من آذار سنة 1993 أن لجنة النظر في الأسلحة غير القاتلة على مستوى عالٍ في وزارة الدفاع قد أقرت لوائح تنفيذية لامتلاك واستخدام هذا النوع من الأسلحة. وكذلك، حسب مجلة العالم العسكري السنوية (الصفحات 522-521) أسست وزارة الدفاع الأمريكية «المجموعة الرائدة للبحث في الأسلحة غير القاتلة»، وهدفها الوصول إلى اختراع الأسلحة غير القاتلة بأسرع ما يمكن.

2 انظر البيانات العسكرية الأجنبية لدار نشر العلوم العسكرية، 26 آذار، 1993 العدد 27، الصفحة الثالثة.

أية عوائق أمام بناء هذا النوع من الأسلحة، إنه لا يتطلب سوى إضافة مزيدٍ من الإبداع إلى عنصر التكنولوجيا.

الأسلحة الألطف تمثّل اشتقاقاً لمفهوم جديد للأسلحة، بينما أسلحة المعلومات تمثّل مثالاً بارزاً عن الأسلحة اللطيفة، وسواء كانت تتضمن أسلحة الطاقة الكهرومغناطيسية للتدمير الشديد أو الضربات اللينة بالقنابل الذكية وفيروسات الشبكات والأسلحة الإعلامية، فكلها تركّز على شل وتقويض قوات العدو وليس إلحاق خسائر بشرية في صفوفه. الأسلحة الألطف التي وُلِدَت في عصر التكامل التقني فقط، يمكن جداً أن تكون الاتجاه الواعد أكثر من غيره فيما يتعلق بالسلاح، وفي نفس الوقت ستحقق أشكالاً من الحرب أو الثورات في الشؤون العسكرية التي لا يمكننا تخيلها أو التنبؤ بها اليوم. إنها تمثّل تغييراً له آثار عميقة على تاريخ الحرب البشرية حتى الآن، وهي كذلك الخط الفاصل بين القديم والجديد من أشكال الحرب، هذا لأن ظهورها كان كافياً لوضع كافة الحروب من عصر الأسلحة الباردة والحارة في خانة الحقبة القديمة. ومع هذا فلا يمكننا الانغماس في التخيلات الرومانسية عن التكنولوجيا، ونصدّق أن الحرب ستصبح من الآن وصاعداً مواجهة شبيهة بالألعاب الالكترونية، وحتى محاكاة الحرب في غرف حاسوبية مشابهة يجب أن تكون مصممة لتكافئ إمكانات البلاد الفعلية، ومهما وُضِعَت خطط لمحاكاة الحرب، فلن يعدو هذا كونه غطاءً لضعف داخلي عند طرف ما ولن يكون هذا كافياً لردع عدو أقوى من حيث القوة الفعلية.

تبقى الحرب أساس الموت والحياة، والسبيل إلى النجاة والبناء وأدنى درجة من السذاجة غير مقبولة، حتى وإن جاء يوم أصبحت فيه جميع الأسلحة إنسانية، فالحرب الألطف التي لا تُراق فيها الدماء تبقى حرباً، ربما يتغيّر النهج القاسي في الحرب، لكن ما من سبيل لتغيير جوهر الحرب، فهو إلزامي، وبالتالي لا يمكنها تبديل نتيجتها القاسية أيضاً.

الفصل الثاني:

وجه الحرب لم يعد واضحاً

"عبر التاريخ بأكمله، الحرب كائن متغير دوماً" **أندريه بوفر**[1]

انتقل الانسان منذ العصور الغابرة من اصطياد الحيوانات إلى قتل أبناء جلدته، وأخذ الناس يجهّزون وحش الحرب العملاق للعمل، وشجّعت الرغبة بتحقيق الطموحات الجامحة إلى الزج بالجنود في أتون الصراعات الدموية، لقد كان من المعلوم عالمياً أن الحرب هي شأن الجنود، ولعدة آلاف من السنين، كانت الأركان الماديّة الرئيسية لأي حرب هي الجنود والأسلحة وميدان المعركة، أما الركن المعنوي لأي حرب فقد كان: إرادة القتال. في الماضي لم يخطر ببال أحد أن يشكك بأن هذه هي الأركان الأساسية للحرب، لكن المشكلة بدأت عندما اكتشف الناس أن هذه الأركان الأساسية التي كانت تبدو صلبة وسريعة تغيّرت لدرجة أنه بات من المستحيل تمييزها تماماً، وعندما يعود هذا اليوم الذي تتمايز فيه أركان الحرب الرئيسية، هل تبقى الحرب واضحة؟

لماذا نقاتل ولأجل من؟

في العصور الإغريقية القديمة، إن كانت ملحمة هوميروس صحيحة، فالغاية من حرب طروادة كانت واضحة وبسيطة: فالوصول إلى هيلين الجميلة يستحقُّ حرباً لعشر سنوات، وفيما يتعلّق بالغايات، خاض أسلافنا حروباً بسيطة نسبياً فيما يتعلق بالغايات المنشودة، بعيداً عن أي تعقيد يمكن الحديث عنه. وهذا يعود إلى ضيق أفق أسلافنا، وضيق حيّز العمل لديهم، فقد كانت متطلبات العيش متواضعة، ولم تكن الأسلحة فتّاكة كفاية. ولم يكن أسلافنا ليفكّروا باستخدام

1 كان أندريه بوفر ضابطًا بالجيش الفرنسي واستراتيجيًا عسكريًا وحصل على رتبة جنرال دي أرمي قبل تقاعده في عام 1961. وُلد في نويي سور سين ودخل الأكاديمية العسكرية في مدرسة سان سير العسكرية الفرنسية في عام 1921، حيث التقى بالرئيس الفرنسي المستقبلي شارل ديجول ، الذي كان مدربًا.

وسائل استثنائية إلا إذا تعذّر تحقيق أهدافهم بالوسائل العادية، فعندها يلجئون إلى هذه الوسائل دون أدنى تردد. وهكذا كتب كلاوزفيتز مقولته الشهيرة، التي بقيت محل ثقة الجنود ورجال الدولة لعدة أجيال: "الحرب استمرار للسياسة". ربما خاض أجدادنا المعارك من أجل المكانة التقليدية لطائفة دينية، أو ربما لتوسيع المراعي وفيرة الماء والعشب، فلم يكن لديهم غضاضة من شن الحروب لأجل كلمة قيلت أو من أجل التوابل أو الخمور أو علاقة حب بين ملك وملكة، قصص الحرب التي نشبت بسبب التوابل والعاشقين والتمردات التي نشبت بسبب أشياء مثل الخمر، تسجِّلها صفحات التاريخ، قصص تجعلنا نحتار هل نضحك أم نبكي، ويوجد أيضاً الحرب التي شنتها إنكلترا على مملكة كينج من أجل تجارة الأفيون، وكان هذا نشاطاً تجارياً وطنياً للاتجار بالمخدرات ليس له مثيل في التاريخ. من الواضح من هذه الأمثلة أنه قبل العصور الحديثة، لم يكن هنالك سوى نوع واحد من الحروب فيما يتعلق بنوع الدافع ونوع الأعمال المترتبة عليها، والانتقال إلى العصور التالية، رفع هتلر شعار "الحصول على مساحة العيش للشعب الألماني"، ورفع اليابانيون شعار بناء ما أسموه "مساحة الرخاء المشترك لشرق آسيا الكبرى"، بينما كانت نظرة سريعة لتلك الشعارات تُظهِر أن الأهداف كانت أكثر تعقيداً من أهداف أي حرب قبلها، إلا أن الأسباب الحقيقية التي تقف وراء هذه الشعارات كانت ببساطة أن القوى الكبرى الجديدة أرادت مجدداً تقاسم مناطق نفوذ القوى العظمى القديمة وجني ثمار الاستيلاء على مستعمراتها.

معرفة السبب الذي يقاتل الناس من أجله اليوم ليس بالأمر السهل، ففي العصور الخالية كانت أفكار "تصدير الثورة" وشعار "كبح توسع الشيوعية" تستدعي ردود فعل لا حدود لها، لكن بعد النهاية التي آلت إليها الحرب الباردة عندما انهار الستار الحديدي الممتد على طول حدود المعسكرين الكبيرين فجأة، فقدت هذه الدعوات تأثيرها. العصور التي ترتسم فيها الأطراف بوضوح انتهت، من هم أعداؤنا؟ من هم أصدقاؤنا؟ بات هذان السؤالان هما السؤالان الرئيسيان فيما يتعلق بالثورة والثورة المضادة، فجأة باتت الإجابات معقَّدة، ومُربِكَة ومن الصعب تحديدها،

بلدٌ كان بالأمس عدواً بات وفقاً لعملية الصيرورة شريكاً حالياً، بينما بلد آخر كان حليفاً حتى زمن قريب جداً باتت مواجهته في ميدان المعركة ممكنة عندما تندلع الحرب مجدداً. العراق الذي كان قبل سنة واحدة يقاتل إيران بشراسة بالنيابة عن الولايات المتحدة في الحرب العراقية الإيرانية، بات نفسه هدفاً لهجوم شرس للجيش الأمريكي في السنة التالية[1]، المتمردون الأفغان الذين دربتهم المخابرات الأمريكية على حرب العصابات باتوا بين ليلة وضحاها هدفاً لهجوم أمريكي بصواريخ سكود، بل إن عضوي الناتو اليونان وتركيا كادا أن يشتبكا عدة مرات في نزاعهما على جزيرة قبرص، وكذلك اليابان وكوريا الجنوبية اللتان وقَّعَتَا اتفاقية تحالف فيما بينهما كادتا تدخلان حرباً مفتوحة نتيجة نزاعهما على جزيرة صغيرة جداً، وكل هذا يؤكِّد على المقولة القديمة: "الصداقة متغيرة، أما المصالح فثابتة"، مشهد الحرب تتحكم به المصالح الذاتية، وتعكس صوراً متغيرة باستمرار للمراقب.

1 لمزيد من المعلومات حول العلاقة الوثيقة بين العراق والولايات المتحدة، يمكن للقارئ أن يشير إلى: مقاتلي الصحراء: وجهة النظر الشخصية لقائد القوات المشتركة جونشير يوان: أقام العراق علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة، وتلقى العراق الأسلحة والمعلومات الاستخباراتية حول التحركات الإيرانية من الولايات المتحدة، إضافة إلى الدعم العسكري الأمريكي لهجمات العراق على البحرية الإيرانية».



تعمل تغيُّرات مذهلة في التكنولوجيا الحديثة المتقدمة على تعزيز العولمة، وكذلك إلى تكثيف حالة الشك التي ترافق انحلال بعض المصالح الذاتية وظهور مصالح أخرى. سبب اندلاع الحرب قد يكون أي شيء من النزاع على منطقة وموارد أو النزاع حول المعتقدات الدينية أو الكراهية التي تزرعها الخلافات القبلية، إلى النزاع بسبب الأيديولوجيا أو حتى النزاع حول فتح الأسواق أو النزاع على توزيع السلطة والنفوذ، أو النزاع على العقوبات الاقتصادية أو النزاع الناجم من الاضطرابات المالية. باتت أهداف الحرب غير واضحة بسبب السعي لأجندات متنوعة، وبالتالي فالأمر يزداد صعوبة على الناس ليقولوا بجلاء لماذا يقاتلون[1]. كل فرد شارك في حرب الخليج سيقول لك مباشرة

1 في مقال لوزير الدفاع الأمريكي وقتها ليس آسبين بعنوان: «تغير البيئة الأمنية في البحر» نُشر في شباط سنة 1993 في مجلة اوفيسر الصادرة في الولايات المتحدة:
مقارنة بين البيئتين الأمنيتين الجديدة والقديمة
بالنسبة للبيئة الجيوسياسية
البيئة الأمنية القديمة والجديدة: ثنائية القطبية (صارمة)، تعدد الأقطاب (معقد).
إمكانية التوقع، عدم اليقين.
الشيوعية المتزمتة والتشدد الديني
الولايات المتحدة في مقدمة القوى الغربية، الولايات المتحدة في مقدمة القوى العالمية.
حلفاء دائمون، حلفاء مؤقتون.
الأمم المتحدة مشلولة، الأمم المتحدة ديناميكية.
بالنسبة للتهديدات التي تواجهها الولايات المتحدة
البيئة الأمنية القديمة، البيئة الأمنية الجديدة
أحادي (السوفيات)، متنوع
التهديد لوجود الولايات المتحدة، التهديد لمصالح الولايات المتحدة.
واضح، غير واضح
يمكن ردعه، لا يمكن ردعه
يتركز على أوروبا، على المناطق الأخرى.
التصعيد خطير للغاية، التصعيد ليس خطراً
استخدام الأسلحة النووية الاستراتيجية، التخويف باستخدام الأسلحة النووية.
علني، مخفي.
بالنسبة لاستخدام القوة العسكرية
البيئة الأمنية القديمة، البيئة الأمنية الجديدة
حرب استنزاف، هجمات حاسمة على أهداف رئيسية
حرب بالوكالة، دعم مباشر
الاعتماد بالمقام الأول على التقنية العالية، الاستخدام المتكامل للتقنيات العالية والمتوسطة والمنخفضة
دعم الدول الحليفة، الاعتماد على القوة الخاصة من تحت الطاولة يمكن للمرء أن يرى حساسية الأمريكيين للتغييرات في بيئتهم الأمنية، والأنواع الأخرى للقوة والعوامل التي تقيِّد وتؤثِّر على تشكيل وجه العالم الجديد منذ انتهاء الحرب الباردة.



أنه قاتل لإحقاق حق الكويت ذلك البلد الصغير والضعيف. لكن السبب الحقيقي للحرب ربما يكون مختلفاً تماماً عن السبب الذي تصدح به الولايات المتحدة، وهكذا عند إخفاء الأسباب الحقيقية تحت عباءة هذه الغاية النبيلة يتجنبون مواجهة ضوء الحقيقة مباشرة. في الحقيقة قررت كل دولة شاركت في حرب الخليج الانضمام لـ "عاصفة الصحراء" بعد أن فكّرت ملياً بنيّاتها وأهدافها. وخلال مسار الحرب بأكملها، كانت كل القوى الغربية تقاتل لاستمرار تدفق النفط إليها، وأضاف الأمريكيون إلى هذه الغاية الأساسية طموح بناء نظام عالمي جديد تهيمن عليه الولايات المتحدة -وربما كان ثمة القليل جداً من الحماس التبشيري لدعم العدالة أيضاً- ولاجتثاث تهديد وشيك كان السعوديون مستعدين لانتهاك المحرّمات لدى المسلمين واللعب بالنار. ومن البداية وحتى النهاية تفاعل البريطانيون بحماس مع الرئيس بوش في كل خطوة، ليردوا جميل العم سام الذي تحمّل عنهم بعضاً من أعباء حرب جزر الفوكلاند[1] ، والفرنسيون ليمنعوا تبخُّر ما تبقى من نفوذهم التقليدي في الشرق الأوسط، وأرسلوا قواتهم إلى الخليج في اللحظة الأخيرة. وبطبيعة الحال لا شك بأن حرباً تجري وفقاً لهذه الأنواع من الظروف لا يمكن أن تكون منافسة على هدف واحد، محصِّلة المصالح الذاتية للدول الغفيرة العدد المشاركة في الحرب تخدم التحول من الحرب الحديثة مثل "عاصفة الصحراء" إلى سباق لتحقيق مزيد من المصالح الذاتية تحت راية المصلحة المشتركة، وبالتالي ما يُسمى "المصلحة المشتركة" بات العامل المشترك الأكبر الذي يمكن لجميع الأطراف المتحالفة والمشارِكة في الحرب تقبُّلَه. وبما أن دولاً مختلفة ستسعى بالتأكيد لأجندة مختلفة في الحرب، فمن الضروري أخذ المصلحة الذاتية لكل طرف من الحلفاء بعين الاعتبار إن كانت الحرب ستخاض بشكل مشترك. وحتى إن كنَّا نأخذ الموقف المحلي لبلد ما بعين الاعتبار، فكل مجموعات المصالح المحلية المتنوعة ستسعى هي الأخرى لتحقيق أجندتها الخاصة في الحرب. العلاقات المتداخلة المعقدة بين

1 تعتبر حرب فوكلاند حربًا غير معلنة اشتعلت في عام 1982 بين الأرجنتين والمملكة المتحدة على إقليمين اثنين واقعين في جنوب المحيط الأطلسي، تابعين لبريطانيا، وهما: جزر فوكلاند وأقاليم جورجيا الجنوبية، وساندويش الجنوبية الملحقة بها.

المصالح الذاتية تجعل من المستحيل تصنيف حرب الخليج على أنها حرب من أجل النفط، أو من أجل إرساء نظام عالمي جديد، أو لإخراج الغزاة. حفنة من الجنود فقط يمكنهم استيعاب مبدأ يعرفه كل رجالات الدولة: الفرق الأبرز بين الحروب المعاصرة والحروب في الماضي، هو أن الهدف المعلن والمخفي في الحروب المعاصِرة شيئان مختلفان.

أين نقاتل؟

"إلى الجبهات"، يتكرر في الأفلام مشهد ذاك الشاب يحمل حقيبة على ظهره ويودّع عائلته وبناته وأقاربه يذرفون الدموع، لا فرق إن كان هذا الشاب يسافر على ظهر حصان أو على متن قطار أو سفينة أو طائرة، ما يهمنا هو أن وجهة هذا الشاب لا تتغير أبداً: إنها ميدان المعركة في ساحات الوغى وأُوار الحرب.

خلال الفترة الطويلة قبل ظهور الأسلحة النارية، كانت ساحات المعارك صغيرة ومتقاربة الصفوف، وتتم المواجهة بين الجيوش من مسافات متقاربة على أرض مستوية وصغيرة، أو في معبر جبلي أو على حدود مدينة ما، أمّا بالنسبة لجنود اليوم فساحة المعركة التي أثارت حماسة القدماء هي هدف بشكل "نقطة" على خريطة عسكرية لا تستحق بالضرورة اهتماماً خاصاً. مثل ساحة المعركة هذه لا تستطيع أبداً استيعاب مشهد الحرب الذي ظهر في الآونة الأخيرة على نطاق واسع. لقد أدى ظهور الأسلحة النارية إلى اختفاء التشكيلات، وساحة المعركة من نوع "النقطة" تحول تدريجياً إلى خط من المعارك، وحروب الخنادق في الحرب العالمية الأولى بخطوط تمتد مئات الأميال أدت إلى انطلاق ميادين المعارك من نوع "النقطة" و"الخط" لتصل إلى ذروتها، وفي نفس الوقت، حوّلت حروب الخنادق ميدان المعركة إلى نوع "منطقة" يمتد عمقها إلى عشرات الأميال، وبالنسبة لهؤلاء الذين ذهبوا للحرب خلال هذه الأزمنة، كان ميدان المعركة الجديد يعني الخنادق والدشم والمدافع الرشاشة والحفر الكبيرة التي تُخلِّفُها القذائف، فأطلقوا تسميات على الحرب وفقاً لنوع ميدان المعركة، حيث تقع الخسائر الكبيرة في الأرواح: "المسلخ"



و"مفرمة اللحم". التطورات الكبيرة والسريعة في التقنية العسكرية تضبط بثبات مرحلة توسع مساحة ساحة المعركة أكثر، الانتقال من ميدان المعركة نوع "النقطة" إلى نوع الخط، والانتقال من ميدان المعركة ثنائي الأبعاد إلى الميدان ثلاثي الأبعاد لم يستغرق زمناً طويلاً كما يظن الناس، ويمكن للمرء قول هذا في كل حالة، فالمرحلة التالية تأتي افتراضياً في أعقاب المرحلة السابقة، عندما بدأت الدبابات تزمجر فوق الخنادق العسكرية كانت طائرات الدعم قد جُهِّزت من قبل بالمدافع الرشاشة وكان من الممكن إلقاء القنابل من مناطيد زبلن[1]، التطورات في الأسلحة بحد ذاتها لا يمكنها توجيه التغييرات في طبيعة ميدان المعركة، في تاريخ الحرب أي تطوير مهم اعتمد دوماً جزئياً على المبادرة النشطة للاستراتيجيات العسكرية، ميدان المعركة الذي ترسّخ لعدة آلاف من السنين، انتقل فجأة إلى الفضاء ثلاثي الأبعاد، ويعود هذا جزئياً إلى دبابات الجنرال فولر[2] في الحرب العالمية الأولى 1914-1918 وإلى جيليو دوهيت قائد القوة الجوية، إضافة إلى العمليات العميقة جداً التي وضعها ونفّذها المارشال ميخائيل توخاتشيفسكي. كما كان إيرك لودندورف ممن سعوا لإحداث تغيير جذري في طبيعة ميدان المعركة، فوضع نظرية "الحرب الشاملة" وحاول الجمع بين ميدان المعركة والعناصر التي لا تنتمي إلى ميدان المعركة في جسد واحد، ومع أنه لم ينجح في هذا إلا أنه كان مبشِّراً بفكر عسكري أحيا ذكره لأكثر من نصف قرن. لقد كان قَدَرُ لودندورف أن يُقاتِل في ميادين معارك مثل فيردان وبحيرات ماسيريان فقط، فمصير الجندي محكوم بالحقبة التي يعيش فيها، وفي ذلك الوقت لم يكن الفكر العسكري يستطيع التمدد خارج مدى قذيفة مدفعيةكرب[3]، وبطبيعة الحال، كان من المستحيل

1 منطاد زبلين (Zeppelin) هو منطاد ألماني كان يستخدم في الحرب العالمية الأولى بصفته أداة قصف واستطلاع، أطلق اسم «زيبلن» على المنطاد نسبة إلى اسم أحد مصمميه، الذي يدعى «فرديناند فون زيبلن»، حيث قام بتصنيع أول منطاد عملاق في بداية القرن العشرين. وباندلاع الحرب العالمية الأولى، تم ضم المنطاد إلى الخدمة في أسرع وقت، وكانت أول غارة له بالقنابل على مدينة لندن في ليلة 31 مايو عام 1915م. قام بهذه الغارة منطاد واحد ثم تبعه حوالي ستة عشر منطادا قاموا بباقي الغارات في تلك الليلة.

2 الجنرال جون فرديدريك تشارلز بوني فولر، 1878-1966 ضابط إنكليزي في الجيش البريطاني ومؤرخ عسكري ومنظِّر استراتيجي.

3 بندقية Krupp هي عائلة من قطع المدفعية التي استخدمتها العديد من جيوش العالم منذ القرن التاسع عشر فصاعدًا.

إطلاق قذائف تتجاوز الجبهة والمناطق الخلفية في مسارها المنحني (بشكل قطع مكافئ) وكان هتلر أكثر حظاً من لودندورف، فبعد عشرين عاماً حصل على أسلحة بعيدة المدى وباتت تحت تصرفه، واستفاد من القاذفات بمحركات مرسيدس وصواريخ V-1 و V-2[1] الموجّهة وضرب بها الجزر الإنكليزية التي لم تتعرض من قبل للغزو أبداً محطّماً بذلك هذا الرقم القياسي، هتلر لم يكن منظِّراً استراتيجياً ولا تكتيكياً، لكنه اعتمد على حدسه وجعل الخط الفاصل بين الجبهة الأمامية والخلفية أقل وضوحاً في الحرب، ولكنه لم يفهم حقاً الأهمية الثورية لضرب التمييز بين عناصر ساحة المعركة والعناصر غير الموجودة في ساحة المعركة عرض الحائط، وربما كان هذا المفهوم خارج حدود معرفة رجل مهووس بالحرب ونصفَ منظِّر عسكري.

لكن الثورة ستكون أمراً واقعاً بكل معنى الكلمة قريباً جداً، وهذه المرة أيضاً تسبق التكنولوجيا التفكير العسكري، ورغم أنه لم يتقدم أي مفكر عسكري بعد بمفهوم واسع جداً عن ساحة المعركة، فالتكنولوجيا تصنع ما بوسعها لتوسِّع ميدان المعركة المعاصر لدرجة تبدو معها لا نهائية: يوجد أقمار صناعية في الفضاء، وغواصات تحت سطح الماء، وصواريخ باليستية يمكنها بلوغ أي مكان على سطح الأرض، وتدابير الكترونية مضادة يمكنها العمل في مجال الطيف غير المرئي، وحتى آخر ملاذ للإنسانية؛ قلب الإنسان، الذي بات غريباً في جسده يجد الحرب النفسية متربصة بخلجاته وخواطره، وتنتشر الأشراك المموهة جيداً في كل مكان بحيث لا يجد الإنسان مأوى يلتجئ إليه. كل المفاهيم السائدة عن الطول والعرض والارتفاع للفراغ العملياتي باتت قديمة الطراز ومما عفا عليه الزمن، وفي أعقاب توسع قوى

---

1 أسلحة V- المعروفة بالألمانية الأصلية باسم Vergeltungswaffen : «الأسلحة الانتقامية»)، كانت مجموعة معينة من أسلحة المدفعية بعيدة المدى المصممة للقصف الاستراتيجي أثناء الحرب العالمية الثانية، وخاصة القصف الإستراتيجي و/ أو القصف الجوي للمدن. وهي تتألف من في-1، وهو صاروخ كروز يعمل بالطاقة النبضية؛ في-2، صاروخ باليستي يعمل بالوقود السائل (يشار إليه في الغالب باسم V1 وV2)؛ ومدفع في-3. تم تصميم كل هذه الأسلحة للاستخدام في حملة عسكرية ضد بريطانيا، على الرغم من أن في-1 وفي-2 فقط تم استخدامها في حملة أجريت في الفترة 1944-1945. بعد غزو الحلفاء لأوروبا، استخدمت هذه الأسلحة أيضًا ضد أهداف في البر الرئيسي لأوروبا، وخاصة فرنسا وبلجيكا. أسفر القصف الإستراتيجي باستخدام أسلحة V عن مقتل حوالي 18000 شخص، معظمهم من المدنيين. وكانت مدن لندن وأنتويرب ولييج الأهداف الرئيسية.

الخيال لدى الإنسان وقدرته على إجادة استخدام التكنولوجيا، يتمدد مجال المعركة إلى أقصى اتساعه.

وبالرغم من هذا الوضع: وفقاً للتفكير العسكري الذي ترسم التكنولوجيا خطوطه العامة، ما يزال ثمة عزوف عن الرغبة بالاستسلام، نظراً إلى أن التكنولوجيا كانت قد فتحت من قبل أبواباً واعدة في الفكر العسكري، فهي بالتأكيد غير كافية لتوسيع مساحة ميدان المعركة في نطاق متوسط الحجم (أي بين الحجم المرئي بالعين المجردة وذلك المجهري)، من الجلي أن التوسيع الميكانيكي لميدان المعركة الموجود لن يكون طريقة العمل للتغيير في ميدان المعركة المستقبلي، فالرأي القائل بأن "التوسيع المستقبلي لميدان المعركة سيتجلى في حروب تُخاض في أجزاء أعمق من المحيطات وعلى ارتفاعات أكبر في الفضاء الخارجي" مجرد رأي سطحي يصل إلى نتيجة سطحية تحدُّ نفسها بحدود الفيزياء العامة، ينبع التغيير الثوري الحقيقي من التوسع في "الفضاء غير الطبيعي"، بالتأكيد لا يمكن اعتبار فضاء الطيف الكهرومغناطيسي كميدان معركة وفقاً للتفكير التقليدي السابق، ففضاء الطيف الكهرومغناطيسي نوع مختلف من فضاء المعركة يأتي من الإبداع التكنولوجي ويعتمد على التكنولوجيا، وفي هذا "الفضاء من صنع الإنسان"، أو "الفضاء التقني"[1] تفقد كل مفاهيم الطول والعرض والارتفاع أو البر والبحر والجو والفضاء الخارجي أهميتها، بسبب خصائص الإشارات الكهرومغناطيسية التي يستطيع بها الإنسان اختراق الفضاء التقليدي والسيطرة عليه دون احتلال أي جزء من هذا الفضاء، يمكننا توقع أن كل بديل رئيسي أو امتداد لفضاء المعركة في المستقبل سيعتمد على ما إن كان نوع معيّن من الابتكارات التكنولوجية أو عدد من التقنيات المجمّعة يمكنها إيجاد فضاء جديد تماماً للتكنولوجيا، "فضاء الشبكة" يجتذب الآن اهتماماً واسعاً من قِبَل جنود اليوم، "فضاء الشبكة" هو فضاء تكنولوجي تشكَّل بالجمع المميز بين التقنية الالكترونية، والتقنية المعلوماتية والتطبيقات ذات التصاميم المعيّنة، إذا اعتبر المرء أن شن حرب في هذا الفضاء هي حرب يسيطر فيها

1 «فضاء التكنولوجيا» مفهوم جديد نطرحه للتمييز بين هذا النوع من الفضاء والفضاء بالمعنى الفيزيائي.



الناس على النتيجة، فالفضاء النانومتري الذي يظهر بقوة في أعقاب فضاء الشبكة إذاً يبشِّر بالخير من ناحية تحقيق حلم الإنسانية بحرب دون اشتراك مباشر من البشر. إذ يحاول بعض العسكريين الحالمين بشدة والمبدعين الآن إدخال هذا النوع من فضاءات المعارك التي تتكون من التقنيات الجديدة إلى حروب المستقبل، فوقت التغيير الجذري في ميدان المعركة -ساحة المعركة- ليس بعيداً، وبعد زمن ليس ببعيد قد تصبح حرب الشبكة أو الحرب النانومترية حقيقة واقعة وسطنا، ونوعاً من الحرب التي لم يتمكن أحد من تخيله حتى، على الأغلب ستكون كثيفة للغاية لكن دون إراقة دماء عملياً، ومع هذا فهي على الأغلب ستحدد من هو المنتصر ومن هو المهزوم في الحرب بأكملها، ستتزايد تلك المواقف التي يمضي فيها هذا النوع من الحرب جنباً لجنب مع الحرب التقليدية، وسيتداخل نوعا فضاء المعركة -الفضاء التقليدي والفضاء التقني- معاً ويتكاملان، وسيكون تكاملهما متبادلاً حيث يتطور كل منهما بطريقته الخاصة، وبالتالي ستتطور الحرب بشكل متزامن في الحيز المجهري والمرئي، إضافة إلى المجالات الأخرى المتنوعة حسب خصائصها الفيزيائية، التي ستعمل جميعها في نهاية المطاف على تكوين ساحة معركة مذهلة غير مسبوقة في تاريخ الصراع البشري، وفي نفس الوقت ومع تصاعد تفكك الحدود بين التقنية العسكرية والمدنية، وبين الجنود المحترفين وغير المحترفين، ستتداخل فضاءات المعارك أكثر فأكثر مع غيرها من الفضاءات، مما يساعد على تلاشي الخط الفاصل بين هذين الكيانين أكثر فأكثر، والحقول المنعزلة عن بعضها في السابق ستصبح متصلة، حيث يجعل البشر كل فضاء ساحة معركة لها أهميتها الخاصة، كل ما يتطلبه الأمر هو القدرة على شن هجوم على مكان محدد باستخدام وسائل محددة، لتحقيق هدف معيّن، وهكذا فساحة المعركة موجودة في كل مكان، فقط فكِّر: إن كان بدء حرب في غرفة حاسوب أو بورصة سيجر بلاد العدو إلى حتفها، فهل يبقى بعد هذا مكان لا يصلح ليكون ميدان معركة؟

إن كان ذات الشاب الذي ينطلق استجابة لأوامر قادته ليسأل: "أين ميدان المعركة؟" فالجواب سيكون: "في كل مكان".

من نقاتل؟

سنة 1985 طَبَّقَت الصين "تخفيضاً مليونياً" على قواتها المسلحة، وبعد هذه البداية نفّذت الدول العالمية الكبرى تقليصات لقواتها على مراحل على مدى السنوات العشر التالية، وحسب العديد من المنظّرين في الشؤون العسكرية فالعامل الرئيسي وراء التخفيضات العالمية في القوات هو أنه بانتهاء الحرب الباردة فالدول التي كانت متشاحنة سينصبُّ اهتمامها الآن على الاستفادة من فرصة السلام والاستمتاع بها، ولم تدرك سوى قلة من المتابعين بأن هذا العامل لم يكن سوى قمة جبل الجليد، فالعوامل التي تؤدي لخفض عديد القوات المسلحة لا تقتصر أبداً على هذه النقطة، والسبب الأعمق لتقليص القوات هو أنه مع تنامي موجة حرب تكنولوجيا المعلومات فتأسيس جيش محترف كبير جداً سيتطلب جهداً كبيراً للغاية، من تجميع وحشد للجيوش على الخطوط وبناء قاعدة صناعية حسب ما تتطلبه الحرب الآلية، لهذا السبب بالتحديد، ومن خلال هذه التخفيضات في عديد القوات وضعت بعض الدول بعيدة النظر هدف رفع مستوى العسكريين، وزيادة كمية التكنولوجيا العالية والمتوسطة المستوى في التسليح، وتحديث الفكر العسكري ونظرية الحرب[1]، لقد مضت حقبة "الجنود الشجعان الذين يدافعون ببطولة عن بلدانهم"، في عالم قد تصبح فيه حتى الأسلحة النووية مجرد مصطلحات عسكرية عفا عليها الزمن، على الأرجح أن يصبح الباحثون ذوو الوجوه الشاحبة ممن يَرتَدُون نظّارات طبية ثخينة مؤهلين ليكونوا جنود الغد أكثر من أولئك الشباب قليلي الثقافة ذوي العضلات المفتولة، وربما يكون أفضل دليل على هذا، القصة التي انتشرت في الأوساط العسكرية الغربية عن ملازم استخدم مودم لجعل فرقة

---

1 حسب تقرير الدفاع الوطني في وزارة الدفاع الأمريكية حول سنة 1998 المالية، فقد تم تخفيض عدد أفراد الجيش الأمريكي بنسبة 32% منذ سنة 1989، كما أخرجت الولايات المتحدة كمية كبيرة من المعدات البالية من الخدمة، مما يزيد في القوة القتالية الفعلية بعض الشيء حتى عند خفض عدد أفراد الجيش الأمريكي. أصدرت وزارة الدفاع الأمريكية تقريرها الدفاعي الربع سنوي في شهر أيار سنة 1997، وأكّد التقرير على «أخذ المستقبل بعين الاعتبار وإصلاح الجيش الأمريكي»، وأقرت وزارة الدفاع تخفيضاً مستمراً في عدد الأفراد ليتوافق مع النظريات العسكرية الجديدة، كما أقرت ميزانيات أكبر نسبياً لشراء المعدات.

عسكرية تجثو على ركبتيها[1]. التباين بين جنود اليوم وجنود الأجيال الخالية واضح وضوح التباين الذي لاحظناه بين الأسلحة الحديثة وتلك القديمة، هذا لأن جنود اليوم خاضوا تجربة الانفجار التكنولوجي دون انقطاع خلال 100 سنة كاملة في القرن العشرين، وبما يعود السبب أيضاً إلى هيمنة الثقافة الشعبية العالمية، مثل: موسيقى الروك آند رول، مراقص الديسكو، كأس العالم لكرة القدم والاتحاد العالمي لكرة السلة وهوليود... إلخ. التباين واضح إن كنا نتحدث عن القدرات المادية أو الفكرية، حتى وإن كان الجيل الجديد من الجنود قد ولدوا في السبعينات والثمانينات قد تدربوا باستخدام أسلوب "ثكنات الوحوش" التي عممتها أكاديمية ويست بوينت العسكرية، فمن الصعب عليهم التخلي عن طبيعتهم الرقيقة والهشة المترسِّخَة في المجتمعات المعاصرة، وكذلك فقد جعلت أنظمة الأسلحة الحديثة إبقاء الجنود بعيداً عن أي ميدان معركة تقليدية ممكناً، ويمكنهم مهاجمة العدو حتى ولو كان خارج نطاق الرؤية فهم ليسوا بحاجة للمواجهة ورؤية الدماء المنهمرة عند استحرار القتل، كل هذا جعل كل جندي يمحو شخصيته الذاتية ويتحول إلى رجل نبيل يسعى جاهداً لتجنب رؤية الدماء، المقاتل الرقمي يتولى الدور الذي لعبه من قبل مقاتل "الدم والفولاذ"، وهو الدور الذي لم ينازعه فيه أحد منذ آلاف السنين.

الآن وقد أُلغيت التقسيمات التقليدية السائدة للعمل في مجتمع يتميز بمستوى عالٍ من الصناعة، لم تعد الحرب حكراً على الامبراطوريات لا يمكن سوى للجنود المحترفين خوض غمارها، والنزوع إلى التمدُّن بدأ يصبح جلياً[2]. وبالتأكيد لم تكن نظرية ماوتسي

1 ظهرت القصة في صحيفة الصنداي تليغراف البريطانية، وحسب هذا التقرير فقد أجرت الولايات المتحدة تدريب «المقاتل المشترك» ما بين 18 وحتى 25 من أيلول سنة 1995، بغية اختبار أمن أنظمتها الإلكترونية الدفاعية، وأثناء التدريب، اخترق ضابط قوة جوية بنجاح نظام القيادة البحرية. ويوجد العديد من القصص المشابهة، لكن يوجد أيضاً بعض الخبراء العسكريون ممن يعتقدون أن هذه حالات من «ذر الرماد في العيون».

2 في كتابهما: الحرب والحرب المضادة، كتب آلفين وهيدي توفلر: «إذا لم تعد أدوات الحرب هي الدبابة والمدفعية، وإنما فيروسات الحاسب والميكروروبوت، لا يمكننا عندها أن نقول أن الدول هي الجهات الوحيدة المسلحة أو أن الجنود هم الوحيدون الذين يمتلكون أدوات الحرب»، وفي مقاله بعنوان «ما الذي تجلبه الثورة في الشؤون العسكرية- شكل الحرب سنة 2020»، لاحظ العقيد في قوات الدفاع اليابانية شويشي تاكاما أن التحضُّر في الحرب ستكون من الميزات الهامة لحروب القرن الحادي والعشرين.

تونغ التي تجعل من "كل مواطن جندياً" هي الدافع وراء هذا الاتجاه، الاتجاه الحالي لا يتطلب تعبئة واسعة للناس، بل على العكس تماماً إنه يشير فقط إلى أن نخبة التكنولوجيين من المواطنين اقتحموا الباب ودخلوا دون أن يدعوهم أحد للدخول، مما يجعل من المستحيل على الجنود المحترفين بمفاهيمهم عن الحرب الاحترافية تجاهل التحديات التي تكون مُحرِجَةً لهم بعض الشيء، من سيكون يا ترى البطل الرئيسي على تلك الأرض المجهولة في الحرب القادمة"؟ المنافس الأول والأشهر ظهر بالفعل، إنه "هكر" الحاسوب؛ هذا الشاب الذي لم يتلق في الغالب أي تدريب عسكري ولم يشترك في أي مهام عسكرية، يمكنه بسهولة إضعاف درجة الأمن لدى جيش أو دولة بدرجة كبيرة بالاعتماد على خبرته التقنية الشخصية فقط، والمثال التقليدي موجود في تعليمات الكرّاس الأمريكي للعمليات المعلوماتية FM100-6، في سنة 1994، حيث هاجم هكر في إنكلترا مركز روما لتطوير الطيران الحربي الأمريكي في ولاية نيويورك، مخترقاً بذلك أمن 30 نظاماً، كما هكّر أكثر من مئة نظام آخر، معهد أبحاث الطاقة النووية الكوري KAERI ووكالة ناسا كانتا من بين الجهات التي تضررت من جرّاء هذا الهجوم. ولم يكن حجم المؤسسات المتأثرة بهذا الهجوم ومقدار الضرر الذي لحق بها فقط ما أثار ذهول الناس بل كون الهكر لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، وبطبيعة الحال لا يمكن اعتبار عمل تخريبي قام به فتى بدافع اللعب عملاً حربياً، بل تكمن المشكلة في أنه كيف يمكن للمرء أن يعرف على وجه التحديد أي الأضرار جاءت نتيجة للعب وأي الأضرار جاءت نتيجة للحرب؟ وأي الأعمال أفعال فردية يقوم بها مواطنون وأيُّها تمثِّل أعمالاً عدائية يقوم بها مقاتلون غير محترفون أو ربما حربَ قرصنة الكترونية تشنها منظَّمة أو دولة. سنة 1994 حدث 230000 اختراق متعلِّق بالأمن لشبكات وزارة الدفاع الأمريكية، كم من هذه الاختراقات صُنِّف على أنه من الأعمال التخريبية قام به مقاتلون غير محترفون؟ ربما لن يكون هنالك أي طريقة لمعرفة هذا[1].

كما أن المجتمع يضم الناس من كل المشارب، يأتي الهكر من كل الأشكال والألوان،

1 العديد من الهكر يتبعون أسلوباً جديداً يمكن وصفه بأنه «حرب عصابات على الشبكة».

كل ألوان الهكر من خلفيات وقيم متنوعة، يختبئون في شِباك الإخفاء الذي تقدِّمه الشبكة، فتجد: طلاب المدارس المتوسطة الفضوليين، والباحثين عن الثروات من خلال الانترنت، موظفي شركات يضمرون الأحقاد، جماعات إرهابية متشددة، ومرتزقة الشبكات، هذه الأصناف من الناس تمثِّل بأفكارها وأفعالها أقطاباً متباعدة عن بعضها، لكنهم يجتمعون معاً على نفس الشبكة العالمية، فهم يمضون قدماً في أعمالهم وفقاً لقيمهم والطريقة التي يحكمون بها على الأشياء وأفكارهم التي يتمثّلونها، بينما يكون بعضهم الآخر تائهاً ولا غاية له. ولهذه الأسباب، سواء كانوا يحسنون أو يسيئون صنعاً؛ فهم لا يشعرون بوطأة القوانين التي تحكم المجتمع بأكمله، وباستخدام الحواسيب يمكنهم بطريقة أو بأخرى الحصول على المعلومات عن حسابات الآخرين، يمكنهم حذف قاعدة بيانات قيِّمَة لشخص ما، يصلون إليها بعد جهد جهيد كنوع من المزاح، أو قد يستخدمون قدراتهم التقنية الفريدة من نوعها على الانترنت لمحاربة قوى الشر مثل الفارس الوحيد الأسطوري. على سبيل المثال: فرضت حكومة سوهارتو حظراً صارماً على الأخبار حول الأعمال العدائية ضد الأقلية الصينية التي تعيش في إندونيسيا، ووجدت الأعمال العدوانية طريقها إلى العلن عبر الانترنت من قِبَل شهود أرادوا العدالة، ونتيجة لهذا تلقّى العالم بأكمله صدمة عنيفة وسرعان ما تراجعت الحكومة والقوات الاندونيسية أمام وازع الأخلاق والعدالة. وقبل هذا تصرّفت مجموعة أخرى من الهكر تسمي نفسها "ميلوورم" فأبلت بلاءً حسناً على الانترنت، واحتجاجاً على تجارب الهند النووية اخترقت هذه المجموعة جدار الحماية الخاص بمركز الأبحاث الذرية الهندي (بها بها) وبدّلت الصفحة الرئيسية، وحمّلوا (5) ميغا بايت من البيانات، يمكن اعتبار هذا النوع من الهكر مؤدَّبين، إذا إنهم وصلوا إلى نقطة محددة ولم يتجاوزوها، ولم يتسببوا لخصومهم بالكثير من المشكلات، وبعيداً عن النتائج المباشرة لهذا النوع من الأعمال، فهي تحمل قدراً مهماً من الدلالة الرمزية: ففي عصر المعلومات، التأثير الذي تسببه القنبلة النووية أقل بكثير من التأثير الذي يسببه الهكر.

أما الطرف الأكثر ميولاً إجرامية من الهكر -والأكثر تهديداً للعالم بأسره- هم

المنظّمات غير الحكومية، التي تهتز لذكرها فرائص العالم الغربي، هذه التنظيمات التي تتصف جميعها بالميول العسكرية بدرجات متفاوتة، تُوَجِهُهَا بشكل عام العقائد أو القضايا المتطرفة، مثل التنظيمات الإسلامية التي تسعى لشن حرب مقدّسة، أو العرق الأبيض في الولايات المتحدة، أو طائفة أوم شينريكيو اليابانية الدينية، ومؤخراً الجماعات الجهادية مثل جماعة أسامة بن لادن، التي نفَّذت تفجيرات في سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا. ولا شك في أن الأعمال التخريبية الوحشية المتعددة والمتفرّقة وغير العقلانية التي تقوم بها هذه الجماعات هي على الأغلب البيئة الخصبة الجديدة التي تنمو فيها الحروب المعاصرة وليس مثل تصرف الهكر الفردي. كما أنه عندما تواجه دولة أو قوات مسلحة (تخضع لقوانين محددة وستستخدم قوة محدودة للوصول إلى أهداف محدودة) هذه الضروب من التنظيمات (التي لا تكترث بأية قوانين ولا تخشى خوض حرب غير محدودة باستخدام وسائل غير محدودة) ستكون صعبة المراس للغاية بالنسبة للقوات المسلحة التابعة لدولة كي تتغلب عليها.

خلال التسعينات وبالتزامن مع انطلاق سلسلة من الأعمال العسكرية من قِبَل مقاتلين غير محترفين ومنظمات غير حكومية، بدأنا نكوّن فكرة محدودة عن نوع الحرب غير العسكرية يخوضها نوع آخر من المقاتلين غير المحترفين، هذا الشخص ليس هكر بالمعنى العام للكلمة، وليس أيضاً فرداً من المنظمات شبه العسكرية، ربما يكون أو تكون محلل بيانات أو مهندس أنظمة برمجية، أو مديراً مالياً لكمية طائلة من رؤوس الأموال المتنقلة أو مضارباً في البورصة، أو قد يكون أحد أقطاب الإعلام أو كاتباً شهيراً في الصحف أو مقدِّم برنامج تلفزيوني، وتكون فلسفتهم في الحياة مغايرة لفلسفة الإرهابيين الذين يمارسون الإرهاب الأعمى واللاإنساني، وفي كثير من الأحيان لديه فلسفة راسخة في الحياة ولا يقلُّ إيمانه بأي حال من الأحوال عن إيمان أسامة بن لادن من حيث التعصُّب، حتى أنه/أنها لا يفتقر إلى الدافعية أو الشجاعة لخوض القتال عند الضرورة، إذاً وفقاً لهذه المعايير من يستطيع القول بأن جورج سورس ليس مديراً مالياً إرهابياً؟

وبنفس الطريقة التي تُغيّرُ فيها التكنولوجيا الأسلحة وميدان المعركة، فهي تطمس في ذات الوقت مفهوم: من يشارك في القتال، ومن الآن وصاعداً، الحرب لست حكراً على الجنود.

النشاط الإرهابي العالمي هو أحد المنتجات الثانوية للاتجاه نحو العولمة التي بدأه التكامل التكنولوجي، أما المقاتلون غير المحترفون والتنظيمات غير الحكومية تمثِّل تهديداً أكبر فأكبر على سيادة الدول مما يجعل هؤلاء المقاتلين والتنظيمات أعداءً أخطر فأخطر على كل جيش نظامي، وبالمقارنة بهؤلاء الأعداء يمكننا وصف الجيوش المحترفة على أنها دينصورات ضخمة تفتقر إلى قوة تتناسب مع حجمها في العصر الحديث، أما أعداؤها فهم قوارض تتمتع بقدرة هائلة على البقاء على قيد الحياة، ويمكنها استخدام أسنانها الحادة لتعذيب أفضل جزء من العالم.

ما هي الوسائل والطرق المستخدمة للقتال؟

لا يواري الأمريكيون آراءهم عندما يتحدثون عن الوسائل والطرق التي سيستخدمونها لخوض حروب المستقبل، هذا ببساطة لأن الولايات المتحدة هي آخر زعيمة من زعماء العالم، كما أن آراء الأمريكيين حول هذا الموضوع مُتَقَدِّمَة مقارنةً بالآراء السائدة في أوساط العسكريين في الدول الأخرى، فقد لخّص الأمريكيون أشكال القتال الرئيسية الأربعة التي ستحدث في المستقبل في: 1- حرب المعلومات 2- الحرب الدقيقة[1] 3- العمليات المشتركة[2] 4- العمليات العسكرية غير الحربية[3]. وهذه الجملة الأخيرة كبيرة للغاية، فمن هذه الجملة وحدها يمكننا لمس الإبداع الكبير والنهج العملي لدى الأمريكيين، كما يمكننا اكتساب فهم سليم لحرب المستقبل

1 الحرب الدقيقة هي الشكل الجديد للقتال، وتأتي نتيجة للجمع بين الدقة المتزايدة للأسلحة والشفافية المتزايدة لميدان المعركة (انظر «من معركة غيتسبيرغ إلى حرب الخليج وما بعدها» للعقيد ريتشارد دون).

2 «الرؤية المشتركة 2010، وثيقة أعدها رئيس هيئة الأركان الأمريكية، انظر مجلة القوة الجوية الربعية، صيف عام 1996.

3 انظر مجلة الجيش الأمريكي عام 1993 عن أساسيات العمليات.

كما يراها الأمريكيون، بغضِّ النظر عن العمليات المشتركة التي تطورت من عمليات مشتركة تقليدية وعمليات منسَّقة، وحتى عمليات جوية وبرية والأشكال الثلاثة الأخرى من القتال يمكن اعتبارها جميعاً نتيجة التفكير العسكري الجديد. الجنرال جوردون سوليفيان رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي السابق أكّد أن حرب المعلومات ستكون الشكل الأساسي للقتال في حروب المستقبل، ولهذا السبب أسس أفضل قوة الكترونية في الجيش الأمريكي، وفي العالم بأسره. حتى أنه طرح مفهوم الحرب الدقيقة، بناءً على معرفته بأنه "سيكون ثمة تدحرج شامل نحو العمليات المعلوماتية وهجمات خفية طويلة الأمد كأسس رئيسية لحرب المستقبل" بالنسبة للأمريكيين فبلوغ تسليح عالي التقنية مثل الأسلحة دقيقة التوجيه، بنظام تحديد المواقع (GPS)، وأنظمة سي41 وطائرات الشبح، ربما تسمح للجنود بالنجاة من كابوس حرب الاستنزاف الرهيبة.

الحرب الدقيقة، التي سمّاها الأمريكيون "الهجوم من عدم التماس" وسمّاها الروس "الاشتباك عن بعد"[1]، تتصف بالخفاء والسرعة والدقة وبدرجة عالية من الفعالية، واحتمالية سقوط القليل فقط من الخسائر الجانبية، في حرب المستقبل ربما لن يستغرق تحديد نتيجة الحرب وقتاً طويلاً بعد اندلاعها، هذا النوع من التكتيك الذي ظهرت بعض جوانب فاعليته في حرب الخليج، ربما يكون الخيار الذي سيتلقّفه معظم الجنرالات الأمريكيين بسعادة. ومع هذا فالمرحلة التي تتسم بالفعل بالإبداع؛ ليست "حرب المعلومات" أو "الحرب الدقيقة" بل إنها مرحلة "العمليات العسكرية غير الحربية"، هذا المفهوم على وجه الخصوص يعتمد بوضوح على "المصالح العالمية" التي يلمّح لها الأمريكيون دوماً، والمفهوم يشير ضمناً إلى اندفاع الولايات المتحدة إلى تجاوز صلاحياتها، في تطبيق أمريكي لمقولة "أنا مسؤول عن كل كائن تحت الشمس[2]"، رغم أن هذا لا يمكن أن يخفف من إعجابنا بهذا المفهوم، لأنه بعد كل شيء، يتيح للمرة الأولى معايير متنوعة مطلوبة للتعامل الشامل مع

1 بعد بحثه عن حرب الخليج، شرح الخبير الروسي في التكتيكات إيفان فوروبيف أن القتال البعيد طريقة حربية ذات مستقبل واعد.

2 وَرَدَت في الإنجيل.

مشكلات القرن العشرين والحادي والعشرين لوضعها ضمن صندوق العمليات العسكرية غير الحربية [1] بحيث لا يغرق الجنود في الظلام والحيرة في العالم الذي يمتد خارج نطاق ساحة المعركة، وهكذا ستُضخُّ معلومات أكثر في أوساط الجنود الأدنى رتبة حول المفهوم الأوسع للحرب، وتشمل التدابير اللازمة: حفظ السلام، والجهود لقمع تعاطي المخدرات، وقمع أعمال الشغب، والمعونات العسكرية والحد من التسلح، وأعمال الإغاثة بعد الكوارث، وإجلاء رعايا الدولة المقيمين في الخارج، والتصدي للأنشطة الإرهابية. وفي نهاية المطاف لن يتمكّنوا من وضع المفهوم الجديد تماماً "للعمليات الحربية غير العسكرية" في إطار محددٍ واضح، وعندما يحدث هذا، فإنه سيمثِّل فهماً تكمن أهميته في أنه ثوري بحق في مجال تصوُّر الإنسان للحرب.

الفرق بين مفاهيم "العمليات الحربية غير العسكرية" و"العمليات العسكرية غير الحربية" أكبر من أن نعرفه من خلال قراءة سطحية وهو بالتأكيد ليس مجرد تغيير لترتيب بعض الكلمات وكأنها لعبة كلمات، فالمفهوم الثاني "للعمليات العسكرية غير الحربية" يمكن أن يُعتَبَر ببساطة على أنه عنوان واضح للمهام والعمليات التي تنفِّذها القوات المسلحة عند غياب حالة الحرب، والمفهوم الأول؛ "العمليات الحربية غير العسكرية" يوسّع أفهامنا عمّا يشكِّل بالضبط حالة الحرب في كل ناحية من نواحي حياة الانسان، أوسع بكثير مما يمكن أن يعنيه مصطلح "العمليات الحربية"، وهذا النوع من التوسيع هو النتيجة الطبيعية لحقيقة أن الكائنات البشرية ستستخدم كل الوسائل الممكنة لتحقيق غاياتها، ويبدو الأمريكيون في الصدارة في كل نظرية عسكرية، إلا أنهم لم يتمكنوا من أخذ زمام المبادرة فيما يتعلق باقتراح هذا المفهوم الجديد للحرب، لكن عيننا لا يمكن أن تخطئ تدفق البراغماتية أمريكية الطراز عبر العالم والإمكانيات غير المحدودة التي تقدِّمها التكنولوجيا العالية الجديدة، التي كانت بلا شك القوة الدافعة وراء ظهور هذا المفهوم.

وهكذا فالوسيلة (من بين الأنواع العديدة للوسائل التقليدية) التي تبدو بعيدة كل البعد عن الحرب ستصبح في نهاية المطاف الوسيلة الأثيرة في هذا النوع الجديد

1 MOOTW: Military Operations Other Than War



من الحرب (العمليات الحربية غير العسكرية)، ما هي الحرب التي شُنَّت أكثر من غيرها حول العالم؟ إنها الحرب التجارية: إن كان على المرء ملاحظة أنه منذ عشر سنوات كانت عبارة "الحرب التجارية" مجرّد عبارة وصفية، واليوم باتت أداة بأيدي العديد من البلدان لشن حرب غير عسكرية، يمكن للأمريكيين على وجه الخصوص استخدامها بمهارة عالية جداً، فقد أتقنوها حتى باتت فناً أثيراً لديهم، وبعض الوسائل المستخدمة تشمل: استخدام القانون التجاري المحلي على نطاق دولي، ووضع التعرفة الجمركية أو إلغاؤها اعتباطياً، وفرض العقوبات التجارية دون إمهال، وفرض حظر على صادرات التكنولوجيا الحساسة، واستخدام الفصل الخاص بالقانون 301[1] وتطبيق معاملة الدولة المفضّلة[2] (MFN) والحصار الشامل المستمر منذ ثمان سنوات على العراق والذي بدأته الولايات المتحدة هو المثال الأوضح على هذا النهج.

الحرب المالية: الآن بعد ما تعرضت له الدول الآسيوية من أزمة مالية في دول جنوب شرق آسيا، لم يتأثر أحد بـ "الحرب المالية كما تأثَّرَت هذه الدول، بل إن هذه الأزمة تركت في اقتصادهم جروحاً غائرة جداً، هجوم الحرب المالية المفاجئ خُطِطَ عمداً وابتدأه مالكُ رأسمال متنقل عالمياً، حيث عَمِلَ على وضع كل دولة بمواجهة دولة ثانية، تلك الدول التي كانت محط انبهار العالم فسمّاها "النمور الصغيرة" و"التنانين الصغيرة"، التفوق الاقتصادي الذي أثار إعجاب العالم الغربي تحوّل إلى خيبة أمل، مثل أوراق الشجر التي يحيل الخريف اخضرارها إلى اللون البني بين ليلة وضحاها وتذروها رياحه الكئيبة، وبعد جولة واحدة من مقاومة الأزمة تردّت اقتصادات عدد من الدول لتسقط في كبوة استمرّت لعشر سنوات، كما أن مثل هذه الهزيمة على الجبهة الاقتصادية يُتَوقَّع أن تجر وراءها شبه انهيار في النظام

1 نُشِر القانون 301 الخاص وفقاً للمادة 301 من قانون التجارة لعام 1974 ويتضمن قائمة بـ«الدول الأجنبية ذات الأولوية» والتي يحكم القانون بأنها لا تملك قوانين مناسبة للملكية الفكرية، وقد تخضع هذه الدول للعقوبات.

2 الدول المفضّلة هو الوضع الذي منحته دولة واحدة إلى أخرى في التجارة الدولية. وهو ما يعني أن الدولة المستقبلة ستمنح جميع المزايا التجارية - مثل التعريفات الجمركية المنخفضة - إلى أية دولة أخرى لها هذا الوضع أيضا. وبمعنى أخر، لا يمكن معاملة دولة بهذا الوضع أكثر سوءاً من أي دولة أخرى بهذا الوضع.

الاجتماعي والسياسي، فالخسائر الناتجة عن الفوضى المستمرة لا يقلُّ عن تلك الناتجة عن حرب إقليمية، والضرر الذي يلحق بالحياة الاجتماعية قد يزيد على الضرر الذي قد تُسبِبُهُ حرب إقليمية، والمنظّمات غير الحكومية في حربهم الأولى هذه التي لم يستخدموا فيها القوة العسكرية، استخدموا فيها وسائل لاختراق سيادة الدول، وبالتالي فالحرب المالية هي شكل من أشكال الحرب غير العسكرية لا تقل فظاعةً عن الحرب الدموية سوى أنها لا تسفك الدماء. لقد اتخذت الحرب المالية اليوم مكانها رسمياً وسط مسرح الحرب ذلك المسرح الذي لم يصعد إليه خلال آلاف السنين سوى الجنود والسلاح ولم يؤدوا سوى مسرحيات الموت والدماء في كل مكان. نحن مقتنعون أنه وحتى وقت طويل لاحقاً ستكون "الحرب المالية" بلا شك باباً راسخاً في كل أنواع القواميس عن المصطلحات العسكرية الرسمية، بالإضافة إلى ذلك فعندما يراجع الناس كتب التاريخ عن حرب القرن العشرين في بداية القرن الحادي والعشرين فإن الجزء المتعلق بالحرب المالية سيجذب جل انتباه القارئ[1]، وبطل الرواية الرئيسي في هذا الجزء من كتاب التاريخ لن يكون رجل الدولة أو المنظِّر الاستراتيجي العسكري، بل سيكون جورج سورس، بالتأكيد سورس لا يملك حق الاحتكار الحصري باستخدام السلاح المالي لخوض الحروب، فقبل سورس استخدم هيلمت كول سوق دويتشه لاختراق جدار برلين، ذلك الجدار الذي لم يتمكن أحد من هدمه باستخدام قذائف المدفعية[2]، وبعد أن بدأ سورس أنشطته استخدم لي دينغوي الأزمة المالية في جنوب شرق آسيا لتعويم الدولار التايواني الجديد، بغية شن هجوم على دولار هونغ كونغ وأسواقها المالية، وخصوصاً "الأسهم الحمراء"(أسهم شركات الصين القارية المدرجة في بورصة هونغ كونغ. تم تأسيس هذه الشركات خارج أراضي الصين)، (ملاحظة المترجم[3] : تشير "الأسهم الحمراء"

---

1 كان هنالك مقال بعنوان «الأسواق المالية أكبر تهديد للسلام» في 23 آب 1998 صدر في صحيفة لوس أنجيلس تايمز، وتطرق المقال إلى أنه: «في الوقت الراهن تشكِّل الأسواق التهديد الأكبر للسلم العالمي، وليس معسكرات تدريب الإرهابيين».

2 هيلمت كول: مستشار ألمانيا بين عامي 1980 وعام 1998, يعتبر مهندس توحيد المانيا الغربية والشرقية. هو مؤسس معاهدة ماستريخت التي نتج عنها الاتحاد الأوروبي وعملة اليورو.

3 من الصينية للإنكليزية.

إلى أسهم الشركات المُدرَجَة في سوق هونغ كونغ المالية وتسيطر عليها المصالح الصينية)، ولم نذكر بعد المضاربين الذين احتشدوا كباراً وصغاراً وانطلقوا زُرَافَاتٍ ووحدانا ليلتهموا بشراهة ما أُتيح لهم من أموال، بمن فيهم مورغان ستانلي ومودي، اللتان اشتهرتا بتقارير التصنيف الائتماني التي تصدرانهما، مما أفصح عن أهداف واعدة لهجوم لصالح السمكة الكبيرة في دنيا المال[1]، هاتان الشركتان نموذجان عن هذه الكيانات التي تشارك مباشرة في الوليمة الكبيرة وتجني الثمار.

في صيف سنة 1998، وبعد أن مضى على المناجزة في الحرب المالية سنة كاملة، بدأت الجولة الثانية من المعارك بالظهور على نطاق ميدان معركة أوسع، وهذه الجولة من المعارك تتواصل حتى يومنا هذا. هذه المرة لم تنزلق دول جنوب شرق آسيا وحدها (التي كانت قد تعرَّضت لهزيمة ساحقة في الحرب السابقة) في الحرب، بل انزلق عملاقان إليها هما: اليابان وروسيا، مما جعل موقف الاقتصاد العالمي أكثر كآبة وانفلاتاً، فقد امتدت ألسنة النيران العمياء لتحرق أولئك الذين أشعلوها أول مرة قبل غيرهم، وتشير التقارير إلى أن سورس وصندوقه المالي؛ كوانتم، خسروا ما لا يقل عن عدة مليارات من الدولارات في روسيا وهونج كونج فقط[2]، وهكذا يمكننا على الأقل أن نكوِّن فكرة عن حجم القوة التدميرية للحرب المالية، اليوم عندما باتت الأسلحة النووية مجرّد زينة مخيفة لعباءة وتخسر قيمتها العملياتية الحقيقية يوماً بعد يوم، باتت الحرب المالية سلاحاً "استراتيجياً للغاية" يجتذب اهتمام العالم بأسره، هذا لأن الحرب المالية سهلة المناورة وتسمح بتنفيذ الأعمال الخفية، وغالباً ما تكون عالية التدمير، وعند تحليل الاضطرابات في ألبانيا والتي لم يمضِ عليها وقت طويل، يمكننا أن نرى بوضوح الدور الذي لعبته ضروب متنوعة من المؤسسات التي أنشأتها مجموعات متعددة الجنسيات أو بعض أصحاب الملايين

1 كشف مقال بعنوان «مؤسسة نيويورك التي تؤثر على الاقتصادات» في عدد 29 حزيران سنة 1998 في مجلة ساينس مونيتور، كيف تؤثر تقارير التصنيف الائتماني لمؤسسة موديز بل وتتلاعب بالاتجاهات الاقتصادية لكل من إيطاليا وكوريا الجنوبية واليابان وماليزيا، انظر الأرشيف الإخباري، 20 آب عام 1998.

2 يفرّغ سوروس كامل مراراته في كتابه أزمة الرأسمالية العالمية، وبناءً على رواية مروِّعة لاستثماراته سنة 1998 ، يحلل سوروس الدروس المستفادة من الأزمة الاقتصادية.

ممن تزيد ثرواتهم على ثروات دول، هذه المؤسسات تتحكم بالإعلام، وتسيطر على الدعم الحكومي للمنظمات السياسية، وتحدُّ من أي مقاومة من السلطات، مما يُودِي بأنظمة وطنية ويُسقِط حكومات شرعية، ربما يمكننا تسمية هذا النوع من الحروب "النمط المؤسسي" للحروب المالية، إن تزايد وتيرة هذا النوع من الحروب وتكاثفها، وحقيقة أن مزيداً من البلدان والمنظّمات غير الحكومية تستخدمها عمداً، يثير مخاوف لا يجدي معها الهروب بل يجب مواجهتها.

حرب الإرهاب الجديدة المختلفة عن الحرب التقليدية الفظيعة: بسبب محدودية نطاق حرب الإرهاب التقليدية، ربما تكون خسائرها أقل بشكل ملموس من الخسائر الناتجة عن الحرب أو الحملات التقليدية، ومع هذا تحمل الحرب الإرهابية التقليدية نكهة أقوى من العنف، بل إنه وفقاً لعملياتها فالحرب الإرهابية التقليدية لا تتقيد بأيٍ من قوانين المجتمع التقليدية على الإطلاق، ومن وجهة نظر عسكرية فحرب الإرهاب التقليدية تتميز باستخدام موارد محدودة لخوض حرب غير محدودة، وتضع هذه السمة القوى الوطنية بلا شك في موقف لا تحسد عليه أبداً حتى قبل اندلاع الحرب، فالقوات الوطنية يجب أن تُعِدَّ نفسها دوماً وفقاً لقوانين محددة ولذا فلا يمكنهم سوى استخدام موارد غير محدودة لخوض حرب محدودة، ويبيّن هذا كيف تكوّنت المنظّمات الإرهابية من قلة من الأفراد الأغرار معدومي الخبرة استطاعوا تصديع رأس دولة عظمى مثل الولايات المتحدة، وكيف أن استخدام "مطرقة لقتل نملة" يُثبِتُ مرة بعد مرة أنه غير مجدٍ. وأنصع مثال عن هذا هما التفجيران اللذان ضربا في نفس الوقت سفارتا الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام، لقد عمّق ظهور الإرهاب على طراز بن لادن الانطباع بأن قوة وطنية أياً كان مقدار قوتها ستجد صعوبة في التفوق في لعبة لا قواعد لها، حتى وإن حوّلت الدولة نفسها إلى عنصر إرهابي، كما يفعل الأمريكيون الآن، فليس من الضرورة أن تتمكن من إحراز النجاح.

وأياً يكن، فإن قَصَرَ الإرهابيون عملياتهم ببساطة على الأسلوب التقليدي بالقنابل والاختطاف والاغتيال واختطاف الطائرات فسيشكِّل هذا درجة لا تضاهي الحد

الأعلى من الإرهاب، فما يثير ذعر الناس حقاً هو تسلُّح الإرهابيين بأنواع متعدد من التقنيات العالية الجديدة والتي يمكن أن تتطور إلى أسلحة تدمير شامل، لقد أشرنا من قبل إلى ما يمكن أن يحمله المستقبل، وهذه الإشارة يمكن أن تثير مخاوف حقيقية، عندما أطلق أتباع أوم شينريكيو غاز السارين السام في مترو أنفاق طوكيو، لم ترعب الخسائر البشرية بفعل الغازات الناس بقدر ما أرعبهم العمل ذاته، فقد لفت هذا العمل الانتباه إلى أن تقنيات الكيمياء الحيوية الحديثة قد شكّلت بالفعل سلاحاً فتّاكاً لأولئك الإرهابيين الذين قد يحاولون تنفيذ هجمات جماعية ضد الإنسانية[1]، ولأن الأشياء تُعرَف بأضدادها فهؤلاء يختلفون عن القتلة المقنَّعين الذين يعتمدون على القتل العشوائي للأبرياء في صناعتهم الرعب، وعن جماعة "كتائب القوات المسلحة" الإيطالية في مستوى التنظيم الإرهابي عالي التقنية، فأهدافهم واضحة والوسائل التي يعملون بها فريدة من نوعها، إنهم يختصّون باختراق شبكات حواسيب البنوك والمنظمات الجديدة فيسرقون البيانات المخزَّنة ويحذفون البرامج وينشرون المعلومات المضلِلَة، هذه هي العمليات الإرهابية التقليدية المباشِرة ضد الشبكات والإعلام، وهذا النوع من العمليات الإرهابية يستخدم آخر التقنيات المستمدة من أحدث الدراسات، ويضع نفسه خصماً للإنسانية بأجمعها، ربما يمكننا تسمية هذا النوع من العمليات بـ"حرب الإرهاب الجديدة".

الحرب البيئية: يشير مصطلح الحرب البيئية إلى نوع جديد من الحروب غير العسكرية تُستَخدم فيها التقنية الحديثة للتأثير على الحالة الطبيعية للأنهار والمحيطات والقشرة الأرضية وصُفيحات القطبين المتجمدين وهواء الغلاف الجوي وطبقة الأوزون، بطرق مثل التسبب بالزلازل وتغيير معدلات هطول الأمطار ودرجة حرارة الغلاف الجوي ومكوِّنات الغلاف الجوي ومستوى ارتفاع سطح البحر ومعدّل أشعة الشمس والبيئة الفيزيائية للأرض عبر تخريب البيئة المحلية أو

1 اقترح بعض الخبراء الأمنيون في الولايات المتحدة على الحكومة أن تخزِّن كميات كبيرة من المضادات الحيوية، كي تأمن هجوماً كيميائياً قد تشنه منظمة إرهابية.

استبدالها، ربما سيصبح التأثير الذي يمارسه الإنسان على ظاهرتي إل نينو[1] أو لا نينا (النينا أو إل نينو - التذبذب الجنوبي هو تغير دوري غير منتظم في الرياح ودرجات الحرارة في المحيط الهادئ الاستوائي الشرقي، مؤثرًا على المناخ في الكثير من المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. تُعرف مرحلة الزيادة في درجة حرارة البحر بـ إل نينو، بينما تُعرف مرحلة التبريد بـ لا نينا) خلال فترة وجيزة هو الآخر نوعاً آخر من أسلحة التدمير الشامل بأيدي دول محددة أو/و منظمات غير حكومية، وعلى الأرجح ستصبح المنظمات غير الحكومية المبادِر الرئيسي في الحرب البيئية، بسبب طبيعتها الإرهابية، لأنها لا تشعر بمسؤولية تجاه الناس والمجتمع على العموم، ولأن المنظمات غير الحكومية أثبتت باستمرار أنها عازفة على اللعب وفقاً لقواعد اللعبة، وبالإضافة إلى هذا فمعظم البيئة العالمية ستكون باستمرار على شفير الهاوية لأن الدول تسعى جاهدة للحاق بركب التنمية بأقصى سرعة ممكنة، وهذا يشكِّل خطراً حقيقياً بأن أدنى زيادة أو نقص في أي متغير بيئي سيكون القشَّة التي ستقصم ظهر البعير للبيئة.

وبغضِّ النظر عما ناقشناه آنفاً، يمكننا ذكر عدد من الوسائل والطرق غير العسكرية الأخرى، بعضها موجود من قبل وبعضها الآخر يمكن أن يتواجد في المستقبل، تتضمن هذه الوسائل والطرق الحرب النفسية (نشر لشائعات لتخويف العدو وتثبيط همته)، وحرب التهريب (إشاعة الاضطرابات في الأسواق ومهاجمة النظام الاقتصادي)، والحرب الإعلامية (التلاعب بما يراه الناس ويسمعونه بغية توجيه الرأي العام)، وحرب المخدرات (جني دخل كبير ومفاجئ من نشر الخراب في البلدان الأخرى)، وحرب الشبكة (خوض المغامرات السرية وإخفاء الهوية في نوع من الحرب يستحيل افتراضيا تجنبه)، والحرب التقنية (عمل احتكارات عبر وضع معايير مستقلة)، حرب التلفيقات (تقديم ظهور مزيف للقوة الحقيقية في نظر العدو)، حرب الموارد (سلب الثروات عبر نهب المستودعات والموارد)، حرب المعونات

1 التردد الجنوبي -إل نينو وهي تختلف عن ظاهرة النينا، هو ظاهرة مناخية عالمية، حيث يؤثر تغير الحرارة في أحد المحيطات على الجو بمنطقة أخرى بعيدة. يحدث التردد الجنوبي نتيجة للاختلاف الموسمي للحرارة بين مدينة داروين بأستراليا وجزر تاهيتي.

الاقتصادية (إبداء التسهيلات والتفضيلات الاقتصادية في العلن والتدبير للسيطرة على الأمور في السر)، الحرب الثقافية (توجيه الثقافة بحيث تستوعب أصحاب الآراء المختلفة)، وحرب القانون الدولي (انتهاز الفرص السانحة لتمرير القوانين) إلخ..... إضافة إلى أنواع أخرى عديدة من الحروب غير العسكرية لا يتسع المجال لذكرها جميعاً، في هذا العصر حيث يمكن لوفرة التكنولوجيا أن تؤدي بدورها إلى وفرة في وسائل وطرق الحرب القتالية (ناهيك عن الجمع المتبادل والاستخدام الإبداعي لهذه الطرق والوسائل) سيكون ذكر جميع الوسائل والطرق وتصنيفها مجرد مضيعة للوقت لا فائدة منها، المهم حقاً هو أن جميع وسائل الحرب هذه إلى جانب تطبيقاتها الناتجة عنها والتي دخلت وتدخل وستدخل تصنيفات وسائل القتال في خدمة الحرب، بدأت من قبل بتغيير نظرة جميع البشر للحرب تماماً، لماذا يريد البشر إيقاع أنفسهم في حفرة حفروها بأنفسهم مع أنهم يستطيعون انتقاء خيار من مجموعة لا متناهية من الخيارات ويختارون استخدام وسائل الحرب المحدودة بعامل القوة والسلاح والقوة العسكرية؟ الطرق التي لا تتسم باستخدام قوة السلاح ولا القوة العسكرية ولا تتسبب حتى بإيقاع الخسائر وسفك الدماء، يمكنها على الأغلب تسهيل الوصول إلى أهداف الحرب، بل أكثر منها. وبطبيعة الحال، أدى هذا الطرح إلى مراجعة شعار: "الحرب هي السياسة بسفك الدماء" مما أدى بدوره إلى تغيير الأفكار التي ترى حتى الآن شن حرب بالقوة العسكرية هو الوسيلة النهائية لحل الصراع، من الواضح أن تنوع الوسائل المستخدمة وسّع مفهوم الحرب. كما أن توسيع مفهوم الحرب أدى بدوره إلى توسيع مجال الحرب والأنشطة المرتبطة بالحرب، وإن حصرنا مفهومنا للحرب بمجال ضيّق عن ساحة المعركة التقليدية اليوم، سيكون من الصعب علينا جداً أن نحظى بموطئ قدم في حروب المستقبل، أي حرب تندلع غداً أو في المستقبل ستتسم بأنها حرب بالمعنى الأوسع، أي أنها ستكون مزيجاً من الحرب تُستخدم فيها قوة السلاح وتواكبها وسائل أخرى غير قوة السلاح.

الغاية من هذا النوع من الحرب لن يقتصر على مجرّد "استخدام وسائل من بينها قوة السلاح لإجبار العدو على الرضوخ لإرادة الطرف الآخر، بل سيكون الهدف: "استخدام كافة الوسائل -سواء كانت بالسلاح أو بغير السلاح وسواء كانت بالقوة العسكرية أو غير العسكرية وبالوسائل التي تسفك الدماء أو تحقن الدماء لإجبار العدو العمل وفق مصالح الطرف الآخر".

الفصل الثالث:

كلاسيكي ينحرف عن الكلاسيكيات

"هل أشعلت الطبيعة الخاصة لحرب الخليج شرارة ثورة في الشؤون العسكرية أم لا؟ هذه بامتياز مجرد وجهة نظر"، آنتوني كوردسمان، **أبراهام ووغنر**.

يمكن اعتبار حرب الخليج واحدة من أعظم الحروب مقارنة بأي حرب أخرى في التاريخ، حيث شاركت في الحرب أكثر من 300 سفينة حربية منظَّمَة في ستة أساطيل، وأربعة آلاف طائرة حربية، واثنتا عشرة ألف دبابة واثنتا عشرة آلية مصفَّحَة وما يقرب من مليوني جندي من أكثر من ثلاثين دولة، ومن أصل 42 يوماً هي أيام الحرب كاملة كان نصيب الغارات الجوية منها 38 يوماً، أما الحملة البرية فقد استغرقت مئة ساعة فقط، وسحقت القوة متعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحدة 42 فرقة عراقية، وسقط من القوات العراقية ثلاثون ألف قتيل وثمانون ألف أسير، ودُمِّرَت له 3847 دبابة و1450 آلية مصفحة، و2917 قطعة مدفعية، أما القوات الأمريكية فلم تخسر سوى 184 من جنودها، لكنها تحمّلت تكلفة الحرب الباهظة بـ61 مليار دولار[1].

وربما بسبب النصر السهل، لم يقيّم سوى القليل من الأمريكيين الذي أسكرتهم نشوة النصر أهمية الحرب بدقَّة، ولم يتوقّف بعض الحمقى عن نسج قصص لأسطورة الجيش الأمريكي الذي لا يُقهر، فيما يعتقد من يُعتَبَرون متوازنين -معظمهم من المراقبين والجنرالات ممن لم يتمكنوا من المشاركة في "عاصفة الصحراء" وفقاً لمنظور ذهني مستقر- يعتقدون أن "عاصفة الصحراء" لم تكن حرباً أنموذجية[2] وأنها حرب جرت

1 انظر «حرب الخليج، التقرير الأخير لوزارة الدفاع إلى الكونجرس»، «الدفاع في العصر الجديد: تجارب ودروس مستقاة من حرب الخليج»، وأبحاث ودراسات أخرى.

2 الفصل الأول («حرب فريدة من نوعها») في التقرير البحثي «التجارب العسكرية والدروس المستفادة من حرب الخليج الصادر عن المركز الأمريكي للدراسات الاستراتيجية والدولية ينص على: «الطبيعة الفريدة لحرب الخليج تحافظ إلى حدٍ بعيد على قدرتنا لاستخلاص الدروس والخبرات منها، وفي الواقع فإن فمقدار الخبرات والدروس التي يمكن استخلاصها على المدى الطويل قضية رئيسية (حرب الخليج، المجلد الثاني، دار نشر العلوم العسكرية، مطبوعة داخلية 1992، صفحة 155).

بعد حرب الخليج، بدأ العسكريون الصينيون الذين صُدِموا بشدة منذ البداية بآراء الدوائر العسكرية الغربية، بإعادة التفكير بدروس وتجارب حرب الخليج. (مجلة كونميليت، تشرين الثاني، سنة 1998).

وفقاً لظروف مثالية لا يمكن قياس غيرها عليها، وعندما يسمع المرء هذا الكلام يشعر بمرارة من عجز عن الوصول للعنب فقال عنه إنه حامض. في الواقع، عند النظر إلى "عاصفة الصحراء" بنظرة تقليدية، نجد أنّها لم تكن حرباً تقليدية بالمعنى المعروف، بل بما أنها كانت حرباً جرت وفقاً لأعظم ثورة في الشؤون العسكرية وصل إليها الإنسان في تاريخه حتى الآن فلا يمكن قياسها بالمعايير التقليدية أو المعايير التي عفا عليها الزمن. ففي وقت تطلَّبَت فيه الحروب الجديدة ترتيبات كلاسيكية جديدة، وجدت قوات الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة ضالَّتَهَا في حرب الخليج فَأجرَت هذه الترتيبات الكلاسيكية في الوقت المناسب، وفقط أولئك الذين أَسَرَتهُم العادات القديمة لم يستطيعوا رؤية أهمية هذا الترتيبات الكلاسيكية لحروب المستقبل. ويعود السبب في هذا إلى أن الكلاسيكيات لحروب المستقبل يمكن أن تولد فقط من ترك الأنماط التقليدية. نحن لا ننوي مساعدة الأمريكيين على اختلاق أُسطورة، لكن عندما تُفتَح أوراق "عاصفة الصحراء" ويُتاح للجميع التمعُّن بالنظر فيها، مع الأخذ بعين الاعتبار الأعداد الغفيرة للدول التي شاركت فيها، وحجمها الكبير، ومدَّتَها القصيرة، وخسائرها القليلة، ونتائجها الباهرة التي أدهشت العالم بأسره؛ من يستطيع القول عندئذٍ إن حرباً تقليدية تبشِّر بوصول الحرب إلى عصر العولمة التقنية لم تفتح الباب على مصراعيه للتاريخ الغامض والغريب للحرب حتى وإن كانت هذه الحرب كلاسيكية صنعتها التكنولوجيا الأمريكية والقتال على الطراز الأمريكي؟

عندما نحاول الاستفادة من الحروب التي جرت من قبل لمناقشة ما يكوّن الحرب في عصر العولمة التقنية، فإن "عاصفة الصحراء" يمكنها أن تقدِّم أمثلة جاهزة، ففي الحاضر لم تعد (المثال) الوحيد، وإنما (المثال) التقليدي، وبالتالي هي التفاحة الوحيدة التي تستحق تحليلنا الوثيق [يشرح المؤلِّف تحليل التفاحة لاحقاً في هذا الفصل].

الحلفاء الذين باتوا حلفاءً بين ليلة وضحاها:

كان ضم الكويت من منظور صدام أشبه بشأن داخلي ضمن البيت العربي الواسع مقارنة باحتجاز رهائن أمريكيين خلال الثورة الإيرانية، كما أنه كان قد أخطرهم بهذا من قبل. لكنه أغفل الاختلافات بين الحالتين، فعندما احتجزت إيران الرهائن، شكَّل هذا بلا شك صفعة في وجه الأمريكيين، لكن العراق وضع يديه على عنق الغرب بأكمله، وشريان الحياة أهم بلا شك من الوجه، ولم يكن للولايات المتحدة أي خيار إلا أن تتعامل مع الأمر بحزم، كما توجّب على الدول الأخرى التي شعرت بتهديد العراق لها أخذ الأمور بحزم. فلم يَدُر بخَلَدِ معظم الدول العربية التي تحالفت مع الولايات المتحدة سوى اجتثاث الهرطقات الإسلامية التي نادى بها صدام، حمايةً لمصالحها من الأضرار التي قد يُلحِقها بهم، بينما كانت قوته تتعاظم دون رادع من أحد، ومن الصعب للغاية القول بإن هذه الدول كانت تسعى لإنصاف الكويت[1]. ومكَّنَت المخاوف المشتركة على المصالح الولايات المتحدة من إرساء شبكة من التحالفات أحاطت بالعراق سريعاً. وكانت القوى الغربية متمرسة من قبل بحبائل السياسات الدولية الحديثة، وتجمّع التحالف المناهض للعراق تحت راية الأمم المتحدة، وشتت هالة العدالة بنجاح الجسد الديني للشعوب العربية، لدرجة أن صدام كان يُنظَر إليه على أنه صلاح الدين الجديد، الذي فشلت خطته لشن "حرب مقدسة" ضد الصليبيين، وتطوّعت العديد من الدول لتصبح جزءً من شبكة التحالفات هذه. ورغم أنهم لم يكونوا راغبين إلا أن الألمان واليابانيين بدوا سعداء في النهاية للمشاركة السخية بالمال، لكن الأهم من إنفاق الأموال هو أن أياً منهم لم يضيّع فرصة إرسال جنوده، وبالتالي اتخذوا خطوة خفية ورمزية نحو تحوُّلِهم إلى قوى عالمية مجدداً. وأقنعت مصر ليبيا والأردن باتخاذ موقف محايد

---

1 كان التحالف العربي المناهض لصدام يتمحور حول العربية السعودية ومصر وسورية، وحسب الجنرال خالد الذي كان قائد القوات المتحالفة في «عاصفة الصحراء»، فقد كان صدام يشكِّل تهديداً هائلاً لهم، لذا «لم يكن لدينا خيار آخر سوى طلب المساعدة من القوات الصديقة، وخصوصاً الولايات المتحدة».

أخذ الأمريكيون التحالف على محمل الجد كثيراً، لمزيد من التفاصيل انظر «مرفقات التقرير الأخير لوزارة الدفاع للكونجرس رقم 9، «إنشاء التحالف، التنسيق، والقتال».



في الحرب وأن يتوقفوا عن دعم العراق، ولذا بات صدام معزولاً بالكامل. وحتى غورباتشوف، الذي أراد أن ينال الدعم الأمريكي لموقفه الضعيف داخلياً، وافق في نهاية المطاف ضمنياً على الضربات العسكرية للتحالف الدولي ضد الحليف القديم.

حتى قوى مثل الولايات المتحدة يجب أن تعتمد على دعم حلفائها، وتجلّى هذا الدعم بالدرجة الأولى في إضفاء الشرعية على أعمالها وفي الدعم اللوجستي، وليس في إضافة قوات كبيرة إلى قواتها. والسبب في أن سياسيات الرئيس بوش قد حظيت بقبول واسع عند عامة الأمريكيين يعود إلى إرسائه تحالفاً دولياً، جعل الناس من خلاله يصدِّقون أن هذه ليس عملية إنقاذ طرف آخر، فلم يكن الأمريكيون هم الوحيدون الذين ينفقون الأموال على الحرب أو يجهِّزون الأكفان لقتلاهم. ومضى الأمريكيون بعيداً إلى درجة إرسال الفيلق السابع من ألمانيا إلى العربية السعودية، وعبّأوا 465 قطاراً و312 بارجة و119 سفينة من أربعة دولة أعضاء في الناتو، وفي ذات الوقت زوّدت اليابان الجيش الأمريكي على عجل بما يحتاجه من أجزاء الكترونية لمعداته، وأثبت هذا أيضاً اعتماد الولايات المتحدة المتزايد على حلفائها. في العصر الحديث "أن تعمل منفرداً" ليس عملاً غير حكيم فحسب بل إنه غير واقعي حتى[1]. على سبيل المثال: شكّل التحالف نوعاً من الاحتياجات المشتركة، من قرار مجلس الأمن رقم 660 الذي يدعو العراق للانسحاب من الكويت إلى القرار 678 الذي يفوّض الدول الأعضاء باتخاذ أي خطوات يرونها ضرورية، لقد جعل المجتمع الدولي نفسه متوافقاً بالكامل مع التحالف الذي تراصَّ مؤقتاً، وشاركت مئة وعشر دول في الحصار المفروض على العراق، وشاركت أكثر من ثلاثين دولة في استخدام القوة بما في ذلك العديد من الدول العربية، وكان من الواضح أن لكل دولة تقديراً كاملاً بالمكان الذي تتواجد فيه مصالحها قبل هذا العمل.

1 الفصل الثاني («الاعتماد العسكري الأمريكي») من التقرير البحثي «الخبرات العسكرية والدروس المستفادة من حرب الخليج» الصادر عن المركز الأمريكي للدراسات الاستراتيجية والدولية، يشير إلى أن هذه الحرب أثبتت بلا شك أن الولايات المتحدة سواء بما يتعلق بالسياسة أو بالدعم اللوجستي، يجب أن تعتمد على دول صديقة وحلفاء. ودون مساعدة مُعتَبَرة من الدول الأخرى، ليس لدى الولايات المتحدة إمكانية لتنفيذ أي عملية طارئة رئيسية. وفيما عدا عمليات صغيرة، فخيار «امض وحدك» غير مجدٍ، وكافة القرارات الدبلوماسية والدفاعية يجب أن تُبنى على هذا الفهم. ذات المصدر السابق.



لم يكن التدخل الواسع النطاق للأمم المتحدة كافياً ليمكِّن هذا التحالف الواهي وهن شبكة العنكبوت والغامض المستقبل، والذي التمَّ خلال مدة قصيرة، من الصمود في خضمِّ الحرب. ويمكن القول إنه بالنسبة للسياسيين لم يكن التحالف سوى اجتماع واحد على مستوى رفيع بعد تقييم دقيق للمصالح، وتوقيعاً على اتفاق واحد، أو حتى تعهُّداً شفهياً عبر الخط الساخن. أما بالنسبة للقوات التي كانت تخوض حرب التحالف فلم يكن بإمكان التغاضي عن أية تفاصيل. وهكذا لتجنب انتهاك الجنود الأمريكيين القيم الإسلامية، إضافة إلى وجوب امتثالهم الصارم لأعراف البلد الذي يتمركزون فيه، استأجر الجيش الأمريكي يخت الأميرة كونراد وأرساه في البحر ليقدّم للجنود الأمريكيين لهواً على الطراز الغربي. ولمنع الصهاينة من الرد على هجمات صواريخ سكود وبالتالي زعزعة المعسكر الذي كان يهاجم العراق؛ بذلت الولايات المتحدة جهوداً مضنية لتزوِّد الصهاينة بالدعم الجوي، ولتحمي التحالف من الانهيار.

أما الأثر الأبعد مدى فهو أن ظهور "الحلفاء بين ليلة وضحاها" أنهى حقبة مُعَيَّنَة، وهي عصر الأحلاف الثابتة التي بدأت بتوقيع التحالف العسكري بين ألمانيا والامبراطورية النمساوية الهنغارية سنة 1879. بعد الحرب الباردة -الفترة التي كانت تتشكل فيها التحالفات على أساس الأيديولوجيا تلاشت- بينما ظهر العصر الذي تُبنى فيه التحالفات على المصالح كأولوية. تحت شعار السياسة الواقعية كشعار عام، التي تكون فيها المصالح الوطنية ذات أولوية، يمكن أن يركِّز أي تحالف على المصالح المجرّدة، وفي بعض الأوقات لا يشعر الحلفاء حتى بحاجة لرفع شعار الأخلاق. لا شك أن ظاهرة الأحلاف ستستمر بالوجود، لكن في معظم الأحيان ستضيق وتقتصر على تحالفات مصالح قصيرة الأجل. مما يدفع للقول إنه لن يكون هنالك أية تحالفات مبنيَّة على الأخلاق فقط، دون إدخال المصالح. لكل زمن مصالحه وأهدافه المختلفة، وهذا ما سيحدد إمكانية حدوث التحالفات أم لا. وبشكل متزايد تصبح هذه هي السمة الرئيسية للتحالفات الحديثة. كافة القوات مُتَّحِدَة بشبكة من المصالح، وربما لا تعمِّر هذه التحالفات طويلاً لكنها تكون فعّالة

للغاية. بدأت علاقات المصلحة للدول الحديثة إضافة إلى المنظّمات العابرة للدول وحتى بين القوى الإقليمية تصبح مصالح انتقالية بشكل متزايد. مثل ما ورد في أغنية مغني الروك رول كو إي جيه إيان: "ليست المشكلة أنني لا أفهم، بل المشكلة هي أن العالم يتغير بسرعة"، نموذج اليوم للتَّغيُّر الدائم للقوة، الذي يترافق مع التغير الدائم للتكامل التكنولوجي والعولمة، أعطى الإشارة لظهور تحالفات ضمنية معيّنة وهي بلا شك مصادفة. لذا فالتحالفات "بين ليلة وضحاها التي شكّلتها حرب الخليج فتحت الباب رسمياً لحقبة جديدة من التحالفات.

"قانون إعادة التنظيم" في الوقت المناسب:

ينخرط الأمريكيون المتغطرسون عادة في أفعال تجعلهم يعيدون النظر في أفعالهم، وهذا التغيير الذي قد يبدو متناقضاً، كثيراً ما يُذهِلُ أولئك الذين يريدون أن يروا الأمريكيين المتعالين يدفعون ثمن أفعالهم، وفي ذات الوقت يتمكّن الأمريكيون مرة بعد مرة من جني ثمار ذات شأن. يبدو أن بوسع الأمريكيين دوماً إيجاد المفتاح لفتح الباب للعمل العسكري القادم بين ركام الدروس المستقاة من كل عمل عسكري. الصراع بين آراء ومصالح فئات القوات المسلحة موجود منذ زمن طويل، وفي كل بلد، أما التنافس بين المكوِّنات المتعددة للقوات الأمريكية المسلحة لحماية مصالحها الخاصة والسعي للمجد فمعروف جيداً للجميع، ولا تتساوى فئات الجيش الأمريكي في هذا الصدد. ولا أدلَّ على هذا من القتال مع اليابان منذ ستين عاماً حيث وضع كل من الجنرالين ماك آرثر ونيمتز استراتيجية مختلفة للأطلسي، بغية إبراز دور القوات التي يقودونها، وحتى الرئيس روزفلت الذي كان حَذراً وبعيد النظر، واجه مشكلات في الموازنة بين الجنرالين. شيء آخر يُثبِتُ هذه النقطة هو أن القوة الأمريكية الجوية التي قصفت فيتنام منذ ثلاثين سنة اضطرت لتلقّي الأوامر من أربع قيادات مختلفة في ذات الوقت، وهذا بالفعل عجيب لدرجة أنّ المرء يكاد لا يُصدِّقه. وحتى إلى ما قبل 15 سنة، كان ثمة أنظمة قيادة منفصلة ومستقلة ولم يكن واضحاً من هو القائد الحقيقي، وكان لهذا عواقب وخيمة على القوات الأمريكية التي تمركزت في

بيروت، فقد أدى إلى خسارة نحو 200 عنصراً من المارينز حياتهم. وحتى مع تعيين الجنرال نورمان شوارزكوف رئيساً لأركان القوات المتحالفة أثناء "عاصفة الصحراء" كانت المشكلة التي انكشفت في جرينادا ما تزال حية في ذاكرته، فعندما كان نائباً لقائد القوات المشتركة خلال عملية غرينادا، سلك كل صنف من صنوف القوات الأمريكية المسلحة المُشارِكة في العملية طريقه الخاص، والسؤال [الذي أثارته هذه العملية] كان: خلال العمليات المشتركة، من يسمع أوامر من؟

ومما يثير السخرية أن هذه المشكلة، التي وقع فيها الجيش الأمريكي لعدة عقود لم يَحُلَّهَا الجنرالات الذين خاضوا حروباً طويلة أو الخبراء المتمرِّسون في شؤون الحكم، بل حلّها عضوا الكونجرس جولدووتر ونيكولز[1]. واستفاد اقتراح "إعادة تنظيم وزارة الدفاع الأمريكية" الذي مرره هذان العضوان سنة 1996 في الكونجرس من النهج التشريعي لحل مشكلة القيادة الموحّدة للصنوف المتعددة للقوات الأمريكية خلال الحرب المشتركة.

ولاحقاً كان ثمة قضايا متبقية تتطلب حلاً، ليس عاجلاً جداً وليس متأخراً جداً وإنما في هذا الوقت بالتحديد، فقد غزا صدام الكويت بحماقة وكانت هذه ببساطة فرصة من السماء للأمريكيين الذين كانوا قلقين من اختبار جدوى "إعادة التنظيم". بهذا المعنى لا حاجة للقول إن "إعادة التنظيم" جاءت في وقتها، بل من الأفضل القول إن حرب الخليج جاءت في وقتها.

وكان باول شوارزكوف أكثرَ المستفيدين من "إعادة التنظيم" وفي ذات الوقت

1 في التقرير البحثي عن حرب الخليج لمجلس النواب الأمريكي، أعدّه لويس آسبين وديكنسون، هنالك إشادة كبيرة بـ «قانون إعادة تنظيم جولد ووتر- نيكولز وزارة الدفاع» حيث كتب أن «قانون إعادة تنظيم جولد ووتر-نيكولز وزارة الدفاع يضمن أن تتكاتف الخدمات العسكرية الثلاث لخوض نفس الحرب». كما نقل التقرير عن وزير الدفاع تشيني قوله إن هذا القانون «هو التشريع الذي له تأثير بعيد المدى على وزارة الدفاع منذ «قانون الأمن القومي»، كما أشاد الجنرالات به، وكذلك الأدميرال أوينز، الذي كان نائباً لرئيس هيئة الأركان المشتركة سابقاً، واصفاً «قانون إعادة تنظيم وزارة الدفاع جولدووتر-نيكولز» بأنه «أحد الثورات الثلاث الكبرى في الشؤون العسكرية في الولايات المتحدة»، ونصَّ هذا القانون على أنه في جميع النزاعات المسلحة سيتم القتال باستخدام قوة مشتركة، كما أوضح أن رؤساء أركان الأجهزة لم يعودوا قادة مقاتلين، والقادة المقاتلون هم قادة الميدان الخمسة. (مجلة الدفاع الوطني، العدد11، عاد 1998 صفحة 47-46، مجلة كونميليت عدد 12 عام 1998 صفحة 24).



أصبحا أبرز جنرالين في تاريخ الحرب الأمريكي. فبالنسبة لقيادة الحرب الأمريكية المشتركة، كان باول أول من شغل منصب كبير المستشارين العسكريين للرئيس بشكل لا لبس فيه، مما مكّنه من تلقّي الأوامر مباشرة من الرئيس ووزير الدفاع، بالإضافة إلى حل مشكلة تراتبيّة صنوف القوات المسلحة الثلاثة[1] ، وبالتالي لم يعد مضطراً ليعمل ميسِّراً لمماحكات لا تنتهي بين رئاسات أركان صنوف القوات. وهكذا تخلّص شوارزكوف كقائد لساحة المعركة من الإزعاج وامتلك بيديه قوة حقيقية كبيرة. وحسب المعلومات التي وردت من البنتاغون، فقد كانت لديه الحرية لاختيار ما يسمع واختيار ما يفعل كجنرال خارج البلاد وخارج مقر القيادة الرئيسي، ففي الوقت الذي كان فيه الجيش الضخم يحتشد في الخليج، وكذلك الأقمار الصناعية في الفضاء والضفادع البشرية تحت الماء، كانت كافة الطرق لكل سفينة دحرجة[2]رهن إشارته. مما مكّنه من فرض سلطته التي يتمتع بها قائد القيادة المشتركة وفقاً لـ "قانون إعادة تنظيم وزارة الدفاع" على مختلف صنوف القوات دون أي تردد. على سبيل المثال عندما طلب قادة الجبهة البحرية بشكل عاجل تنفيذ إنزال برمائي على سواحل الكويت، ألقى شوارزكوف نظرة شاملة على الموقف بأكمله واستخدم بحزم حقه بالنقض، وأمر بمواصلة التركيز على عملية "لفت هووك"، وفقاً للخطة المدروسة جيداً من البداية.

هذا القرار الذي لم يُنفَّذ طيلة خمس سنوات من إقراره أمكن تنفيذه بحذافيره في حرب جاءت بعد ذلك ويعود الفضل في ذلك إلى العقلية التعاقدية لأشخاص في المجتمع القانوني الذي تمثِّله الولايات المتحدة. كما أن النموذج الجديد من القيادة الذي اشتُقَّ من هذا بات التطبيق الأكثر نجاحاً وملائمة للقيادة العسكرية منذ ابتُكِرَت التصنيفات العسكرية. وكانت نتائجها المباشرة على وشك خفض مستويات القيادة، وبثِّ الحياة في شجرة القيادة القديمة شديدة الرسوخ لتبدأ بنية شبكية

1 الجوية والبحرية والبرية.

2 سفن الدحرجة وتعرف باللغة الإنجليزية اختصاراُ وهي التي تستخدم لنقل البضائع ذات العجلات. كالقطارات والسيارات بمختلف انواعها. وعادة يتم تحميلها من مؤخرة السفينة حيث يتم فتح باب خلفي تدخل منه السيارات أو البضائع ذات العجلات.

بالتطور، ومن التأثيرات الجانبية لهذا التطور كان تمكين مزيد من الوحدات القتالية من مشاركة المعلومات الابتدائية لميدان المعركة.

بالنظر إلى "قانون إعادة التنظيم" ضمن سياق العصر الذي صدر فيه، يتَّضح أن عملية إعادة تنظيم الجيش الأمريكي لم تكن محض مصادفة أبداً، بل إنها جاءت في الوقت المناسب وبما يتوافق مع المتطلبات الطبيعية للعصر الجديد لطبيعة العلاقات بين القيادات العسكرية، أي: من خلال إعادة توحيد السلطة العليا التي كانت مشتتة من قبل، ثم -على هذا الأساس- إنشاء سلطة عليا تتجاوز سلطات جميع مفاصل القيادة التي انحصرت في أهداف مؤقتة محددة، وبات ممكناً أن تصبح هذه القيادة العليا أكثر كفاءة عند تنفيذ أي مهمة في ساحة المعركة. ظهور "قانون إعادة التنظيم" في الولايات المتحدة والأسباب التي أدت إليه في الجيش الأمريكي قدّمت سبباً وجيها للتفكير، وأي دولة تريد الانتصار في حرب في القرن الحادي والعشرين يجب أن تواجه بلا أدنى شك خيار "إعادة التنظيم" أو الهزيمة، وليس ثمة خيارات أخرى.

تجاوز المعركة البرية الجوية:

كانت "المعركة الجوية البرية" بالأصل استراتيجية نصح بها الجيش الأمريكي لإعاقة العدو عند التعامل مع حشود دبابات حلف وارسو التي قد تندفع مثل الطوفان الجارف في أي وقت على سهول أوروبا، لكن الجيش عانى من انعدام الفرصة لاختبار ما يمكن أن يفعله. وقدّمت حرب الخليج فرصة لاختبارٍ كامل لأولئك في الجيش الأمريكي، الذين كانوا شديدي الإبداع ومتعطشين للدماء، لكن ظروف ساحة المعركة الفعلية كانت مختلفة كلياً عما تصوّره الناس من قبل. كانت "عاصفة الصحراء" بالدرجة الأولى حملة "جوية بالكامل" وليست برية واستمرت عشرات معدودة من الأيام، وبالكاد استخدموا "سيف الصحراء" الذي استُعرِض في اللحظة الأخيرة، بما في ذلك ضربة الخطاف الأيسر الجميلة[1] التي استمرت لنحو مئة ساعة قبل لفلفة الأمور على عُجالة. لم

1 لكمة في الملاكمة تُنَفَّذ عن طريق تدوير عضلات القلب والظهر، وبالتالي تحريك الذراع الذي ينحني بزاوية قدرها 90 درجة، في قوس أفقي إلى الخصم، وعادة ما يكون موجهاً إلى الفك.



تصبح الحرب البرية العنصر الماضي القادم إلى الحاضر على البرنامج كما كان يأمل الجيش، وإنما كانت مثل الأوركسترا التي تختم عملها سريعاً بعد بدء العزف[1]. ويبدو أن نبوءة دوهيت بأن "ميدان المعركة الجوية ستكون هي الساحة الحاسمة" قد تحققت متأخرةً. لكن ما جرى في حرب الخليج فاق كل التصوّرات عن الدور الذي يمكن إليه هذا العامل لتحقيق النصر في الحرب. لم تحدث لا في العراق ولا في الكويت مبارزات جوية للسيطرة على الجو، وإنما كانت حملة جوية متكاملة مزجت كافة العمليات القتالية معاً، مثل الاستطلاع، والإنذار المبكِّر، والقصف الجوي، والقتال القريب، والاتصالات، والضربات الالكترونية، والقيادة والسيطرة.... إلخ، معاً، كما تضمنت السعي لاحتلال الفضاء الخارجي والسيبراني.

عند هذه النقطة، يكون الأمريكيون الذين طرحوا مفهوم "المعركة الجوية البرية" قد تجاوزوا بهذا دوهيت قليلاً. لكن كان عليهم الانتظار عدة سنوات قبل أن يفهموا أنه حالما يلجئون إلى نظرية القوات المتكاملة في القتال الحقيقي سيكتشفون أن آفاق الرؤية أبعد كثيراً مما بدأوا بتصوُّرِه، فهي تمتد على مساحات شاسعة وشاملة في ميادين البر والبحر والجو والفضاء والفضاء السيبراني. ورغم أن استيعاب نتائج حرب الخليج يتطلب وقتاً، إلا أنها لا بد أن تصبح نقطة البداية لنظرية القتال "متعدد الأبعاد" الذي طرحته نخبة الجيش الأمريكي عندما استفاقوا فجأة.

ومما يلفت الانتباه هو أنه بينما يمكن أن يصدِّق المرء أن تبصّر الأمريكيين جاء متأخراً بعض الشيء، فإن هذا ليس له أي تأثير على حيازتهم المبكِّرة لمفتاح "القتال متعدد الأبعاد". وهذا هو "ترتيب المهام الجوية" الشهير[2]. "ترتيب العمليات

1 صرَّح الجنرال ميريل ماكبيك، الذي كان رئيساً لأركان القوات الجوية أثناء حرب الخليج، أن «هذه الحرب استُخدِمَت فيها القوة الجوية بشكل مكثف وحققت الولايات المتحدة والوحدات الجوية المتعددة الجنسيات النصر»، وكانت أيضاً الحرب الأولى في التاريخ التي تُستَخدَم فيها القوة الجوية لهزيمة القوات البرية (مجلة القوات الجوية، أيار 1991. وفي بيان سابق للحرب أشار سلفه مايكل دوغان إلى أن «الطريقة الوحيدة لتجنب إراقة سيل من الدماء في الحرب البرية هي استخدام القوة الجوية». على الرغم من أن دوغان قد تجاوز سلطته وأُعفي من منصبه، إلا أن وجهات نظره لم تكن خاطئةً أبداً.

2 تقرير وزارة الدفاع الأمريكية وتقرير آسبن إلى مجلس النواب كلاهما يعطيات تقييماً عالياً لـ«تنظيم المهام الجوية» ويقولان إن «تنظيم المهام الجوية كان أشبه بأوركسترا من حيث دقة التنظيم والتكامل القتالي».

الجوية" يصل تعداد صفحاته إلى 300 صفحة يومياً، وأعدَّته القوات البرية والجوية والبحرية معاً في الجيش الأمريكي، ومكَّن شوارزكوف القائد الأعلى للقوات المتحالفة الذي كان من نفس الجيش، من إصدار الأوامر لكامل القوات الجوية المشتركة، وكانت هذه النقطة روح الحملة الجوية، فانتقى كل يوم الأهداف الجوية الأمثل لكافة القوات الجوية بما يتماشى مع الخطة العملياتية الشاملة. ونُفِّذت كل يوم ما يزيد على 1000 طلعة جوية انطلاقاً من الجزيرة العربية واسبانيا وانكلترا وتركيا وفق "ترتيب العمليات الجوية" التي يعالجها الحاسوب، لتكون ضربات جوية عابرة لمهام القوات وعابرة للحدود ودقيقة ومنسَّقة. رغم أنه بعيون البحرية كان برنامج القيادة هذا "جوياً من الدرجة الأولى" —وبسبب هذا اتبعوا النهج ضيق الأفق بالاحتفاظ خلسة ببعض طائراتهم حتى يمكن استخدامها بشكل جيد عندما تتاح الفرصة للبحرية بالتألق (رغم أن هذا لم يحدث) —لا شك أن هذا البرنامج نظَّم بنجاح أكبر الحملات الجوية وأكثرها تعقيداً في تاريخ الحروب.

ليس هذا فحسب، بل إن "ترتيب المهام الجوية" قدّم نموذجاً لنوع من الأمر التنظيمي لكلِّ العمليات القتالية الفرعية. قدَّم "أمر" واحد مخططاً مثالياً للجمع بين القوات المقاتلة بين صنوف الجيش، وكان مدى تعقيد ونجاح أعمال الجمع العابرة للجنسيات هو المجال الذي تألقت فيه حقاً. وفي هذا المضمار وحده، تجاوز ما تحقق كثيراً مما تَصَوَّرهُ مهندسو نظرية "المعركة الجوية البرية"، لهذا يمكن أن نقول إن العسكريين الأمريكيين أدخلوا الحرب عن غير قصد في منطقة مفتوحة لم تطئها أقدامهم من قبل.

من هو ملك الحرب البرية؟

كان إيسوروكو ياماموتو[1] بلا شك أكثر العسكريين مبادرة وموهبة عسكرية في عصره، وينمُّ استخدامه حاملات الطائرات في هجوم التسلل في بيرل هاربر والنصر العظيم الذي حققه بهذه الضربة على العبقرية التي خلَّدَهَا له تاريخ القتال البحري. ما يصعُب فهمه هو أن ياماموتو نفسه لم يستطع استيعاب الأهمية العصرية لتكتيكاته الإبداعية. وبعد قيادة القوات البحرية المشتركة لتوجيه ضربة قاسية للبحرية الأمريكية، بقي أسير الاعتقاد بأن المعركة البحرية فقط هي القوة الرئيسية الحاسمة في البحر، وبالتالي رمى مفتاح النصر الذي كان بيده عرض أمواج المحيط الأطلسي الهادرة. وفي الوقت الذي يمكن أن يتعاطف الناس مع من يرتكب الخطأ للمرة الأولى فإنهم يعتبرون من يرتكب ذات الخطأ للمرة الثانية غبياً للغاية، وخصوصاً من يرتكب أخطاءً ارتكبها غيره لكنه فشل في توقُّعِها. المؤسف أنه في تاريخ الحرب يوجد أمثلة متكررة مثل هذا حيث يفشل التفكير في مواكبة العمل. فقط مثل إيسوروكو ياماموتو في هذا الزمان، ورغم أن الجيش الأمريكي استخدم طائرات الهليكوبتر لسحق الوحدات العراقية المدرعة والميكانيكية، إلا أنه عاد بعد انجلاء دخان المعارك في الخليج بشكل لا يمكن فهمه إلى مستوى التفكير الذي كان عليه قبل الحرب، فتوقف عن استخدام الهليكوبتر التي هي بكل تأكيد ينبغي أن تكون السلاح الجديد المفضَّل في الحرب. وقيل إنه أثناء الحرب البرية بأكملها فيما عدا القتال اليائس الذي أبدته فرقة المدينة المنورة المدرعة التابعة للحرس الجمهوري عندما طُوِّقها الفيلق الأمريكي السابع جنوب البصرة، لم يكن ثمة قتال بالدبابات يستحق الذكر. لكن الأمريكيين الذين استخدموا طائرات الهليكوبتر من قبل بشكل واضح لتدشين عصر جديد من الحرب البرية، شرعوا في زيادة الإنفاق على تطوير الأسلحة الأخرى، بما في ذلك الدبابات، بينما كان تحسين الهيلوكوبتر هو القطاع الوحيد الذي تراجعت مخصصاته. لقد تمسَّكوا بأساليبهم التي عفا عليها الزمن،

---

1 إيسوروكو ياماموتو قائد عسكري ياباني، وهو القائد الذي قاد الأسطول الياباني المشترك الذي شن الهجوم الشهير على ميناء بيرل هاربر الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية عام 1941م.



فهم ما يزالون يتعاملون مع الدبابات على أنها السلاح الحاسم في حروب المستقبل البرية[1].

في الواقع، في وقت مبكر من حرب فيتنام، بدأت المروحيات إظهارَ إمكاناتها بيد الأمريكيين، وبعدها بمدة قصيرة، سمح الاتحاد السوفياتي للمروحيات بإظهار مهاراتها الاستثنائية في المناطق الجبلية في أفغانستان، وكذلك فعل البريطانيون في جزر فوكلاند. ومع ذلك، ولأن أعدائهم كانوا بالدرجة الأولى متمردين يخوضون حرب عصابات وقواتهم من المشاة التي لا تضم مدرعات، فقد تأخر التحدي الذي تشكِّلُهُ الطائرة المروحية على الدبابة لعشرين سنة. وفي النهاية أعطت حرب الخليج المروحيات الفرصة لإظهار ما يمكنهم فعله، وهذه المرة عدا عن وحدات المروحيات ضمن قوات التحالف، نشر الجيش الأمريكي لوحده 1600 طائرة مروحية بأنواع مختلفة في الخليج، وكانت هذه المجموعات الغفيرة من المروحيات كافية لتشكيل جيش كامل من المروحيات. لكن الأمريكيين الذين لطالما تباهوا بروح المبادرة لديهم لم يتحلَّوا بالإبداع على الإطلاق، وإنما فعلوا مثل ما فعل الفرنسيون الذين شتتوا دباباتهم في الحرب العالمية الثانية مما جعلها هدفاً سهلاً للمشاة، جعل الأمريكيون المروحيات تعمل كقوة مرافقة للوحدات المدرعة والميكانيكية والقوات الأخرى. ولحسن الحظ المروحيات التي أسست سمعتها في هذه الحرب، لم تسمح لهذا بأن يُطمَسَ دورها الرئيسي. كان الأمريكيون يفتخرون بالباتريوت وطائرة إف 117 وصواريخ توماهوك ونجوم المعركة الأخرى على قناة سي إن إن، بينما أداروا للمروحيات ظهر المجن (باستثناء الأباتشي التي كانت نوعاً محبباً واسماً ناجحاً كعلامة تجارية). وبخلاف "التقرير النهائي للكونجرس" الذي كتبته وزارة الدفاع بعد

---

1 وفقاً لتنبؤات الروس والمتخصصين العسكريين الغربيين «اليوم، مدة حياة الدبابة كهدف فردي في ساحة المعركة لا تتعدى 3-2 دقائق، ومدة حياتها في منطقة مفتوحة كجزء من سرية /كتيبة تمتد إلى ما بين 50-30 دقيقة»، ورغم هذه التقديرات التي توصل إليها الخبراء لاتزال الدبابات في معظم البلدان هي السلاح الرئيسي. وفي مقال بعنوان «مستقبل حرب المدرعات» قال رالف بيتر : «لطالما أراد الناس الدبابة الطائرة، لكن عندما يأخذ المرء في الاعتبار الاستخدام العقلاني للوقود والعوامل الفيزيائية والنفسية أثناء المعركة، نجد أن المستقبل ما يزال بحاجة للمنظومات البرية، وعند رؤية الحوامات الهجومية تمثِّل تركيزاً للمزايا المتنوعة التي تصورناها للدبابة الطائرة، نعتقد أن الحوامات الهجومية يمكنها تكميل المدرعات لكن ليس أن تحل محلهم».

الحرب، قلة من الناس فقط تتذكر أن المروحيات وليس الأسلحة الأخرى هي التي حققت أفضل أداء في "عاصفة الصحراء". في العشرين دقيقة التي سبقت القصف المتواصل الذي استمر ما يزيد على شهر، وجاءت بعدها الجولة البرية التي استمرت لعدة ساعات فقط، استخدمت المروحيات من نوع MH-53J و AH-64 صواريخ من نوع هيل فاير لتدمير رادارات الانذار المبكر العراقية بداية المعركة، مما فتح مجالاً آمناً لأسراب القاذفات ويُثبِتُ هذا قدرات الاختراق غير المسبوقة للمروحيات. بما أن الطيران هو أكثر الأسلحة مرونة في ساحة المعركة، فقد تولَّت المروحيات تنفيذ كثير من أعمال الإمداد والإخلاء الطبي، والبحث والإنقاذ، والاستطلاع في ميدان المعركة، ومهام مكافحة الاستطلاع الالكتروني إلخ. وخلال معركة الخفجي، القوة الرئيسية التي استطلعت الهجوم العراقي سريعاً وردّت الجيش العراقي في النهاية على أعقابه كانت من المروحيات أيضاً. وخلال الحرب كان الشيء الذي ترك انطباعاً حقيقياً وأثبت الإمكانات الحقيقية للمروحيات هو "العملية كوبرا"، حيث استخدمت الفرقة 101 [المحمولة جواً] ما يزيد على 300 مروحية لتنفيذ أطول عملية واحدة طويلة "قفزة ضفدع" في التاريخ العسكري، بإنشاء قاعدة عمليات "كوبرا" أمامية بعمق 100 كيلومتر داخل العراق. وبالتالي فقد اعتمدوا على هذه القاعدة في طريق الهروب الوحيد أمام الجيش العراقي المبعثر وراء وادي نهر الفرات، إضافة إلى اعتراض القوات العراقية الهاربة على امتداد طريق سد الحمال. كان هذا بالتأكيد أعمق عملية مهمة تكتيكياً في الحرب البرية. حيث كانت بمثابة إعلان أنه من الآن وصاعداً أن المروحيات قادرة لوحدها على تنفيذ عمليات على نطاق واسع بكفاءة عالية. وعندما فرّت جموع الجنود العراقيين من التحصينات التي دمَّرتها المروحيات وخضعوا تماماً مستجدين الاستسلام، جمَّعتهم المروحيات أيضاً كما تُجمَع الأغنام في السهول، واصطدم الرأي السائد بأن "المشاة فقط هم من يستطيع حسم المعركة" بعنف بـ "رعاة البقر الطائرين" الأمريكيين هؤلاء. رغم أن النيَّة الأوَّليَّة لعملية قفزة الضفدع بالمروحيات لم تكن سوى تأمين الدعم للوحدات المُدَرَّعَة التي كانت ستتولى تنفيذ الهجوم الرئيسي، لكن النجاح غير المتوقع لوحدات المروحيات غيّر مسار الخطة وفقاً للتطورات في موقف المعركة.

وبسبب هذا اضطر شوارزكوف لإصدار أمر للفيلق السابع ببدء الهجوم قبل 15 ساعة من الوقت المحدد، وكانت قوات الفيلق السابع تحت قيادة الجنرال فرانكس في الصحراء أسرع من قوات الجنرال جودريان الذي حاز شهرته في ذاك الوقت عن إطلاقه حرب "بلتزبيرغ"، إلا أن فرانكس لم يكسب سمعة الحرب الخاطفة "بلتزبيرغ" المجيدة التي كسبها غودريان من الجيل السابق، بل إنه وُبّخ "لتقدُّمِه البطيء خطوة خطوة مثل المرأة العجوز". وبعد الحرب فنَّد الجنرال فرانكس الانتقادات التي وصلته من مقر القيادة المشتركة في الرياض، محتجّاً بأن القوات العراقية كانت ما تزال تملك قدرات قتالية[1]. وفي الحقيقة لم يستطع أولئك الذين وجّهوا الانتقادات ولا أولئك الذين فنّدوها فهم جوهر المشكلة، فالسبب في انتقاد حركيّة الدبابات تحت قيادة الجنرال فرانكس كان بالتحديد مقارنتها بالمروحيات. ولحد اليوم لم تحدث أي واقعة تثبت أن أي نوع من الدبابات بوسعه مجاراة المروحيات في سرعتها القتالية.

وفي الحقيقة فهذا لا يتعلق بالحركية فحسب، إذ إن "ملوك الحرب البرية"؛ الدبابات تلقى تحديات من المروحيات على جميع الأصعدة، فبالمقارنة مع الدبابات التي يجب أن تعمل باستمرار على التغلب على مُعَامِل الاحتكاك بالأرض، تعمل المروحيات على ارتفاع لا يقل عن ارتفاع شجرة، وبالتالي لا تتأثر بأي معوقات من سطح الأرض، وحركيتها الممتازة كافية لتغطية عيب افتقارها للتدريع الثقيل. وكذلك الأمر عند المقارنة بينهم كمنصّات لإطلاق النار، فالقوة النارية للمروحيات لا تقلُّ أبداً عن نظيرتها في الدبابات، ويؤدي هذا إلى أكبر مشكلة تواجهها الدبابات منذ أن اعتلت عرش الحرب. الأقسى من هذا بالنسبة للدبابات هو الطاقة المطلوبة لتنظيم مجموعة دبابات هجومية ضخمة (نقل عدد معين من الدبابات إلى منطقة العمليات فقط يُعتَبَر مهمة شاقة للغاية) والمخاطر التي يواجهها المرء (عندما تحتشد الدبابات، تكون معرّضة بشكل كبير لضربات العدو الاستباقية)، لذا فلا مميزات حقيقية يمكن التحدث عنها عند مقارنتها بالمروحيات، فالمروحيات أفضل

1 نحو العاصفة: دراسة في القيادة، هو كتاب الجنرال فرانكس الذي كتبه عقِب تقاعده. ويذكر فيه أن السرعة التي عبر فيها الفيلق السابع الصحراء لم تكن خطأً، وأن انتقاد الرياض لم يكن له ما يبرره (انظر التايمز العسكرية، 18 آب سنة 1997).



عند الانتشار الواسع والضربات المركّزة، ويمكنها أن تحتشد لتخوض حرباً تقليدية أو تنتشر لتقاتل حرب العصابات، وفي الحقيقة، فالدبابات والمروحيات أعداء طبيعيون، لكن الأولى لا تقارن بالثانية، وحتى طائرة AH-1 كوبرا قديمة الطراز ناهيك عن مروحية AH-64 "صائدة الدبابات"، دمّرت ما يزيد عن 100 دبابة خلال حرب الخليج دون أن تتكبّد أي خسائر. وهكذا عند رؤية الإمكانات القتالية الفتّاكة للمروحيات، من سيستمر بالقول إن "أفضل سلاح لمواجهة الدبابات هو الدبابات"؟[1]

يمكننا الآن القول بثقة إن المروحيات هي الخليفة الحقيقي للدبابات. وهذا النجم الجديد الذي تصاعد تدريجياً من بين أمواج الخليج، يمر بعملية تحقيق التتويج من خلال الإنجازات الشهيرة خلال حرب الخليج، ولا شك في أنها مسألة وقت حتى تزيح المروحيات الدبابات عن ساحة المعركة, وربما لا يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يصبح شعار "كسب الأرض من الجو" بعيداً عن المبالغة، وحتى يصل مزيد من قادة القوات البرية إلى إجماع على هذه النقطة. كما أن المفاهيم الجديدة لـ "الجيش الطائر" و"الحرب البرية الطائرة" حيث تكون المروحية هي سلاح المعركة الرئيسي قد تصبح لغة قياسية عسكرية وتظهر في كل القواميس العسكرية.

عامل آخر يختبئ وراء النصر:

إذا تجاوزنا نقطة أن بوش بصفته القائد العام لصنوف القوات الثلاثة، كان بالتأكيد يعلم الوقت المحدد لبدء الهجوم، نجد أن العالم برمَّتِهِ رأى اللحظة الحقيقية التي اندلعت فيها الحرب على شاشة قناة سي إن إن تماماً مثل الرئيس الأمريكي. في عصر مشاركة المعلومات، لا يملك الرئيس فعلياً امتيازات أكثر بكثير من تلك التي يتمتع بها الإنسان العادي، وهذا من الفروق بين الحرب الحديثة والحروب في الماضي، حيث تصل التقارير عن التحوُّلات في الحرب في الوقت الحقيقي لحدوثها أو بعد هذا الوقت بفترة قصيرة جداً إلى برنامج جديد يمكن للمواطن العادي متابعته عبر

1 انظر «ملحق التقرير الأخير لوزارة الدفاع إلى الكونجرس»، الصفحة 522.

وسائل الإعلام، وبالتالي فقد باتت وسائل الإعلام جزءاً فورياً لا يتجزأ من الحرب، ولم يعد دور الإعلام نقل المعلومات الواردة من ساحة المعركة.

وبخلاف البث المباشر لمباريات كأس العالم لكرة القدم، فكل ما رآه الناس، هو ما أرادهم المراسلون أن يروه (المراسلون الـ 1300 الذين أُرسِلوا إلى الخطوط الأمامية كانوا جميعهم على دراية بـ "قواعد تنقيح الأخبار فيما يتعلق بتقارير حرب الخليج الإخبارية" التي أصدرها البنتاغون حديثاً، لذا فقد قيّد كل شخص من تلقاء نفسه بما يمكن أن ينقله أو لا ينقله) كما كان لا بد للأخبار من المرور عبر مكاتب الأخبار المشتركة التي أُقيمَت في الرياض والظهران. ربما تعلَّمَت كل من دوائر الجيش الأمريكي والإعلام الدرس مما جرى في حرب فيتنام حيث كان التضارب بين روايات الطرفين كبيراً، لكن في هذا الوقت تتعايش وكالات الأنباء والجيش كأحسن ما يكون. ويوجد صورة يمكن أن توضّح هذه النقطة جيداً، فمن بين ما يزيد على 1300 خبراً صدر طيلة فترة الحرب أُرسِل خمسة منها فقط إلى واشنطن للمراجعة، ومنها أربعة حصلت على القبول في غضون ساعات، بينما أُلغِيَ الخبر المتبقي من الوحدة الصحفية نفسها. بالجهود المتضافرة لمراسلي الأخبار، أثّر قادة الميدان بنجاح على بصر وسمع العالم بأسره، جاعلين الناس يرون كل ما يريدهم الجيش أن يروه، بينما لم يكن أي شخص يستطيع أن يرى أي شيء لا يريده الجيش الأمريكي. لقد تخلَّت الصحافة الأمريكية جميعها عن الحيادية التي كانت تتبجح بها، وانضمت بحماس للمعسكر المعادي للعراق إلى جانب الجيش الأمريكي وكأنها تؤدي عملا هزلياً متقناً من نوع الرجل المزدوج، حيث يكون فحوى نقلها للحرب واحداً، وهكذا شكل الإعلام والجيش الأمريكي حدي سيف في التحالف بخصوص الهجوم على العراق[1]. لم يمر وقت طويل بعد غزو العراق للكويت حتى ظهرت على عجل التقارير في وسائل الإعلام التي تتحدث عن القوات الأمريكية الهائلة التي تتدفق إلى العربية السعودية، مما تسبب بحالة من التوجُّس لدى القوات العراقية عند الحدود الكويتية السعودية جعلتها تستعد بصمت لعملية "متعثرة". وقبل بدء عاصفة الصحراء بيوم واحد

---

1 انظر «ملحق التقرير الأخير لوزارة الدفاع إلى الكونجرس»، الجزء19، «تقارير الأخبار».

دقت وسائل الإعلام الغربية طبول الحرب مجدداً وبثّت أنباء عبور حاملة طائرات أمريكية قناة السويس، مما أربك صدام حسين وجعله يصدِّق أن -مع الكارثة التي تلوح في الأفق- القوات الأمريكية لم تكمل انتشارها بعد. وكذلك الأمر بالنسبة لما سُمّيَت التقنيات الحديثة فلم يكن ليُنظَر إلى هذه التقنيات التي أُرسِلَت للاستخدام في حرب الخليج بعين التعظيم لولا البهرجة التي أسبغتها عليها وسائل الإعلام. وفي ما يزيد على 98 مؤتمراً صحافياً أُجري خلال الحرب من بدايتها وحتى نهايتها، رأى الناس صوراً تُظهِر كيف تخترق الصواريخ دقيقة التوجيه فتحات التهوية في المباني ثم تنفجر، وصواريخ باتريوت تعترض صواريخ سكود، والعديد من اللقطات الأخرى التي تركت انطباعات عميقة. كل هذه الأمور قدّمت صدمة بصرية عنيفة للعالم بأسره، بمن فيهم العراقيون، ومن هنا ظهرت الأسطورة عن القوة غير العادية للأسلحة الأمريكية الصنع، ومن هنا تشكّل الاعتقاد بأن "العراق مهزوم لا محالة، وأن الولايات المتحدة منتصرة لا محالة". لا شك أن وسائل الإعلام قد ساعدت الأمريكيين بشكل كبير، حيث يمكن القول أيضاً أن الجيش الأمريكي والإعلام الغربي -عن قصد أو غير قصد- تعاضدا لتضييق الخناق على العراق في عهد صدام. وفي "مخطط العمليات" التي راجعها الأمريكيون بعد الحرب، حاول الأمريكيون بصعوبة أن يطرحوا فكرة أن" قوة التقارير الإعلامية كانت قادرة على التأثير الدرامي في الاتجاه الاستراتيجي وعلى حجم العمليات العسكرية"، بينما مسودة الكُتيِّب الميداني المُحدّث بعد الحرب FM100-6 (العمليات المعلوماتية) يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك في استخدام مثال الحرب الإعلامية أثناء حرب الخليج. وسيظهر أنه في جميع حروب المستقبل، وبالإضافة للطريقة الأساسية للضربات العسكرية، فإن قوة الإعلام ستصبح باستمرار عاملاً آخر في الحرب وستلعب دوراً موازياً للضربات العسكرية في توجيه مسار الحرب.

الإعلام يختلف عن البروبوغاندا في ساحة المعركة، التي تكون تتسم بأنها شخصية إلى حد كبير ولا يصدقها أفراد العدو والعناصر المحايدة بسهولة، أما الإعلام فتكسوه بذكاء طبقة من الموضوعية التي تسمح له بممارسة تأثير يصعب قياسه. في

الخليج، حرمت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة العراق من حقه في التحدث عسكرياً، وحرمته وسائل الإعلام الغربية القوية سياسياً من حقه في التحدث -ليدافع عن نفسه- وحتى من حقه في نيل التعاطف والدعم، ومقارنة بالصوت الضعيف للبروبوغاندا العراقية، التي رسمت صورة لبوش على أنه "الشيطان الأكبر" والشرير الذي لا يُرجى خلاصه، كانت صورة صدام كمعتدٍ مولع بالحرب تؤدي دوراً أكثر إقناعاً، وكانت بالضبط تماهي قوة الإعلام مع القوة العسكرية هو ما وجّه للعراق ضربة قاسية عسكرياً ومعنوياً، مما جرّه في النهاية إلى الهزيمة.

ومع هذا يبقى سلاح الإعلام على الدوام سلاحاً ذا حدين، مما يعني طالما أنه موجه للعدو، يمكن في ذات الوقت من ناحية أخرى أن يكون سيفاً قاطعاً موجهاً إلى حامله نفسه. بناءً على معلومات أُفرِج عنها بعد الحرب، فالسبب وراء توقف الحرب البرية بعد انطلاقها بمئة ساعة كان بسبب بوش، الذي تأثَّر بتقييمات متسرِّعَة للحرب أطلقها على التلفزيون ضابط ميداني من ساحة المعركة، ولاحقاً اتّخذ قراراً متسرعاً آخر: "التقليص الكبير للوقت المخصص لاتخاذ القرار الاستراتيجي بإنهاء الحرب"[1]. ونتيجة لهذا نجا صدام الذي كانت أيامه معدودة من الموت المحقق، كما أدت هذه المعلومات إلى سلسلة من العمليات تحت مسمى "رعد الصحراء" التي كانت فشلاً كاملا لكلينتون، الذي تولى السلطة بعد بوش. يتزايد تأثير الإعلام على الحرب انتشاراً وتوجيهاً، إلى درجة أنه حتى القرارات الرئيسية التي يتخذها رئيس قوة عظمى مثل تلك من قبيل وقف الأعمال العدوانية تمتد جذورها عميقاً إلى التفاعلات التي يثيرها برنامج تلفزيوني واحد. ولهذا يمكن للمرء أن يتصوَّر الأهمية التي يحملها الإعلام في الحياة الاجتماعية اليوم. ويمكن للمرء أن يقول مباشرة ودون أي مبالغة أن الملك غير المتوّج (الإعلام) بات اليوم قوة رئيسية لكسب أي معركة. بعد أن اكتسحت "عاصفة الصحراء" الخليج لم يعد ممكناً الاعتماد على القوة العسكرية فقط دون إشراك الإعلام لإحراز النصر في الحرب.

1 كرّاس الميدان، عمليات المعلومات، تكشف تفاصيل عن هذا الحدث الدرامي (انظر الصفحات 69-68)، تقارير الأخبار التلفزيونية على «طريق الموت السريع» تأثير على الإنهاء السريع للحرب (مجلة القوة الجوية التي تصدر كل ثلاثة شهور، أعداد خريف شتاء 1998-1997).

تفاحة بأقسام كثيرة:[1]

كما أن الحرب التي تتسم بالتكامل مع التكنولوجيا أنهت الحقبة القديمة وافتتحت حقبة جديدة، فعاصفة الصحراء هي حرب كلاسيكية يمكنها إلهام جميع الجيوش في كافة البلدان. أي شخص يهتم بالقضايا العسكرية بوسعه حتماً استخلاص بعض العِبَر والدروس من هذه الحرب، بغضِّ النظر عن الجانب الذي يركِّز عليه من الحرب. وبناءً على هذا، سنُطلِق على هذه الحرب اصطلاحاً -مع أن لها العديد من المعاني حسب التجارب والدروس- تفاحة متعددة الأقسام. فكما أن الرؤى المقطعية لهذه التفاحة لا تقتصر أبداً على أولئك الذين تحدثنا عنهم من قبل، من الضروري للمرء أن يقاربها بعقل متَّقِد الذكاء ليحصل على رؤية مقطعية غير متوقعة تظهر أمام عينيه في أية لحظة:

عندما تحدَّث الرئيس بوش بحُرقَةِ المؤمنين للولايات المتحدة والعالم بأكمله عن المسؤولية الأخلاقية الملقاة على عاتقهم اتجاه الكويت، لم يكن بوسع أي خبير اقتصادي التنبؤ بأنه لتأمين النفقات العسكرية لهذه الحرب كان على الولايات المتحدة أن تطرح برنامج "المسؤولية المشتركة" النموذجي أ-أ، وبموجبه تطلق صيغة جديدة لمشاركة نفقات الحرب الدولية؛ نقاتل معاً ونقتسم الفاتورة، حتى وإن لم تكن رجل أعمال، يجب أن يعجبك هذا النوع من روح وول ستريت[2].

---

1 نورس: تشبيه الحرب بالتفاحة لأن لها مجالات عديدة مثل تفاحة مختلفة الشرائح لكل شريحة طعم مختلف حتى ولو كان قريباً من النكهات الأخرى، لكن لا يمكن أكل التفاحة أو قضمها دون أكل عدة شرائح وبالتالي امتزاج عدة نكهات في نفس الوقت، والحرب كذلك لا يمكن فهم كل جز بمعزل عن الأجزاء الأخرى، بل يجب فهمها بشكل كلي.

2 القسم 16 من «ملحق التقرير الأخير لوزارة الدفاع إلى الكونجرس» فيه مناقشة خاصة لقضية «المسؤوليات المشتركة»، على عكس معتقدات الجنرال، فالسبب الرئيسي الذي يجعل الولايات المتحدة تُشرِك حلفاءها في تكاليف الحرب ليس العامل الاقتصادي بقدر ما هو الاعتبارات السياسية. لقد لاحظ ليستر ثورو أنه في منافسات القرن الحادي والعشرين أنه بالنسبة لـ 61 مليار دولار التي كانت كلفة الحرب، «بالمقارنة مع الدخل القومي الذي يصل إلى ستة تريليونات دولار، فهذا التكلفة تكاد لا تُذكَر. والسبب في أنهم أرادوا هذه الدول التي لم ترسل عناصر قتالية الحرب واكتفت بتقديم العون المادي كان بالكامل لإقناع عامة الأمريكيين أن الحرب لم تكن حرباً أمريكية فقط، بل كانت عملية مشتركة».

الحرب النفسية بالتأكيد ليست تكتيكاً جديداً، لكن الجديد في الحرب النفسية في "عاصفة الصحراء" هو الإبداعية فيها. بعد إلقاء قنبلة شديدة التدمير، تلقي الطائرات المنشورات الورقية، التي تهدد الجنود البعيدين عن قواتها عدة كيلومترات فترتعد فرائصهم من احتمال أن تسقط القنبلة التالية فوق رؤوسهم، وكانت هذه الخطوة كفيلة لوحدها بالتسبب بانهيار الوحدات العراقية التي كانت منظَّمة بشكل فرق. وفي معسكر أسرى الحرب، اعترف قائد فرقة عراقي بأن تأثير الحرب النفسية على معنويات العراقية تأتي في المرتبة الثانية بعد قصف قوات الحلفاء[1].

عندما بدأت الحرب كان الأمريكيون ينظرون إلى طائرة A-10 على أنها طائرة هجوم بري عفا عليها الزمن، لكن بعد تشكيل ما سُمِّي "التحالف القاتل" مع مروحية الأباتشي، لإبادة الدبابات العراقية على نطاق واسع توقفت عملية إحالتها إلى التقاعد، بل إنها وصلت إلى مرحلة باتت فيها إحدى النجوم الباهرة في سماء الخليج. بتكامل سلاح كان بعيداً كل البعد عن التطور مع الأسلحة الأخرى تتحقق المعجزة الحقيقية من هذا القبيل، وتصميم واستخدام هذه الأسلحة يمكن أن يشكِّل إلهاماً تعجز الكلمات عن التعبير عنه.

فيما يتعلق بالجنرال مكبيك التي تولى على عجل رئاسة أركان القوة الجوية قبل فترة قصيرة جداً من بدء الحرب، حدثت القضمة التي قضمها من هذه التفاحة خلال الحرب عندما تمكّن من تحقيق حلمه بكسر الحاجز بين القوات الجوية الاستراتيجية والتكتيكية وتكوين أجنحة قوة جوية مختلطة، إضافة إلى استخدامه مقاربة "اطرح سبعة وأضف أربعة بعد الحرب لإحداث أكبر إصلاح في بنية قيادة القوة الجوية في تاريخها". وهكذا بعد إلغاء سبع قيادات جوية، وهي: الاستراتيجية والتكتيكية والنقل واللوجستيك والمنظومات والاتصالات وقيادة التأمين، نظّمهم

---

1 في مجلة العمليات الخاصة، يبيّن الرائد جاك سام ظروف الحرب النفسية التي أجرتها مجموعة الحرب النفسية الرابعة خلال حرب الخليج (انظر العمليات الخاصة، تشرين الأول سنة 1992). في عدد شهر كانون الأول سنة 1991 من مجلة الشؤون العسكرية في شرق أوروبا والشرق الأوسط نُشِرَ مقال مخصص للحرب النفسية خلال حرب الخليج.

في أربع فقط هي: القتال والحركية والمواد والقيادة المخابراتية[1]، من الصعب تخيل كيف أخذ زملاء الجنرال مكبيك مثل هذه الابتكار الجريء إلى حرب الخليج[2]، لكن مع ذلك، فأولئك الذين ينتمون إلينا ولم يخوضوا حرب الخليج ليس لديهم سبيل للاستفادة من العِبَر والدروس منها الخ الخ.

إن مضينا وراء هذا إلى أقصى مدى، سنرى أن هنالك جوانب أخرى لهذه التفاحة، لكن ليست جميعها أبداً مما يمكن شرحه أو تعميمه في أي مكان. وإحقاقاً للحق فالعيوب والجوانب المثيرة للجدل في هذه التفاحة تساوي تقريباً عدد نقاط القوة فيها، لكن مع هذا فلا يمكننا تحت أي ظرف التعامل معها ولو بالحد الأدنى من الازدراء. رغم أن هذه الحرب ترتب عليها آثار كثيرة جداً، إلا أنه لا يمكن التعامل معها كموسوعة للحرب الحديثة، فعلى الأقل هي لا تقدم لنا إجابات جاهزة فيما يتعلق بحروب المستقبل، رغم أنها بعد كل شيء تقدِّم الاستخدام الأكثر تركيزاً لعدد كبير من الأسلحة الحديثة والمتقدِّمَة منذ ظهورها، إضافة إلى البيئة الاختبارية للأسلحة الثورية التي أثارها هذا، وهذه النقطة كافية لتُكسِبَها مكانة كلاسيكية في تاريخ الحرب، إضافة إلى تأمينها نُسُغاً مُغذِّيَاً جداً لبراعم أفكارنا.

1 خصص رئيس أركان القوات الجوية استخدام «الأجنحة المختلطة» المكونة من أنواع عديدة من الطائرات لاستبدال الأجنحة المخصصة لنوع واحد فقط من الطائرات. وقال: «إن كان يجب علينا أن نفعل شيئاً آخر في العربية السعودية اليوم، فلن نستخدم الأجنحة المخصصة لطائرات إف 16، بل جناح مصنوع لبعض الطائرات الهجومية، ومقاتلات الدفاع الجوي، وطائرات التشويش التي تطير خارج منطقة الدفاع الجوي، «ابن عرس البري»، وطائرات التزود بالوقود.... إلخ. ربما يُستخدم هذا التكتيك عندما يندلع الصراع في منطقة ما في العالم (مجلة القوة الجوية الأمريكية، شباط 1991).

2 يتمسَّك سكرتير القوة الجوية دونالد رايس بأن «حرب الخليج قد فسَّرت هذه النقطة (التجربة) على نطاق واسع: القوى الجوية يمكنها تحقيق مساهمة هائلة خلال التخطيط الموحَّد والمتكامل لتنفيذ الأعمال القتالية. الجنرال ميشيل لو، قائد العمليات الجوية التكتيكية، شرح أن: «استخدام مصطلحات عديدة مثل «الاستراتيجية» و«التكتيك» لحصر أنواع ومهام الطائرات تعيق جهود تطوير القوى الجوية، وعند هذه النقطة، يجب علينا أن نجري إصلاحات بنيوية وتنظيمية» (انظر كراس القوة الجوية نظريات الطيران الرئيسية للقوة الجوية الأمريكية، الصفحة 329، الحاشية 8). نائب رئيس فريق البرامج والعمليات جيني آدامز، يعتقد أن الدرس الذي يجب فهمه من حرب الخليج هو «تعديل، وليسم مراجعة، تشريعاتنا القتالية». نائب رئيس أركان القوة الجوية الأمريكية للدعم اللوجستي والتقني هنري ويجيليو، تطرق هو الآخر لتنفيذ إصلاحات لتقليص نقاط الضعف في دعم المواقع. انظر مجلة جانيس الدفاعية الأسبوعية، التاسع من آذار 1991.



الفصل الرابع:

ماذا يستفيد الأمريكيون من تلمُّس الفيل[1]؟

"القتال الجوي كان العامل الحاسم في الانتصار في الحرب على العراق... واستُخدِمَت فيه أسلحة الدقة العالية بفعالية كبيرة، ولم تكن هذه الأسلحة السبب في تفوق القوات الجوية والبرية في القتال فحسب، بل كانت أيضاً السبب الرئيسي في تقليل خسائر قوات التحالف البشرية إلى الحد الأدنى"

إل آسبن

كانت حرب الخليج أكبر حرب عسكرية يخوضها جيش الولايات المتحدة في العقود القليلة الماضية، وحالما وضعت الحرب أوزارها، بدأ الجيش الأمريكي وأعضاء في الكونغرس والعديد من المنظمات المدنيَّة تنفيذ مراجعات مفصّلة لهذه المعركة من نواحٍ مختلفة. ومن كل التقارير التي سلَّموها وكل الخطوات التي اتخذها الجيش الأمريكي بناءً على هذه التقارير، يمكن رؤية النتائج الكبيرة لهذه المراجعة. كما تُعتبَر هذه الإنجازات عظيمة الأهمية لأفراد الجيوش والعسكريين في العالم كله، ويجب أن يقرؤوها بلا أدنى تأخير. النزعات القومية لدى الأمريكيين -التي تعجبني للغاية- تظهر على وجه الخصوص في الطائفية المتفشية بين صنوف القوات الأمريكية، وتؤدي المناطق العمياء نظرياً إلى حدوث أخطاء في عملية البحث والتقصي، لدرجة أن التحقيق في حرب كبرى تَحَوَّلَ إلى رجل أعمى يحاول قياس حجم فيل. هذا موضوع يتطلب منا إعادة تقصٍّ واضحة ولا

---

1 نورس: العميان والفيل blind men and an elephant، هو أمثولة تنحدر من شبه القارة الهندية، حيث ينتشر استخدامها على نطاق واسع. وتروي الأمثولة قصة مجموعة من الرجال العميان، لم يسبق لهم تصور الفيل رغم سماعهم الكثير عن ضخامته، ويحاولون تعلم وتصور ماهية الفيل وكيف يبدو شكله عن طريق لمسه. يتحسس كل أعمى جزءاً مختلفاً من جسد الفيل، لكنه جزء واحد فقط، حيث يلمس أحدهم قدمه، والآخر خرطومه. بعدها يبدأ العميان بوصف الفيل بناءاً على خبرتهم في لمس جزء من جسده وفي النهاية يصف كل منهم الفيل بطريقة مخالفة لوصف الآخرين. في بعض الروايات يشتبه أحدهم في أن الآخر غير صادق أو أنه يهزأ بهم. العبرة من هذه الأمثولة هي أن البشر لديهم ميول لعرض خبراتهم الجزئية على أنها الحقيقة الكاملة، متجاهلين الخبرات الجزئية للبشر الآخرين، وأنه يجب على الشخص أن يعي أنه قد يكون على صواب جزئياً وأن معلوماته يمكن أن تكون غير كاملة.

ترجع أولى روايات القصة إلى النص البوذي أودانا 6.4، في منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد تقريباً. تبعاً لجون آيرلند، فمن المرجح أن يكون المثل أقدم من النص البوذي.



يجب أن تُعامَل كعذر لإنكار قيمته، لكن ما الذي يريد الأمريكيون -في نهاية الأمر- أن يشعروا به اتجاه هذا الوحش الكبير؟ فلنلقِ أولاً نظرة عليه.

اليد الممتدة تحت السور العسكري (كل صنف من صنوف القوات يرى الحرب بطريقة مختلفة)

السور المنتصب بين الجيش الأمريكي والبحرية منذ زمن الحرب الأهلية الأمريكية، لم يَزُل بنشوء القوة الأمريكية الجوية، ليس هذا فحسب بل إن هذا السور بات يفصل بين صنوف الجيش الثلاث[1] . وبات المرض التاريخي المزمن الذي يؤرِّق الرئيس والبنتاغون، برغم "نهج إعادة التنظيم" الفعّال خلال حرب الخليج، التي لم تكن طريقة ذكية للوصول إلى جذر المشكلة مع أنها كانت إجراءً مناسباً للوصول إلى حل مؤقت في ضوء هذا العائق غير المرئي. حالما سوِّيت الأمور وعادت القوات إلى أوطانها انغلقت الأبواب كما كانت من قبل ومضى كلٌّ في طريقه، رغم أن الضباط ذوي الرتب العالية لقادة صنوف القوات الثلاثة بالتأكيد ليسوا جيلاً متوسطاً من القادة الأغبياء المتخشبي التفكير. المسار والنتيجة المتوقعة من حرب الخليج صدمت العالم بأسره مثلما صدمت بعنف صانعي سياسات "عاصفة الصحراء". ومشاعر الذهول من فقدان عدو بعد تفكك الاتحاد السوفياتي إلى جانب الدافع المتجدد لوضع الولايات المتحدة في مقدمة النظام العالمي الجديد جعل هؤلاء القادة يدركون بوضوح ضرورة إصلاح القوات المسلحة حتى إن لم تتوفر لديهم النيات بعد للتخلي عن انحيازاتهم. يمكننا أن نرى من اللوائح العسكرية المتعاقبة في التسعينات أن هذه اللوائح قد وُضِعت بلا شك على أساس الخبرات الحديثة والدروس المستفادة من حرب الخليج. ومثل مقولة "بعيون آلاف الناس يوجد آلاف الرؤى" فما كشفت عنه عيون فروع القوات الأمريكية الثلاث كانت ثلاث حروب خليج مختلفة، في هذه الحرب التي لم تكن فقط آخر الحروب في الأزمان القديمة، بل استهلّت أيضاً حروب العصور الحديثة، تمسَّك كل من الصنوف الثلاثة بحججه وبذل كل جهد ممكن ليجد الدليل الأفضل من منظور صنفه، بالكاد مدركين أن اليد الممدودة من خلف الجدار العسكري ربما لا تصنع رؤوساً أو أذناباً لفيل ضخم مثل حرب الخليج.

---

1 نورس: البرية والبحرية والجوية.

الجنرال سوليفن شعر بما يمكن أن يكون ساق فيل مرنة، وهكذا بعيون هذا الضابط -الذي كان أثناء حرب الخليج مساعد رئيس الأركان، ثم أصبح رئيس الأركان بعد الحرب بشهور قليلة- لم يكن أداء الجيش الأمريكي خلال عاصفة الصحراء عاديّاً، ولكن بلا شك لا يمكننا أن نصفه بالرائع. وخصوصاً عند مقارنة ثمانية وثلاثين يوماً من القصف الغاشم والعشوائي الذي نفَّذته القوة الجوية، بأربعة أيام من التقدم الكاسح بلا مقاومة للقوات البرية نجد أن القوات البرية لا يمكنها أن تتمتع بالمجد الذي طال انتظاره. بالنسبة لشخص يعرف كل شاردة وواردة فيما يتعلق بالجيش، فقد فهم أكثر من أي شخص آخر أين يتواجد جوهر هذه الصنوف القديمة قِدَم القوات المسلّحة في هذه الحرب التي تشكِّل نقطة تحوُّل. رغم أن هيبة الجيش الأمريكي كانت في ذروتها عندما اتَّخَذَ موقعه في "عاصفة الصحراء"، فقد تحوَّل إلى جيش أقوى إذ لم يعد له أي منافس بعد انحدار الجيش السوفياتي وافتضاح الحقائق. كان لا يزال ينقل ببعد النَظَر عن هواجس يتوقعها لعامة الناس. وكان هاجسه الأكبر هو أن البنية العسكرية وقد استرخت بعد التوتر خلال الحرب الباردة قد تظهر عليها أعراض الشيخوخة، والسياسيون المتحمِّسون لاقتسام غنائم السلام قد يجعلون جيشه غير قادر على اجتياز عتبة القرن الحادي والعشرين والاحتفاظ بموقعه القيادي بين جيوش العالم بداية الألفية الجديدة. وكانت الطريقة الوحيدة لإعادة إحيائه هي ابتلاع بعض الدواء القوي جداً وتنفيذ إعادة تشكيل كاملة له. ولهذه النهاية طوّر خططاً مؤقتة لبناء "جيش القرن الحادي والعشرين" بشكل جديد تماماً بحيث يتمكن الجيش الأمريكي من إعادة تصميم نفسه في كل جزء منه من رأسه وحتى أخمص قدميه ومن الخنادق حتى المصانع[1].

---

1 كتب سوليفان جيش القرن الحادي والعشرين، منذ أن تولى منصبه حتى بعد تركه، وكان على الدوام متحمساً بشأن هذه القضية. وعلى الرغم من أن العديد من أفراد الجيش الأمريكي وجيوش دول أخرى ساووا بين جيش القرن الحادي والعشرين والقوة الرقمية، إلا أن سوليفان لم يرى الأمر على هذه الشاكلة، كما يعتقد أن على الجيش الأمريكي أن يعزز باستمرار إصلاحات «التكامل»، وأنه يجب التعامل مع جيش القرن الحادي والعشرين على أنه «موقف واتجاه» وليس خطة نهائية، وأن التكامل ضمن في جيش القرن الحادي والعشرين يشمل بعضاً من هذه الاعتبارات مثل نظرية المعركة وعملية التنظيم والتدريب وتطوير ضباط القيادة وقضايا الأفراد والعتاد، والمرافق الأساسية...إلخ. ووفقاً للنظرية العامة التي يتبناها الجيش الأمريكي حالياً فإن قوة القرن الحادي والعشرين هي قوة الجيش التي تجري تجارب العمليات والبحوث النظرية وخطط شراء المعدات لتمكين القوات القتالية البرية من التعامل مع الاستعدادات لتنفيذ المهام من الآن حتى العام 2010.

وللحد بأقصى ما يمكن من انتشار تأثير الممارسات البيروقراطية السيئة على مختلف المستويات التنظيمية، بدأ أولاً بتأسيس "قوة مهام لويزيانا" وقوامها 1100 رجل تحت قيادته المباشرة، وطبّق فيها الخبرات والدروس المستقاة من حرب الخليج لتكوين قوته الخاصة التي يُشار إليها عادة باسم "القوة الرقمية". كما استفاد من قدراتها العالية على المناورة الذكية لإيصال الجيش إلى حرب المعلومات، حاثّاً الخطى نحو صدارة القوات المسلحة، وبالتالي متجهاً بالجيش في طريق الابتكارات الجريئة إضافة إلى التوقعات المستقبلية الصعبة. وخلال العملية بأكملها، الشيء الذي لم يوضِّحه هو أنه رغم تنفيذه إصلاحا جذّاباً تماماً مثل هذا، بقيت رواسب الدوافع الأنانية للقوات المسلحة كامنة ضمن حجم الإنفاق العسكري الذي انكمش خلال العقود القليلة الماضية، حيث كانت حصة الجيش (القوات البرية) أكبر من حصص صنوف القوات الأخرى. وعرف خليفة سوليفان الجنرال ريمر هو الآخر هذا المسار جيداً وزاد من هذه الإصلاحات على أساس المخططات التي وضعها سلفه[1]. الكل يعرف الكلفة الهائلة لتشكيل القوة الرقمية، لكن ما جعل هذا أكثر دهاءً من جهة سوليفان وريمر هو أن إنفاق مزيد من المال كان في اتجاه كسب مزيد من المال. من "جيش القرن الحادي والعشرين" إلى "جيش ما بعد 2010" ثم "جيش المستقبل" اتخذوا خطوتين لقفز ثلاث وَثَبَات سريعة متتالية. مستخدمين هدف التطوير المُقنِع إلى حد ما كَطُعم، واجتذاب الدعم من تلة الكابيتول[2] ومزيداً من الإنفاق العسكري لبناء الجيش، وبالنسبة لأولئك السياسيين الذين كانوا جاهلين تماماً بالقضايا العسكرية والذين لم يتمكنوا من استخلاص دروس وعِبَرٍ من النصر مثل الجنرالات، وغالباً ما خشوا أن يظهروا بمظهر الحمقى، لذا لم يجرؤ أياً منهم على وصف الشخص الذي قد يصبح الرئيس القادم بأنه يتصرف بشكل غير مسؤول،

---

1 قال جنرال دينيس ريمر «مفهوم جيش 2010 هو أيضاً الصلة النظرية بين جيش القرن الحادي والعشرين وجيش الغد، جيش القرن الحادي والعشرين هو الخطة التي ينفِّذها الجيش الآن... أم جيش الغد فهو خطة الجيش طويلة المدى وهي الآن قيد الدراسة.. والتنسيق المشترك بين الثلاثة حدد مجموعة كاملة من التغييرات المتواصلة والمنظَّمة، لضمان قدرة الجيش على التطور وفقاً لاتجاه منهجي (انظر تقرير مفهوم الجيش عام 2010 الصادر سنة 1997).

2 نورس: تُعتبر منطقة كابيتول هيل مقر الكونغرس الأمريكي، وتضمّ مبنى الكابيتول المقبب ومجلس الشيوخ ومجلس النواب والمحكمة الأمريكية العليا.

وفي الحقيقة، بغضِّ النظر عن الصخب الذي أثارته "القوة الرقمية"، فالوقت الذي سيُجري فيه أيٌّ شخصٍ جرد حساب نهائي على جدوى هذه الخطة ما يزال بعيداً. ما لا يقوله الآخرون هو أنه ما يزال ثمة طريقة قياسية حسب الجيش الأمريكي، فعند إدخال أي سلاح جديد يذهب طلب إدخال السلاح بشكل اقتراح من الجيش إلى التصنيع عبر القطاع الصناعي وبعدها يعود إلى الجيش لإجراء الاختبارات، في عملية قد تستغرق عشر سنوات. وعلى أي حال فالإيقاعان اللذان لا يمكن أن يعملا معاً هما "دورة الأشهر الثمانية عشر لتطوير أجهزة الحاسوب ودورة "الستين يوماً" لتقنيات الشبكة، مما يجعل من الصعب للغاية على "القوة الرقمية" أن تنهي تصميماً تقنياً وتؤسس قوة عسكرية، وبالتالي بات التغيير في التقنيات الجديدة مثل كرة مطاطية ترتد إليك كلما رميتها. في هذا الطريق المُرهِق في التعامل مع هذه الأشياء، ليست المشكلة في ضبابية المسار الذي يجب اتباعه فقط، بل في ضبابية المحاولة ونتيجتها[1]. وفي هذه النقطة فقط يكون ربط مصير قوة مسلحة برواج نوع معين من التكنولوجيا، خطةً جريئةً ذات سماتٍ رائدة، مما يجعل من الصعب في الحقيقة جعلها علامة الطريق الوحيدة التي توجّه تطوير جيش المستقبل. فضلاً عن أنه: من يجرؤ الآن على الجزم من أنه في حروب المستقبل لن يؤدي هذا الإنفاق الكبير إلى إنشاء خط ماجينو جديد وضعيف بسبب اعتماده الشديد على تقنية واحدة فقط؟[2]

وفيما يتعلق بالقوة الجوية، أُعفي الجنرال الصريح دوغان من منصبه، وَوَضع القوات الجوية تحت قيادة جنرال من القوات البرية خلال عملية "عاصفة الصحراء" بأكملها

1 التجديد التقني ظاهرة أسرع بكثير من التسليح، ويخفي في طياته فوارق أعمق: «فمن السهل على المتقدمين أن يتراجعوا»، (ربما لا تنطبق هذه النقطة على تطور صناعة الاتصالات والتغييرات في الحاسوب)، ربما يكون هذا هو الفارق الأصعب لدخول خط العسكرية الاحترافية وتكنولوجيا المعلومات على امتداد خطوط الصناعات الكبيرة. ولهذا السبب لدى الأمريكيين هذه الحساسية المفرطة إلى حد الهوس لانتشار كل التقنيات العسكرية العالية الجديدة وحتى التقنيات المدنية الجديدة.

2 كما يوجد العديد من الناس في الولايات المتحدة يسألون هذا السؤال، ويعتقد العقيد آلان كامبين أن «التبني المتسرع للتكتيكات الجديدة لا يفهمها الناس تماماً والتي لم تُختَبَر خطيرة، فمن الممكن جداً أن تتحول ثورة عسكرية مفيدة إلى مقامرة مع الأمن القومي (مجلة سيجنال يونايتد ستيتس، تموز 1995)

لم تمنع من أن تُصبِح الفائز الأكبر في حرب الخليج[1]. "التواجد العالمي، القوة العالمية" المبدأ الذي تأسس عليه الجيش، صمد للمرة الأولى أمام اختبار الحرب، وباتت القوة الجوية قوة يمكنها أن تنجح وحدها في هجوم استراتيجي ومهام معركة على أي جبهة، ولم يصل موقعها إلى التألق الذي وصلت إليه الآن من قبل أبداً[2]. وجعل هذا الجنرال المتعجرف مكبيك وخلفائه يعقدون العزم على المضي قدماً في هذا، فقد شعروا أن نصراً واحداً كافٍ للسماح لهم بتولي قيادة القوات المسلحة اعتباراً من هذه اللحظة. القوة الجوية التي تشكلت قبل خمسين سنة كقوة ملحقة بالجيش، لم يعد بوسع أحد تجاهلها، فقد نَمَت أجنحتها فجأة وهي تلمس الفيل في حرب الخليج. وحتى رئيس أركان القوى الجوية فوجلمان ورئيس أركان الجيش ريمر اللذان كانا متوافقين على المضي في حرب الخليج "فقد كان لدى فرعي الجيش هذين فهم عميق للعمليات العسكرية وقت الحرب في القرن الحادي والعشرين"، "وباتت العلاقات بين القوات البرية والقوة الجوية متوترة عندما حاول هذان الفرعان استنباط التفاصيل واستخدام الدروس المستفادة من حرب الخليج"[3]. والسبب بسيط جداً، فالقوة الجوية التي بدأت أجنحتها تنمو سريعاً وبقوة، والقوة البرية، التي اعتبرت نفسها السلطة الأولى على وجه البسيطة، لم ترغب أي منهما بتسليم الحق في السيطرة على القيادة العملياتية للأخرى. ويبدو أن لكل طرف مبرراته، لكن عند إمعان النظر في هذا الموقف نكتشف أنه كان صراعاً غير مفيد أبداً، والنتيجة هي أن كل اجتماع للقادة العسكريين لدراسة العمليات المشتركة أضحى مجرد اجتماع شكلي وأنهما لم يتبادلا كل الخبرات والدروس التي استَقَيَاها من حرب الخليج. يحتاج المرء فقط نظرة على الخلاصة الناجحة والقوانين التي أصدرتها القوّتان الجوية والبرية بعد انتهاء الحرب لفهم هذه النقطة.

1 رغم أن قيادة السرب الجوي للقوات المشتركة بقيادة الجنرال في سلاح الجو تشارلز هورنر كان يجب عليه أن يتلقى الأوامر من شوارزكوف، إلا أنه نال أكبر قدر من الشهرة خلال حرب الخليج.

2 الوصول العالمي، القوّة العالمية كانت الخطة الاستراتيجية للقوة الجوية الأمريكية بعد الحرب الباردة، التي نُشِرَت شهر حزيران بشكل ورقة تمهيدية، وبعدها بست شهور، تم اختبار المبدأ الأساسي والتأكد من صحته في حرب الخليج.

3 انظر مجلة جيش الولايات المتحدة، شهر كانون الأول 1996، «قوات الجيش والقوة الجوية المشتركة».

ما يجب علينا توضيحه هو أن ما فعلته القوة الجوية بعد الحرب لم يقتصر بالتأكيد على مزاحمة صنوف القوات المسلحة الأخرى على السلطة والغنائم، بل كان عمل القوة البريّة التي مثَّلت المكوِّن الرئيسي لعاصفة الصحراء هي حصد الثمار التي أينعتها حملات الهجوم الجوي الناجحة، فأُعِيد تنظيم كامل القوات الجوية القتالية في أجنحة مختلطة بالتوافق مع نماذج فعالة كانت موجودة بالفعل. واستُخدِمَت طريقة طرح سبعة وإضافة أربعة لإعادة تنظيم كاملة لآلية قيادة القوة الجوية بأكملها. وهم الآن في خضم اختبار لتشكيل قوة جوية استطلاعية يمكنها الوصول إلى أي منطقة حرب في العالم في غضون 48 ساعة والحفاظ على الجاهزية القتالية خلال أي أزمة عالمية أو صراع. وأثبتت القوة الجوية على الدوام حماسها الشديد للحرب الالكترونية وحرب المعلومات، وبادرت إلى تشكيل مركز لحرب المعلومات للقوة الجوية حتى قبل أن يؤسس سوليفان قوته الرقمية، وهذه الأعمال مرتبطة بشكل مباشر بنتائج حرب الخليج. لكن ما يدعو للأسف هو أن محاولة جيدة مثل هذه لم تكن كافية لكسر الحدود العسكرية مما أدى إلى بقاء الصرخة القديمة لـ "العمليات العسكرية المشتركة" مجرد شعار كما في السابق. لكن هذا كله لم يمنع جنرالات الولايات المتحدة من الاقتداء بزملائهم في الجيش واستخدام التغييرات الإيجابية ضمن القوات المسلحة والسعي الإيجابي خارج القوات المسلحة حيث يمكن تعزيز مصالح صنوف القوات التي ينتمون إليها. الجيش الراكد الذي ليس لديه خطط جديدة هو جيش لا يستطيع اعتصار الكثير من المال من أعضاء الكونجرس الذين يديرون مخصصات الأموال العسكرية. وفي هذا الصدد تملك القوة الجوية جدول الضرب الخاص بها[1]. ففي الصراع الكثيف للجيش على الميزانية، تبرز أنظمة أسلحة الرحلات الفضائية كورقة رابحة بيد القوة الجوية. مع أن نظام "حرب النجوم" الذي طوَّرهُ الرئيس ريغان بدا وكأنه خدعة في

1 سنة 1997 طرحت الولايات المتحدة مجدداً استراتيجية تطوير جديدة، المشاركة العالمية، خطة القوة الجوية للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين، «يمكن تلخيص خطتنا الاستراتيجية في جملة واحدة: القوة الجوية للولايات المتحدة ستكون القوة الجوية المتفوقة والقوة الفضائية في العالم... وستكون قوة عالمية تمكِّن الولايات المتحدة من الوصول إلى أي مكان، (انظر المشاركة العالمية، خطة القوة الجوية للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين

البداية، والرئيسان اللذان جاءا بعده لم يعملا على تطوير قدرات قتالية حقيقية، إلا أن حماس الأمريكيين لإنشاء قوة قتالية فضائية لم يخبو أبداً[1]، واعتماداً على الحماس سعى العديد من رؤساء أركان القوة الأمريكية الجوية للحصول على ما أمكن من التمويل العسكري لتمويل قوتهم. والله وحده يعلم ما إن كانت قوة الرحلات الجوية الأمريكية مثلما قال عنها الجنرال إيستس: "ما أثبتته قوات الرحلات الجوية في حرب الخليج أن لديها القدرة على العمل بشكل مستقل".

إن كانت النظرة إلى حرب الخليج على أنها فيل ضخم، يمكن القول إذاً إن مقدمة زعنفة البحرية الأمريكية بالكاد لامست جلد الفيل، وهو ما يعني أنها لم تلامس الفيل قط، ربما يكون هذا هو السبب في أن أكبر تحول تاريخي مؤلم للبحرية الأمريكية في النظرية الاستراتيجية بدأ من رحلة العودة إلى الوطن للبحارة المعتدِّين بأنفسهم والمتغطرسين الذين نزلوا عن أبراجهم العاجيّة بعد "حرب الخليج"، وتواصل هذا العذاب لسنة ونصف كانت فيها خياشم هؤلاء الرجال تنمو، وبعد هذا، تقدّم العديد من الضباط برتبة مقدم وعقيد بورقة بيضاء إلى قائد البحرية معنونة بـ طلب نقل "من البحر إلى البر"، من الواضح أن هذه الورقة انحرفت عن العقيدة ومُجمل اللوائح القديمة للقائد الروحي للبحرية الأمريكية ماهان. فلم تعد النظرة السائدة إلى المعارك الحاسمة في المحيط للسيطرة على البحار على أنها مهمة البحرية الدائمة والمقدسة والتي لا تتغير، بدلاً من ذلك ستكون مهمة

---

1 رغم أن الرئيس كلينتون كان قد أعلن خطة «حرب النجوم»، إلا أن الجيش الأمريكي في الحقيقة لم يتوسع في نشاطه إلى الفضاء. وتبيّن «المشاركة العالمية» مفهوم القوة الجوية في القرن الحادي والعشرين أن «الخطوة الأولى لهذا التغيير الثوري هي تحويل القوة الجوية الأمريكية إلى قوة فضائية، ومن ثم تغييرها لتصبح قوة جوية وفضائية. عواقب هذه التغييرات جسَّدَت الرؤى الجوهرية، قيادات القتال الفضائي تضع مزيداً من الضغوطات على وظيفة القوات الجوية المقاتلة (انظر إلى القوات الجوية الأمريكية المقاتلة ونظرية القتال الجوية الموحَّدَة). في شهر نيسان سنة 1998 أصدرت قيادة القوة الفضائية المقاتلة خطة طويلة المدى، «خطة مؤقتة لعام 2020» بأربعة مفاهيم متقدمة حول القتال العسكري الفضائي: السيطرة الفضائية، الحرب العالمية، الإسناد القتالي الشامل، والتعاون العالمي، وبحلول عام 2020 يجب تحقيق الأهداف الخمسة التالية: ضمان دخول الفضاء، الاستمرار بمراقبة الفضاء، حماية الأنظمة الفضائية للولايات المتحدة وحلفائها، منع الأعداء من الاستفادة من الأنظمة الفضائية للولايات المتحدة وحلفائها، وحرمان الأعداء من الاستفادة من الأنظمة الفضائية (انظر الشؤون العسكرية الحديثة سنة 1998 رقم 19 الصفحات 10-11).



البحرية الرئيسية للمرة الأولى دعم القتال الساحلي والبري، وهذا أشبه بتحويل أسماك القرش طويلة الذيل التي تجوب أعماق المحيطات إلى تماسيح صغيرة تتلبَّط في المستنقعات، ما يفاجئك أكثر هو تلك الآراء المتشددة التي ذهبت بعيداً إلى درجة الحصول على التوقيعات المشتركة لقادة البحرية، وقادة المعركة وقادة قوات المارينز لتصبح أقوى وثيقة بعد وثيقة ماهان "تأثير القوة البحرية على التاريخ". لقد أثبتت التغيرات الاستراتيجية الجريئة والمُفاجِئَة التحول الهام للأفضل لهذه القوة التي باتت باحثة عن طريق متجدد على خلفية تغيير كبير في بنية العالم. ورغم أن الأهداف التي وضعتها البحرية لنفسها ليست بالتشدد الذي تتسم به أهداف القوات البرية ولا الطموح الذي تتسم به أهداف القوة الجوية، إلا أن تحوُّلَها أكثرُ عمقاً واكتمالاً، عند إجراء حساباتها؛ فالبحرية التي ليست أدنى منزلة من القوات البرية أو القوة الجوية تريد بالتأكيد اصطياد عصفورين بحجر واحد فيما يتصل بتحويل نفسها والتنافس على التمويل العسكري. فأي قوة مسلحة لم تلعب أي دور مهم في حرب كبيرة، يجب عليها أن تضع مُقَدَّمَاً خطة جذابة جداً وأن تنفِّذ إصلاحات شاملة إن كانت تريد الحصول على حصة ثابتة من كعكة غنائم ما بعد الحرب فضلاً عن الحصول على قطعة أكبر. لذا، فبعد طرح خطة "من البحر إلى البر" أصدرت البحرية ورقة بيضاء أخرى، "نقل الموقع من البحر إلى البر"[(1)]، وحقنت نفسها بمنشِّطاتٍ جديدة مثل "التواجد في موقع متقدم"، "تطوير الموقع المتقدم"، "القتال في الموقع المتقدم" في استراتيجية البحرية. وبعدها بسنتين طرح الأدميرال بوردا "مفاهيم البحرية لسنة 2020"، وبعد أن قتل بوردا نفسه لإنقاذ شرفه العسكري الملطَّخ، وضع خليفته الأدميرال جونسون القواعد وشجع الإصلاحات التي بدأها كل الذين سبقوه. فصنَّف "الصراع الردعي والوقائي في أوقات السلام، والانتصار وقت الحرب" على أنها المسؤوليات الثلاث الرئيسية للبحرية الأمريكية في

1 «الورقة البيضاء، من البحر إلى البر، صدرت عام 1992 عن القوات البحرية والبحرية البرية تشير إلى تغييرات في الجوهر وتؤكِّد الاستراتيجية... وتؤكد على تنفيذ البحرية الانتشار المسبق، وهذا هو الاختلاف الجوهري بين الموقع المتقدم من البحر إلى البر ومن البر إلى البحر (الأدميرال البحري جيمس بوردا، في مجلة قوات المارينز، آذار 1995) كما طالب هذا الأدميرال بصراحة «بتفضيل البحرية في مسائل الميزانية».



القرن الحادي والعشرين. ما لم يتغير أبداً هو أنه كان مثل أسلافه حيث كانت جميع الخطط التي اقترحها تتعامل مع البحرية على أنها المحور الأساسي بلا أي استثناء، وحُجَّتُه هذه المرة هو أنه من بين المهام القتالية الخارجية التي تقع على عاتق الجيش الأمريكي، فإن القوات البرية يجب أن تتلقّى الدعم من مواقع عدة لتبدأ الانتشار، والقوة الجوية تعتمد بشكل متزايد على قواعد في بلدان أخرى، والبحرية هي القوة الوحيدة التي تملك حرية الحركة في الفضاء البحري، وباستخدام إمكانات الوسائل العديدة لاختراق المعركة، فالنتيجة الطبيعية هي أن تصبح البحرية جوهر القوة القتالية المشتركة، تفكير هذا الأدميرال واضح للغاية. بإجماع على نظريته من القادة الثلاث ووزارة الدفاع، الذين اتّبَعوا التفكير المنطقي، فالنتيجة المرجّحة هي تفضيل هذا الصنف في تخصيصات الميزانية، وبناءً على ما رَشَحَ من تسريبات عن ميزانية الدفاع الوطنية لعام 1998، خلال السنوات العشر الماضية ووفقاً للاتجاه الثابت بتخفيض الإنفاق على الجيش، فالبحرية ومشاة البحرية هما المنطقتان في الجيش اللتان نالتا أقل تخفيض، فقد حصل قادة البحرية على الدوام على ما أرادوا[1].

ما حللناه ووضحناه آنفاً هو الاتجاه العام للجيش الأمريكي منذ نهاية حرب الخليج والموقف الحالي للمماحكات بين صنوف القوات المسلحة. ربما تكون مأخوذاً بالعمل المضني الذي قام به الجيش الأمريكي لتلخيص هذه الحرب، وربما تتأثر بالأساليب العديدة التي تبناها الجيش الأمريكي للدفاع عن مصالح صنوف القوات المسلحة، وفي ذات الوقت، ربما يكون لديك عاطفة الإعجاب اتجاه العسكريين الرائعين والعقول المذهلة التي فكّرت كثيراً لتكون منفصلة داخل سياج الجيش، وهم يكيدون لبعضهم ويجبرون بعضهم بعضاً حتى باتت كل صنوف القوات المسلحة هذه -التي تستشرف المستقبل بعمق- في النهاية تشكِّل جيشاً أمريكياً تعطّل تقدمه تماماً بسبب نداءات البوق المتضاربة[2].

1 انظر تقرير الدفاع الوطني لوزارة الدفاع الأمريكية

2 نورس: **نداء البوق** عبارة عن لحن قصير، ينشأ كإشارة عسكرية تعلن عن أحداث مجدولة وبعض الأحداث غير المجدولة على منشأة عسكرية أو ساحة معركة أو سفينة.

مرض الإسراف و انعدام الخسائر:

استخدام الأسلحة باهظة التكلفة على نطاق واسع بغية تحقيق الأهداف وتقليل الخسائر دون الاكتراث بالتكاليف، هذا النوع من الحرب الذي لا يمكن سوى للأثرياء خوضه لعبة يتقنها الأمريكيون، وتجلّى الإسراف اللامحدود على "عاصفة الصحراء" وبات هذا الإسراف إدماناً، لقد نفّذت الطائرات الأمريكية التي تبلغ كلفة الواحدة منها في المتوسط 25 مليون دولار 11 ألف غارة وحشية، وقصف عشوائي لمدة اثنتين وأربعين يوماً، لتدمِّر مقار القيادة للحزب الاشتراكي التقدمي بصواريخ توماهوك الموجَّهة التي تبلغ كلفة الواحد منها 1.3 مليون دولار أمريكي، ممهدين الطريق أمام ثعلب الصحراء بالقنابل الذكية التي تبلغ كلفة الواحدة منها آلاف الدولارات، وحتى لو عرف الجنرالات الأمريكيون مع بدء الحرب أنهم لا يحتاجون أن ينفقوا الكثير من الأموال في هذه المعركة غير المقيدة التي كلّفت 61 مليار دولار، ما كانوا ليوقفوا انتهاج هذا الأسلوب المتعجرف بـ"ضرب العصافير بالطلقة الذهبية". القاذفة الأمريكية الصنع أشبه بجبل ذهبي طائر، أغلى كثيراً من كل أهدافها. ألا ينبغي أن يثير ضرب هدف غير مهم بأطنان من الدولارات الأمريكية شكوك الناس؟ وبغضِّ النظر عن هذا فخلال المدة الطويلة التي استمرت 161 يوماً، جُلِب 52000 رجل وما يزيد على 8 ملايين طن من المعدات بنشاط دؤوب إلى الجبهة من القارة الأمريكية وعموم أوروبا، بما في ذلك الآلاف من القبعات الواقية للشمس التي تم التخلص منها منذ مدة طويلة في بعض مستودعات وصناديق الفاكهة الأمريكية المتعفنة في الرياض. اللواء باجونتس الضابط المكلف بمهمة الدعم اللوجستي، يصف هذه الأنشطة الفوضوية الواسعة النطاق في الحماية" بأنها مما لم يسمع عنه في التاريخ" لعمليات بحرية. لكن حسب البيانات الحية الصادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية، فإن هذا مشابه لنقل جميع المرافق المعيشية من مدينة جاكسون -عاصمة ميسيسبي- إلى المملكة العربية السعودية. من بين جميع العسكريين في العالم ربما يكون الأمريكيون هم الوحيدون الذين قد يعتبرون هذا البذخ ضرورياً لكسب الحرب[1]، هذه هي

1 انظر التقرير النهائي لوزارة الدفاع الأمريكية إلى الكونجرس والملحق 6.



النقطة التي تصدم الناس بشدة. ومع ذلك فالبنتاغون الذي أعاد مكنامارا تشكيلهُ بالكامل بروح تجارية، لا يستطيع سوى تقدير التكاليف المريعة للحرب الباذخة[1]. وحتى لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب، الهيئة التي تشن باستمرار حرباً كلامية على جنرالات يحملون على أكتافهم أربع نجوم بسبب المال، لم ينبسّوا ببنت شفة فيما يتعلق بالتكاليف المريعة لهذه الحرب. وفيما يتعلق بالتقارير التي تتناول تحقيقات الحرب، فقد نال التأثير الرئيسي للتسلُّح بالتكنولوجيا الحديثة كل التقديرات العالية. وقال وزير الدفاع تشيني "نحن نقود بالكامل جيلاً في قطاع تكنولوجيا الأسلحة"، وَرَدَّ عليه عضو الكونجرس آسبن "أثبتت التجربة أن الأسلحة عالية التقنية قد تفوقت على أكثر تقديراتنا تفاؤلاً". إن لم تتمكن من اكتشاف الإيقاع الرئيسي لهذه الإشادات وتعتقد أنهم فخورون فقط بالعسكرية الأمريكية لتحقيقهم لكامل أهدافهم بهزيمة العراق بالاستفادة من أسلحة التقنية العالية، فربما تعتقد أن هذا الهذيان المعتاد الذي يتحدَّث به شخصان لديهما آراء مختلفة فيما يتعلق بقدرة التكنولوجيا على تحقيق النجاح، كما أنك لست مدركًا تماماً لمعنى الأسلوب الأمريكي في الحرب. ما يجب عليك أن تعرفه هو أن هذه أمة لم تكن مُستَعِدَّةً أبداً أن تدفع الثمن من الحياة، وفي ذات الوقت سعت دوماً للانتصار بأي ثمن. وظهور أسلحة التكنولوجيا العالية يمكن أن يُرضي الآمال الباذخة للشعب الأمريكي. وخلال حرب الخليج لم يُقتَل سوى 148 جندياً ولم يُجرح سوى 458 من بين 500000 ألف جندي شاركوا في العملية؛ لقد تحققت تقريباً الأهداف التي لطالما حلموا بتحقيقها "لا خسائر بشرية". منذ حرب فيتنام، بات الجيش والمجتمع الأمريكيان حساسين للخسائر البشرية خلال العمليات العسكرية، إلى درجة مَرَضيَّة، وبات تقليل الخسائر وتحقيق أهداف الحرب الوزنان المتساويان على كفتي الميزان العسكري الأمريكي. وباتت كلفة تأمين العسكريين الأمريكيين الذين

1 ماكنامارا، الذي انتقل من رئيس لشركة فورد موتور إلى وزير للدفاع، أدخل نظام محاسبة الأعمال في المؤسسات الخاصة ومفهوم «مقارنة التكاليف» إلى جيش الولايات المتحدة، وجعل القوات تتعلم كيف توفِّر مالاً أكثر عندما تشتري السلاح، لكن كان لديهم معايير أخرى لكيفية القتال. «وزارة الدفاع يجب أن تحقق الهدف التالي: تعريض أمن بلادنا إلى الحد الأدنى من المخاطرة، والحد الأدنى من الإنفاق، والحد الأدنى من الحروب، والحد الأدنى من الخسائر» (ماكنامارا، مراجعة المأساة والدروس المستفادة من حرب فيتنام، الصفحات 29-27).



سيكونون في ميدان المعركة هي الكلفة الأعلى في الحرب، مثل الأطباق الصينية الثمينة التي يخشى الناس كسرها. كل الأعداء الذين شاركوا في المعركة ضد الجيش الأمريكي ربما أتقنوا سر النجاح؛ إن لم يكن لديك طريقة لهزيمة هذه القوة، فيجب أن تقتل أكبر عدد ممكن من جنودها[1]. هذه النقطة مقتبسة من تقرير للكونجرس يؤكد على أن "تقليل الخسائر هو الغاية العليا عند صياغة الخطط"، ويمكن تأكيده بشكل لا لبس فيه: "السعي إلى عدم وقوع إصابات". هذا الشعار البسيط الذي يفيض بالرحمة، بات العامل المحرك الفعلي في صنع الطراز الباذخ للحرب الأمريكية، لذا فلا بأس بالاستخدام بلا حساب للطائرات التي لا يلتقطها الرادار، والذخائر الموجّهة، والدبابات الحديثة والمروحيات، إلى جانب الهجمات بعيدة المدى والقصف السجادي لكل هذه الأسلحة والتكتيكات، بحيث لا يُضرَب هدف واحد بقذيفتين، لتحقيق نصر دون خسائر.

الحرب المؤطّرة على هذا الأساس أشبه بقتل صوص بسيف، فتقنيتها العالية والاستثمار العالي فيها وتكلفتها العالية وميزة الدفع المرتفع، تجعلها مطلوبة للاستراتيجية العسكرية ومهارة القتل، أقلَّ بكثير من كونها مطلوبة للأداء التقني للتسليح. وحتى في الحروب الناجحة في هذا المضمار، فلا يوجد معركة واحدة تستحق الثناء، وبالمقارنة مع التقنية المتطورة التي يمتلكها فالجيش الأمريكي يعاني حالة ركود تكنولوجي واضحة، وليس ماهراً في اقتناص الفرص التي توفِّرُها له التكنولوجيا للتكتيكات الجديدة، بعيداً عن الاستخدام الفعال لأسلحة التقنية العالية، لسنا متأكدين من مقدار التباين في الفكر العسكري الذي اكتشفه الأمريكيون في هذه الحرب والدول الأخرى. الفرق في الفكر العسكري بينهم وبين هذه الدول لا يتجاوز الفارق بين أسلحتهم. ربما يكون السبب وراء هذا هو أن هذه الحرب لم تستطع أن تصبح أنموذجاً للمهارة العسكرية، وبدلاً من ذلك باتت إلى

1 العقيد شياوتشيرمي دينجلابو أوضح أن «إيقاع الخسائر طريقة فعّالة لإضعاف قوة أمريكا، ولهذا السبب يمكن للأعداء أن يكبّدونا الخسائر عبر الاندفاع الجامح دون المبالاة بخسائره، أو عبر تحقيق انتصار تكتيكي. (تحليل من وجهة نظر العدو، توحيد المفاهيم لعام 2010، مجلة القوة المشتركة التي تصدر كل ثلاثة شهور، خريف شتاء 1997-1998)

حد بعيد مَعرِضاً للسلاح الأمريكي الباذخ، ونتيجة لذلك بدأ مرض الحرب الباذخة على الطراز الأمريكي بالانتشار على النطاق العالمي. وفي ذات الوقت وبينما كانت ملايين الدولارات الأمريكية تسحق العراق، شوّشت هذه الملايين العسكريين في العالم برمته. وأصبح الأمريكيون في غاية السعادة لأنهم باتوا تجّار السلاح الأوائل في العالم، وفي مواجهة هذه الحرب النمطية بتقنياتها المتطورة وحربها المُمِلَّة والإنفاق الضخم مثل أفلام هوليود بحبكتها البسيطة وتأثيراتها الخاصة المعقَّدَة، ونماذجها المتطابقة، لمدة طويلة بعد الحرب لم يتمكن الناس من فهم الخيوط الرئيسية لهذا الشأن المعقَّد وصدّقوا أن الحرب الحديثة تُخاض بهذه الطريقة فقط، ليُترَكَ أولئك الذين لا يستطيعون خوض هذه الحرب الباذخة لمرارة الشعور بعُقدَةِ النقص. ولهذا فالإصلاحات العسكرية في كل الدول بعد حرب الخليج اتَّسَمَت بالتوق الشديد لأسلحة التقنية العالية والاتجاه لحروب التقنية العالية.

في مناقشته للمخترع الأمريكي الموهوب توماس إديسون كتب الشاعر جيفرس: "نحن في التصنيع موهوبون، وبالإسراف مهووسون"، لدى الأمريكيين ولع فطري بهذين الشيئين إضافة إلى الميل للسعي الدائم لتقنية أعلى وصولاً إلى الكمال الباذخ، بما في ذلك الأسلحة والتصنيع. الجنرال باتون الذي أحب حمل المسدسات ذات المقابض العاجية، مثال عن هذا. هذه الميول تجعلهم شديدي الافتتان بها ولذا فلديهم ثقة عمياء بالتكنولوجيا والأسلحة، ويعتقدون دوماً أن الطريق لتكون لديهم اليد العليا في الحرب يمكن سلوكها بالتقنية والأسلحة، كما يجعلهم هذا الافتتان قلقين من احتمال خسارة موقعهم الريادي في عالم التسليح، ثم يخففون باستمرار من هذه المخاوف بتصنيع أسلحة أكثر وأحدث وأشد تعقيداً. ونتيجة لهذا الموقف، عندما تتعارض أنظمة الأسلحة التي تصبح يوماً بعد يوم أثقل وأشد تعقيداً، مع المبادئ الجوهرية للقتال الفعلي، فإنهم يقفون دوماً في صف الأسلحة. فهم يتعاملون مع الحرب كخصم في سباق الماراثون للتقنيات العسكرية ولا يرغبون بالنظر إليها كتجربة إنسانية للمعنويات والشجاعة والحكمة والاستراتيجية. إنهم يؤمنون أنه طالما أن خلفاء أديسون هذه الأيام ليسوا غاطّين في سبات عميق، فستبقى بوابة

الانتصار مفتوحة أمام الأمريكيين. هذه الثقة بالنفس جعلتهم ينسون حقيقة بسيطة؛ هو أن الحرب لا تسلك مساراً منتظماً في سباق ثابت بين التكنولوجيا والأسلحة بل الحرب ميدان مُتَغَيِّر باستمرار تتحكم به العديد من العوامل غير المنتظمة؛ وسواء ارتديت أديداس أو نايك فلا يمكنك ضمان الفوز في سباق رياضي.

يبدو أن الأمريكيين لا يلقون بالاً لهذا، فقد استفادوا من انتصارهم التقني في حرب الخليج، ومن الواضح أنهم لم يدخروا جهداً أو مالاً للحفاظ على موقعهم الريادي في التقنية العالية. ورغم أن الصعوبات العديدة في التمويل جعلت الاستمرار مرهقاً، إلا أنهم لم يتمكنوا من تغيير عاطفتهم الجياشة تجاه التكنولوجيا الجديدة والأسلحة الجديدة. القائمة المُفَصَّلَة الجديدة من الأسلحة الباذخة التي يُعِدُّها الجيش ويوافق عليها الكونجرس ستطول بالتأكيد أكثر وأكثر[1]، لكن قائمة الجنود الأمريكيين الذين يقتلون أو يجرحون لن تبقى بالضرورة معدومة بسبب التفكير الرغبي.

1 حسب تقرير الدفاع الوطني في وزارة الدفاع الأمريكية للسنة المالية عام 1997، يوجد 20 بنداً تكنولوجياً متقدِّماً حصلت على موافقة الكونجرس: «1- أنظمة التسليم الفوري للقوات 2- أنظمة شن الهجمات الدقيقة المتعددة السبطانات 3- طائرات مسيَّرة تطير على ارتفاعات عالية ترافق الآليات 4- طائرات مسيرة على ارتفاعات متوسطة ترافق الآليات 5- أنظمة إشارة للسيطرة على الأهداف بدقة 6- أنظمة صواريخ دفاعية 7- ميادين للتدريب تحاكي الميادين الحقيقية 8- ألغام بحرية 9- صواريخ اعتراض باليستية ذات تسليح بالطاقة الحركية 10- وسائل تقنية متطورة لتشكيل خطة مشتركة على مستوى عالٍ 11- فهم جبهة المعركة ونقل البيانات 12- أسلحة مضادة لأسلحة التدمير الشامل 13- قواعد جوية (مرافئ) للدفاع ضد الأسلحة الكيميائية 14- أنظمة توجيه متطورة 15- بعد النظر القتالي 16- قوة مشتركة للدفاع عن المؤخرة 17- مركبات قتالية للإنقاذ 18- التوقع قصير المدى ومروحيات نقل متوسطة المدى ورخيصة التكلفة 19- معالجة الصور شبه الأوتوماتيكية. 20- أهداف طائرة صغيرة زائفة.

مجموعة، قوة الاستطلاعية، قوة المتكاملة:

ما نوع الجيش الذي يجب أن يكون عليه الجيش الأمريكي في القرن الحادي والعشرين؟ هذا هو السؤال الذي حيّر الجيش الأمريكي في السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين[1]، خلال حرب الخليج شكّل أداء القوات البرية المتواضع مع أنه مدجج بأسلحة عالية التقنية تناقضاً واضحاً. القوات البرية الأمريكية التي كانت على الدوام أكثر تَحَفُّظاً من القوات البحرية والجوية، أصبحت في نهاية المطاف واعية بالحاجة إلى عمل نظام لتنفيذ إصلاحات، لكن المثير للانتباه أن من قاوم هذا المسعى لم يكن النسق الأول من الجيش، بل كانت المعارضة من قادة الفِرَق الجدد الذين اعتلوا حديثاً مناصب أعلى في مستوى القيادة ومن القادة الجدد الذي حلوا محلهم، أمّا آراء قادة الألوية هؤلاء الذين يحملون على أكتافهم شارة النسر وورقة القيقب مختلفة تماماً، فقد كانوا مقتنعين بأن القوات البرية لم يتسنَّ لها اجتياز اختبار الحرب وبالتالي يجب أن تخضع لعملية تغيير كبيرة، وتولى الجنرال سوليفان برامج "قوات الاقتحام" والقوات النموذجية" و"القوات الأساسية". وبالرغم من أن رئيس الأركان هذا جسّد بشكل مثير للإعجاب البرنامج الثالث لـ "التفكير الجديد للعمليات المستقبلية"، فلم يستطع إقناع معظم الجنرالات بالموافقة عليها، وكانت النتيجة أنه بعد أن غادر مكتبه، حدث تغيير جذري بين المحافظين والإصلاحيين في القوات البرية وأنشأ الجيش فرقة تجريبية جديدة قوامها 15800 رجل من الوحدة الميكانيكية الرابعة سنة 1996[2]. وفاز الاتجاه الذي نادى به قادة الفرق بشكل واضح، أما "قادة الألوية" فلم يكونوا على استعداد لترك الأمور تفلت من

1 ما هو نوع الجيش الذي تحتاجه الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين؟ شياوين نيل في مجلة آرمي تايمز عدد 16 تشرين الأول سنة 1995 يتناول هذه القضية بالتفصيل.

2 حسب مجلة آرمي تايمز الأمريكية: «بعد خمس سنوات من التحليل والدراسة والنقاشات العسكرية الداخلية، شكّلت القيادات العسكرية في النهاية أساساً جديداً للوحدات المدرّعة ووحدات المشاة الميكانيكية، والخطة الجديدة تدعى ‹مؤسسة القرن الحادي والعشرين› مقرات قيادة الدعم مكونة من وحدات مشاة، فرقة مدرعة واحدة، وحدتي مشاة ميكانيكية، وحدات مدفعية (مستوى لواء)، وحدة طيران واحدة، وحدة واحدة لأجل دعم وإدارة المؤخرة. تتألف الفرقة من 15719 رجلاً (من ضمنهم 417 من أفراد الخدمة الاحتياطية)، ويوضِّح الأفراد الذين وضعوا هذه المؤسسة أن «هذه المؤسسة الحديثة لا تُعتَبَر مؤسسة ثورية... بل يُنظَر إليها كمؤسسة متحفِّظة نسبياً.

أيديهم، وسادت لديهم قناعة راسخة بأن ”قوة ضخمة وثقيلة لن تكون مُناسِبَةً لمُتطلَّبات القتال في القرن الحادي والعشرين“؛ فالقوة العسكرية التي بدأ تشكلها خلال فترة الأسلحة قصيرة المدى وصولاً إلى الأسلحة المعقدة يجب إلغاؤها، ويجب استبدال ما بين خمسة إلى ستة آلاف جندي من القوة حديثة الطراز لتشكِّل القوات البرية ذات الطراز الجديد للقتال الأساسي. ولارضاء الجنرالات الساخطين برهنوا على حنكتهم واحتفظوا لهؤلاء الجنرالات بمناصب عسكرية رفيعة المستوى في البرنامج الجديد مماثلة للمناصب التي شغلوها في البرنامج القديم[1]. وفي اللحظة الحاسمة من النقاش المحتدم بين قادة الفرق وقادة الألوية، أطلق مدير بحوث قيادة المعركة في الجيش الأمريكي المقدم مايجيليج دعوة جديدة، حيث دعا في كتابه ”حطِّم الاصطفافات“ للتخلي عن نظام الفرق والألوية معاً واستبداله باثنتا عشرة مجموعة معركة تتكون كل منها من 5000 رجل، ويُحَدَدُ موقعها الجديد من خلال النمط المحدد للمؤسسة المخلوعة من الكبير والصغير والأعداد البشرية كثيرة وقليلة، ويمكن أن تتبنى أساليب لبنة البناء حسب احتياجات وقت الحرب وتطبِّق التنظيم الجماعي وفقاً للمهمة، وظهر أثر هذا الرأي في الجيش بشكل فاق التوقعات لدرجة أن الجنرال ريمر طلب من جميع الجنرالات قراءة هذا الكتاب[2]. ربما يتمتع رئيس الأركان الحالي بنظرة ثاقبة استثنائية ويدرك أنه بالرغم من أن النقاط التي تناولها المقدَّم مايجيليج لن توفِّر حلولاً سحرية للقضايا المختلفة، إلا أنها يمكن أن تُعتَبَر العلاج السحري للتخلص من العجائز باللباس العسكري الذين ينحصر تفكيرهم في شرانق فكرية.

بالأصل لم يكن مفهوم المجموعة جديداً في الجيش، فقد كان إصلاح ”القوات النووية للمجموعات الخمس“ [3] في الخمسينيات والستينيات يُعتَبَر محاولة فاشلة حتى أن

1 انظر جون برينكرهوف «اللواء الجديد» المجلة التي تصدر كل ثلاثة شهور. شتاء سنة 1997.

2 للحصول على آراء تفصيلية حول هذا الكتاب، انظر مقال شياوين نيل في مجلة تايمز آرمي، 9 حزيران 1997.

3 من أجل موائمة حاجات الحرب النووية ومحاولة تمكين القوات لتنفيذ القتال في المعركة النووية إضافة إلى تمكينها من البقاء على قيد الحياة، سنة 1957 أعاد الجيش الأمريكي تنظيم الفِرَق الذرية مع بقية الفِرَق. الفرقة بأكملها يتراوح عددها ما بين 11000 و14600 رجل، منظَّمين في خمس مجموعات قتالية مزودين بآليات قوية المحركات، ولدى الجميع أسلحة نووية تكتيكية، لكن الإمكانات الهجومية لهذه الفرقة في ميدان المعركة غير النووي كانت منخفضة نسبياً.



البعض اعتبرها السبب غير المباشر لأداء الجيش الأمريكي السيئ في حرب فيتنام. ووفقاً لمايكليج فالطفل الذي يُولَد قبل الأوان لن يتمكن من بلوغ مرحلة الرجولة، فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن مولد فكرة المجموعة قبل ثلاثين سنة لم يكن موفقاً، نستطيع أن نقول الآن أنها فكرة صائبة اليوم. فالتسليح المحدَّث بات كافياً ليجعل من أي قوة صغيرة نسبياً لا تقلُّ شأناً عن قوة كانت تُعتبَر كبيرة من قبل في القوة النارية والحركية. وأدى ظهور طائرات سي41 على وجه الخصوص إلى توحُّد القوات المسلحة ذات الميِّزات المتبادلة في ساحة المعركة، لتصبح النقطة المتنامية الجديدةَ في القوة القتالية. إن كان هذا العصر ما يزال يتبنى الأسلحة المُعَدَّة لنظام الفِرَق أو نظام الألوية، يمكن إذاً القول بثقة إنه ليس كافياً لمتطلبات الوقت الراهن، ومع هذا حتى وإن كانت تطورات التقنية العسكرية هي نتيجة للتقنية العالية، فهي أيضاً نقطة تحوُّل ويقيناً لن تجلب الفكر العسكري والمؤسسات العسكرية المتقدِّمة تلقائياً. الميزة الجيدة تخفي ورائها مئةً سيِّئة، والموقع الرائد للتقنيات العسكرية والتسليح أخفى عن الأنظار هذه الحقيقة: الجيش الأمريكي لا يختلف في مؤسساته الراسخة مثلما يختلف في عقيدته العسكرية، وهذه المؤسسات بالتأكيد هي التي تقف وراء التكنولوجيا العسكرية المُتَقَدِّمَة التي يملكها. وبالتالي فاستخدام "المجموعة" لتدمير الموقع الذي شكّلته الفِرَق والألوية هو المفهوم الهدّام في مؤسسات الجيش الأمريكي الراسخة منذ حرب الخليج ومثّل الموجة الفكرية الجديدة لإصلاح مؤسسات الجيش الأمريكي. وعلى خلاف القوات البرية فلم تحافظ القوات الجوية والبحرية على التقاليد "الموقعية" شديدة الرسوخ. ووتيرة تعديلاتهم خفيفة نسبياً، والقوات الجوية على وجه الخصوص استفادت من فرصة الزخم الذي حققته في عاصفة الصحراء لتجتثَّ نظام الفرق من جذوره بخطوة واحدة، واستفادت من الفرصة لتغيير كل الأجنحة القتالية لتصبح أجنحة متكاملة وتأخذ زمام المبادرة في تحقيق الجولة الأولى في إصلاح نظام المؤسسات. " بعد "الوصول العالمي، القوة العالمية" كان هذا هو الهدف الذي وُضِع لاستراتيجية القوة الجوية، وواصلت أجنحة الإصلاح رفرفتها وبدأت باختبار الخطة لتأسيس "قوة جوية استطلاعية"، التي تقدّم بها قائد جناح في القوة الجوية جون جيانو، وحسب هذه الخطة فما سماه "القوة الجوية



الضاربة" قوة قادرة وقوية قوامها 1175 رجلاً و34 طائرة تعمل معاً لبلوغ التفوق التام في الجو، وتنفيذ هجمات جوية، وإسكات دفاعات العدو الجوية، وإعادة تزويد الطائرات بالوقود في الجو...إلخ، ويمكنها الوصول إلى مسرح العمليات في غضون 48 ساعة من تلقي الأمر، مما يؤدي إلى الحفاظ على زخم القتال الجوي في كامل ميدان الصراع. وفي هذا الصدد يمكن القول بأن أعمال القوة الجوية الأمريكية هي تجاوز حاجز الصوت. وهم يعملون الآن على تشكيل ثلاث "قوات جوية استطلاعية"، كما أنهم أتموا انتشاراً كاملاً لقوتهم. وعندما بدأ تشكيل القوة الرابعة أو الخامسة من هذه القوات، كانت القوات الثلاث التي تشكَّلَت بالفعل قد أثبتت جدارتها في عمليات عسكرية مثل "المراقبة الجنوبية" ورعد الصحراء"[1].

وفيما يتعلق بالبحرية، ونظراً لوجود الاستراتيجية الجديدة: "المواقع المتقدمة من البحر إلى البر" فإن تشكيل قوة ضاربة من مجموعة من الأسطول البحري والقوات البرية أمر منطقي. وبخلاف القوات البرية التي تتخذ خطوات واسعة للحماية من الصعوبات والقوة الجوية، التي تشبه الإعصار المتصاعد، تبقى البحرية أكثر ميلاً لإجراء مناورات متكررة والقتال الفعلي لصقل مفهوم "القوة البحرية الضاربة". وهكذا كانت مناورات: "مخاطر المحيط" للمقر العام لقيادة المحيط الأطلسي، "للهجوم المزدوج" للقيادة الأوروبية العامة، "للقاتل الصامت" لقيادة الأطلسي العامة، ومناورة "تنين البحر" للقوات البرية منذ شهر أيار سنة 1992، لفرض "المراقبة الجنوبية" وهي منطقة حظر طيران في جنوب العراق، "المقاتل اليقظ" لردع العراق، إضافة إلى "إعادة الأمل في الصومال، "الحارس القوي"، و"صون الديمقراطية" في هايتي. في كل هذه العمليات اختبرت البحرية بنشاط عملية التنظيم الجديد[2]. والمهمة التيكُلِّفَت

1 لمزيد من التفاصيل حول مفهوم القوة الجوية الأمريكية الاستطلاعية، انظر المقال الذي كتبه العميد ويليام لوني في مجلة القوة الجوية، شتاء سنة 1996.

2 كقائد للبحرية قال كايو ارسيو وكذلك قائد القوات البرية وانجدي: في ظل ظروف تقليص الأنفاق العسكري المتواصل والتقليل المتواصل للقواعد في الخارج، تحتاج الولايات المتحدة قوة قتالية موحدة صغيرة الحجم نسبياً لكن قادرة على الانتشار السريع والتَّجمُّع والتدريب (أيار سنة 1993، مجلة المعهد البحري) «القوة الاستطلاعية البحرية»، انظر مجلة القوات البحرية، آذار 1995.

بها هذه "القوة البحرية الاستطلاعية" المكوَّنَة من مجموعة حربية واحدة وقوة حراسة برمائية واحدة وقوات مشاة البحرية، هي السيطرة السريعة على البحار إضافة إلى القتال في المناطق الساحلية. أما ما أذهل البحرية وشكَّل مفاجأة سارة لها هو موافقة الكونجرس على الموازنة المطلوبة لتأمين معدات قوة الإنزال البرمائي اللازمة لها[1]. التحيُّز الذي أبداه السياسيون الأمريكيون اتجاه البحرية أدى إلى التعامل معهم -وخصوصاً التعامل مع المارينز- ببرود إثر عودتهم من العراق. حتى أنه بعد تشكيل نظام البحرية الجديد، كانوا واثقين تماماً من احتلال الموقع الأول بين صنوف القوات الأمريكية المسلحة.

لم تؤدي الإصلاحات البنيوية التي بدأت بعد حرب الخليج إلى تعديل البُنية الداخلية للجيش الأمريكي فحسب، بل أعطت زخماً للتغييرات في تطوير الأسلحة والتكتيكات، بل وكان لها تأثير بعيد المدى على الاستراتيجية الوطنية الأمريكية، "القوة الاستطلاعية" ضيقة النطاق والمرنة والسريعة والتي لا تُستخدم للهجمات العسكرية فقط بل يمكنها كذلك تنفيذ مهام غير حربية، باتت الشكل الجديد التي يسعى كل فرع عسكري لتشكيله، كما أنها تبقى أداة طيّعة وفعّالة بيد الحكومة الأمريكية. لقد اكتشفنا هذا بسبب وجود قوات "الصولجان القاتل"[2] الفعالة للغاية والخطيرة، وظهور اتجاه خطير في التعامل مع الشؤون الدولية باتت الحكومة الأمريكية مولعة بشكل متزايد باستخدام القوة، وتسرِّع خطواتها وتسعى للانتقام لأصغر الاعتداءات عليها. هذه التحركات المشتركة بين القوات المسلحة والحكومة

1 انظر مجلة القوة البحرية عدد تشرين الثاني سنة 1995 «من آفاق البر إلى آفاق البحر»، أكثر من أموال الميزانية المتوقعة: وافق الكونجرس الأمريكي مؤخراً على تخصيص أموال السنة المالية لعام 1996 لبناء سفينة الهجوم البرمائي المتعددة الاستخدامات السابعة، مما أسعد البحرية. وبسبب حدود الموازنة تخطط البحرية الأمريكية للانتظار حتى سنة 2001 لتقديم طلب تخصيص لهذه السفينة... قررت البحرية في الأصل طي طلب التخصيص لبناء أول سفينة نقل برمائية إل بي دي 17 حتى سنة 1998 المالية بدلاً من 1996. لكن ما فاق التوقعات كان موافقة الكونجرس على تخصيص 974 مليون دولار لهذه السفينة».

2 مصطلح صيني يتكون من شخصيات «القتل» و «اليد» و «الصولجان». تعود جذور هذا المصطلح إلى الفولكلور الصيني القديم، والذي يروي كيف استطاع بطل يحمل هذا السلاح التغلب على خصم أقوى بكثير. تمكَّنَ «شاشو جيان القاتل» بتثبيط عدوه، فجأة وبالكامل، بدلاً من محاربته وفقًا «للقواعد».

والعسكريين والسياسيين تتسبب في بدء الجيش الأمريكي إجراء تغيير جذري عميق ولكن كارثي من إعادة تأسيس النظام إلى التفكير الاستراتيجي.

وتحاول وزارة الدفاع الأمريكية الآن تنظيم القوات الضاربة البرية والجوية والبحرية في "قوة مهام مشتركة" متكاملة، وهذه أحدث خطوة في هذا التغيير[1]، وما يزال من الصعب توقع ما إن كانت هذه القوة المتكاملة كُلِّيًّا سوف تجر الجيش الأمريكي وحتى الولايات المتحدة التي تستخدم نفس السمات الخاصة إلى مستنقع مزعج بينما تحقق ببراعة المهمة العالمية الممنوحة لحكومة الولايات المتحدة.

من الحملات المشتركة إلى الحرب الشاملة الأبعاد- خطوة واحدة لفهم كامل:

عندما نقول أن نظرية العسكرية الأمريكية هي في الخلف، فإنها في الخلف بالنسبة لتقنياتها العسكرية المتقدمة. ومقارنة بالعسكريين في البلدان الأخرى، فالاعتبار التقني الكامل للتفكير العسكري الأمريكي يحتل بطبيعة الحال موقعاً ريادياً لا يمكن التغلب عليه على نطاق الحرب العالية التقنية في حروب المستقبل الافتراضية. ربما تكون مدرسة أرجاكوف السوفيتية الفكرية الأولى التي تتقدم على "الثورة العسكرية الجديدة" هي المثال الوحيد الذي رأى النور.

تمَّ رسم صورة واضحة لـ "الثورة العسكرية الجديدة" على ضوء تجربة حرب الخليج، ليس فقط عند الجيش الأمريكي بل عند العسكريين في العالم أجمع، وباتت هذه الكلمات شعاراً أعمى سخيف منتشر على نطاق واسع، وليس شأناً يتطلب جهداً كبيراً بسبب توق الآخرين للتكنولوجيا واتِّباع شعارات مُعَيّنَة، بل إن

1 عام 1993، طرح تقرير للولايات المتحدة حول التحقيق الكامل للدفاع أن: «حزمة القوات التالية كافية للتعامل مع نزاع إقليمي واسع النطاق، أربع إلى خمس وحدات قتالية، أربع إلى خمس وحدات قتالية برية، عشر تشكيلات مشاة ميكانيكية، مئة طائرة قاذفة ثقيلة، أربع إلى خمس سفن بحرية قتالية، قوات مهام خاصة... وغير هذا اقترحنا مفهوماً جديداً للقوات في الخارج، القوات الخاصة ذاتية التكيُّف. بناءً على متطلبات قائد منطقة المعركة، يُعاد تنظيم القوات الجوية المعنية، والقوات البرية والقوات الخاصة والقوات البحرية».

الوحيدين الذين يبذلون جهوداً كبيرة هم الأمريكيون، فعندما يرغبون بضمان موقعهم القيادي في حقل الإصلاحات العسكرية التي بدأت بالفعل وسوف تكتمل حالاً، فالشيء الوحيد الذي يجب حله إذاً هو سد الفجوة بين التفكير العسكري الأمريكي والتقنية العسكرية، في الواقع بعد أن وضعت الحرب أوزارها لم تسحب القوات الأمريكية قواتها من الخليج العربي وبدأت بالفعل عملية "تحول فكري" شامل. وهذا يعني أنه بعد بدء الإصلاحات التكنولوجية العسكرية لن يكونوا قادرين على تعويض الدروس التي فاتتهم من متابعة الإصلاح الفكري بشكل متزامن. وحتى في التحليل النهائي ليسوا قادرين على الابتعاد عن ولعهم بالتكنولوجيا، وما يزال الأمريكيون ضمن هذه الحلقة المفرغة غير قادرين على الخروج منها. وانجزوا نتائج معيّنة مفيدة للعسكريين الأمريكيين وللعسكريين في كل أنحاء العالم، وأولها تكوين مفهوم "الحملة المشتركة"، ثانياً تكوين التفكير "الحربي بكافة الأبعاد".

صوغ "الحملة المشتركة" يعود بالأصل إلى المنشور المشترك ذي الرقم واحد في شهر تشرين الثاني سنة 1991 للوائح الناظمة "للعمليات المشتركة للقوات الأمريكية المسلحة" الصادر عن المؤتمر العسكري الأمريكي المشترك. من الواضح أن هذا المنشور مُترَع بالمفاهيم الجديدة لحرب الخليج التي اخترقت المفهوم الشائع "للحرب المشتركة" و"الحرب التعاقدية" التي عفا عليها الزمن، وحتى أنها تجاوزت نظرية "المعركة الجوية البرية المتكاملة" التي ظنَّها الأمريكيون على السلاح السحري. هذه اللائحة تكشف العناصر الرئيسية الأربعة "للحملة المشتركة" وهي القيادة المركزية، تساوي القوات المسلحة، التوحيد الكامل، والعمق الشامل أثناء المعركة. لقد أوضح هذا للمرة الأولى أن سلطة القيادة والسيطرة على منطقة المعركة بيد قائد واحد، ونصّت على أن أي فرع عسكري يمكنه أن يأخذ دور قيادة المعركة بناءً على مواقف مختلفة، ووسّعت "المعركة البرية الجوية المتكاملة" إلى المعركة البرية الجوية والفضائية المتكاملة، وأكَّدت على تحقيق العمق الشامل أثناء خوض المعركة على كافة الجهات. وبدفع من الزخم القوي لاجتماعات هيئة الأركان الأمريكية المشتركة، يعمل كل فرع بشكل ناجح على توحيد اللوائح العسكرية المشتركة بغية تعميم هذا

التكتيك الجديد كممثِّل لاتجاه حروب المستقبل. (وبينما وافقت فروع القوات رسمياً على هذا المفهوم الجديد) إلا أنهم حافظوا سرَّاً على الوظائف الأساسية لفروعهم، وأمِلوا على وجه الخصوص أن يُجروا توحيداً يضع حدوداً واضحة، وهذا توحيد يوضّح صلاحيات كل سلطة، بما فيها اللوائح والقوانين والتفريق في التكريم العسكري بين كل فرع من هذه الفروع، ورئيس الهيئة المشتركة للأركان شاليكاشفيلي يشعر أن هذا لا ينبغي أن يشير إلى حل وسط بين رئاسات هيئة للأركان. تبني المنشور المعنون بـ "خطة القوات المشتركة حتى عام 2010" هو نموذج قيادة العمليات العسكرية الأمريكية المشتركة[1]، إنه يلعب بلا شك دور النبي موسى (عليه السلام) في العصر الحديث، حيث يدفع الولايات المتحدة لتفكيك أسوار الفصل بين فروع الجيش والسير على امتداد الطريق الصعب المتمثل في تنفيذ عمليات موحَّدَة ومُتكاملة وسط حالة الريب التي تشبه الظلام الذي يسبق طلوع أَشِعَّة الشمس.

وحتى في حالة الولايات المتحدة البلد المعرّض للبربوغاندا ويتقبَّلُ الأشياء الجديدة، ما يزال الوضع بعيداً جداً عن أفكار شاليكاشفيلي، في أعقاب تقاعده فالانتقاد الموجَّه للجيش الأمريكي بشأن "الخطة المشتركة" تزايد تدريجياً، وأصبح للشكوك ما يبررها، وتعتقد قوات المارينز أنَّهم "لا يجب أن يعبدوا الخطة المشتركة ويوقفوا المناقشات المستقبلية المرتبطة بتنظيم القوات، حيث سيؤدي توحيد الخطة المشتركة إلى خسارة التمييز بين القوات المسلحة"، وهذا مناقض تماماً للروح الأمريكية التي "تؤكِّد على التنافس والتنوع"، وعبّرت القوات الجوية بلباقة عن رأيها بأن "خطة التوحيد سنة 2010 يجب أن تتطور بالممارسة وتشجيع التقليد المتبادل بين صنوف القوات المسلحة، حيث يجب أن تكون حقبة التغيير وتجربة تفكيرنا مرنة لا جامدة"[2]. آراء البحرية والقوات البحرية في هذا الصدد متشابهة

1 بالنسبة «للعقيدة المشتركة لسنة 2010» التي وضعتها الولايات المتحدة قبل عام 1996 في اجتماع عسكري مشترك، انظر مجلة القوة المشتركة، صيف سنة 1996. في عدد الشتاء لسنة 1996، حيث عبَّر قائد القوات البحرية جونسون ورئيس أركان القوة الجوية فوجلمان عن دعمهما «للعقيدة المشتركة سنة 2010»، ورئيس الأركان ريمير طرح هو الآخر «مفهوم الجيش سنة 2010» في رد على «العقيدة المشتركة لسنة 2010».

2 انظر مقال: «الإصلاح لن يكون سهلاً» للقائد هوفمان في مجلة المعهد البحري الأمريكي، عدد سنة 1998.

وفيها الكثير من الحيوية بما يكفي لنسف الكثير من الجهود الشاقة في لحظة. من الواضح إذاً أن التغيير في السياسات بسبب تغيير الشخص المسؤول لا يحدث في الشرق فقط. كمتفرجين يمكننا بالتأكيد التضحية ببساطة بأيديولوجيا قيِّمة لأجل مصلحة ضيقة أو جماعة. لأن جوهر "الحملات المشتركة" و"الخطط المشتركة" ليس أبداً تأكيد أو مصادرة المزايا العسكرية بل إن الغاية منه تمكين كل فرع في الجيش من تحقيق توحيد للعمليات ضمن ساحة معركة مركزية، وتقليل تنامي التأثيرات السلبية لكل صنف من صنوف الجيش. وقبل إيجاد سبيل حقيقي للتكامل بين القوات فمن الواضح أن هذا تكتيك صادر عن رتبة عالية. محدودية هذا التفكير القيّم، تكمن في أن نقطة بدايته ونهايته كلاهما لا يتجاوزان نطاق القوات المسلحة وليسا قادرين على توسيع حقل الرؤية الذي تعنيه كلمة "مشتركة" لكل المجالات التي يمكن للبشر أن يسلكوا فيها سلوك المواجهة. عيب هذا التفكير الذي ظهر نهاية القرن العشرين وهو ذات الوقت الذي ظهرت فيه ملامح المفهوم الواسع للحرب، هو أنه يجذب الانتباه لدرجة أنه لو لم يظهر مفهوم "الحرب ذات الأبعاد الشاملة" سنة 1993 في منشور الجيش الأمريكي، كأساس للحرب فسنندهش من ضحالة التفكير العسكري الأمريكي.

بعد المراجعة الثالثة عشر لهذه الوثيقة البرامجية، ظهر أثر النظرة الثاقبة إلى التحديات الواضحة التي قد يواجهها الجيش الأمريكي في السنوات القادمة ولأول مرة تطوَّر مفهوم جديد تماماً من "العمليات العسكرية غير القتالية"، والسبب هو أن هذا المفهوم الذي رأى الناس فيه إمكانيةً لتنفيذ حرب موضعية كاملة، واضطر الجيش الأمريكي لإيجاد اسم جديد كلياً لنظريته للحرب؛ "الحرب شاملة الأبعاد". المثير للانتباه هو أن الشخص المسؤول عن مراجعة منشورات الجيش الأمريكي سنة 1993 عن أساسيات الحرب والذي أبدى روح مبادرة راسخة هو الجنرال فرانكس، وهو الرجل الذي كان محل انتقاد كرجل محافظ في العمليات عندما قاد الأسطول البحري السابع. لولا ظروف لاحقة غيرت اتجاه التفكير الأمريكي، لَوَجَّه هذا القائد الذي تولى منصب قائد قيادة التدريب والعقيدة بعد الحرب للفكر العسكري

الأمريكي نحو آفاق جديدة. رغم أن الجنرال فرانك والضباط الذين جمعوا لوائحه العسكرية لم يتمكنوا من جسر هوة التعارض الهائلة بين الجملتين؛ "تنفيذ عمليات مركزية جوية مدعومة من كامل مسرح العمليات" و"حشد كل الأساليب في كل عملية ممكنة، القتالية منها وغير القتالية، بحيث تكتمل المهمة الموكلة بأقل تكلفة ممكنة" في هذا المنشور عن أساسيات الحرب، فقد فشلوا في اكتشاف أنه فيما عدا الحرب كعملية عسكرية، فما يزال هنالك إمكانية لعمليات غير عسكرية أوسع بكثير. ومع ذلك فقد بيّنت على الأقل أن "الحرب شاملة الأبعاد" يجب أن تحوز السمات الخاصة لـ "العمق الشامل، الارتفاع الشامل، الجبهة الشاملة، الوقت الشامل، التكرار الشامل، تعدد الطرق" وهذه بالتحديد أكثر ميزة ثورية في هذا الإصلاح للمعركة التي لم تُرَ قط في تاريخ الحروب من قبل[1].

من المؤسف أن الأمريكيين والجيش الأمريكي على وجه التحديد أوقف هذه الثورة مبكراً جداً، ففي إحدى حالات الخلاف قام هولدر قائد فوج تحت إمرة الجنرال فرانك الذي تولى لاحقاً منصب قائد القوات البرية المشتركة لتدريب الجيش وتوجيه العقيدة القتالية، شكك بشدة في فكرة قائده الأعلى. ولم يكن الفريق -وقتها- هولدر هو ذاك الضابط القوي في ساحة المعركة، بل كان في ذاك الوقت يلعب دور الناطق بلسان الجيش في تقاليده المحافِظة، وكان رأيه هو أن "المعتقدات التي تخص العمليات غير القتالية لها مبادئها الخاصة غير المرغوبة بين القوات القتالية والعديد من الضباط القادة يعارضون التفريق بين العمليات غير القتالية والمعنى الأصلي للعمليات العسكرية". وبعد وفاة هولدر ساد الجيش إجماع عام على التعامل مع: التفريق بين العمليات القتالية وغير القتالية على أنها ممارسة خاطئة. واقتنعوا بأن العمليات العسكرية غير القتالية إن كُتِبَت بشكل لوائح أساسية، فستُضعِف السمة المُمَيّزة للقوات المسلحة بالتركيز على الشؤون العسكرية وقد تؤدي أيضاً إلى الاختلاط في عمليات القوات المسلحة. وهكذا انتهت ثورة الجنرال فرانك إلى إخفاق لا مفر منه، وبإلهام من القائد التالي لتدريب الجيش وعقيدته

1 ثمة مقدمة مفصلة لـ «الحرب شاملة الأبعاد» في مجلة جيش العالم سنة 1997 الصفحات 294-291

القتالية الجنرال هارتزوج، أجرى الجنرال هولدر ومجموعة التحرير لمنشورات عام 1998 حول أساسيات الحرب إصلاحات أساسية لتتوافق مع الخلاصة الوافية "بمبدأ واحد يغطي كل أنواع العمليات العسكرية" كمبدأ أساسي. ولم تعد ممارستهم تميّز بين العمليات غير القتالية والعمليات العسكرية العامة، بل إنها تميّز بين أربعة أنواع للعمليات العسكرية؛ الهجوم والدفاع والتأمين والدعم، واستعادة المخطوطة الأصلية لمثل هذه المسؤوليات عن العمليات غير القتالية كإنقاذ وحماية وتجميع المجموعة القديمة من العمليات القتالية وفق ترتيب يمكن عبره وضع مبادئ قتالية مركزية على الطريق الصحيح والتجاهل التام لمفهوم "الحرب ذات الأبعاد الشاملة"[1]. تبدو هذه الخطوة في ظاهرها حركة إصلاح جذري وبسيط عبر الاستغناء عن كل ما هو غير ضروري، لكن في الواقع فهذه طريقة أمريكية ساذجة للحكم على الأمور. وفي نفس الوقت بما أن الخلط النظري الذي أدى إليه مفهوم "العمليات العسكرية غير القتالية" غير الناضج ما زال قائماً، فالثمار الأيديولوجية القيّمَة التي وجدوها مصادفةً كان يمكن التخلي عنها أيضاً على حساب الخلاصة التي خضعت للتنقيح حديثاً. ويبدو أنه من خلال عمل هذا فالخطوة الأولى هي المضي خطوة للأمام وخطوتين للوراء، فجميع الأمم تتعلم من أخطائها.

ومع هذا فالإشارة إلى افتقار الجيش الأمريكي إلى بعد النظر لا يوازي القول بأن نظرية "الحرب شاملة الأبعاد" لا يمكن انتقادها، بل على العكس تماماً ثمة عيوب واضحة في هذه النظرية في مضامينها ودلالاتها المفاهيمية. وفي الواقع فإن فهم الحرب شاملة الأبعاد للمعركة أوسع بكثير من أي نظرية عسكرية سابقة، لكنه بغضِّ النظر عن طبيعتها المُقلِقة، فلم تخرج عن نطاق التصنيف العسكري. على سبيل المثال مفهوم "العمليات القتالية غير العسكرية" المذكور آنفاً أوسع في المعنى من العمليات العسكرية القتالية ويمكن على الأقل أن يوضع ضمن ميادين ونماذج الحرب خارج مجال الرؤية للعسكري الأمريكي -إن هذا الميدان الواسع هو بالضبط المنطقة المشتركة في مستقبل العسكريين والسياسيين الأمريكيين لتطوير

1 حسب مقال: «تغييرات على مسودة أساسيات الحرب المنشورة حديثاً» لشياوين نيل في آرمي تايمز، 18 آب سنة 1997.



مخيلتهم وإبداعهم- بنتيجة لا يمكن اعتبارها حقيقية تماماً: "الأبعاد الشاملة". ناهيك عن عبارة "الأبعاد الشاملة" في الجيش الأمريكي، التي لم تتوصل في النهاية إلى عدد الأبعاد التي ستشير إليها، سواء كان كل عنصرين متداخلين يشكلان فضاءً جديداً أم أنهما عنصران مستقلان، مما يعني أن هذه العبارة لم تبلغ كل تفاصيلها ومازالت في حالة من الفوضى. إذاً إن لم يتم حصر المعنى الذي تشير إليه عبارة شاملة الأبعاد، فالعلاقة إذاً بين كل بعد -هذا المفهوم الأصلي بمكنونه الغني- لا يمكن إطلاقه تماماً. لا شك في أنه ما من أحد يمكنه شن حرب على مدى 360 درجة، ثلاثية الأبعاد مع الوقت والعناصر الأخرى غير الفيزيائية التي تُضاف وفقاً لشمولية الأبعاد، وأي حرب سيكون لها نبرتها الخاصة وتُشنُّ على الدوام ضمن بُعد محدد وتُنهى ضمن بعد محدد، والفرق الوحيد هو أنه في المستقبل القريب، لن تكون العمليات العسكرية هي الحرب برُمَّتِها، ولن تكون حتى بعداً واحداً ضمن بعد كلي، حتى أن إضافة "عمليات عسكرية غير قتالية" كما اقترح الجنرال فرانك لا يمكن اعتباره شمولية الأبعاد. يمكن إدراك أهمية الحرب شاملة الأبعاد من خلال إضافة جميع "العمليات القتالية غير العسكرية" باستثناء العمليات العسكرية. ما يجب تبيانه هو أن هذه الأيديولوجيا لم تظهر في كل الأبحاث النظرية للجيش الأمريكي منذ حرب الخليج[1]، حتى ولو كانت هذه المفاهيم عن "العمليات العسكرية غير القتالية" و"الحرب الشاملة الأبعاد" مليئة بالأفكار الأصلية وقريبة جداً من الثورة الأيديولوجية العسكرية التي بدأت من الثورة العسكرية التقنية، ويمكن القول أنها وصلت إلى شفا الهاوية في قمة الجبل عن طريق وعر وقمة الجبل التي يتنزّل إليها الوحي ما تزال بعيدة. وهنا توقف الأمريكيون، والأرانب الأمريكية البرية التي توجّهت إلى كل بلد في العالم في التقنية العسكرية والأيديولوجيا العسكرية بدأت تلهث لالتقاط أنفاسها، لا يهم فيما إن كان سوفليان أو فرانك تركوا "الأرانب

1 ربما يكون هنالك مقال واحد، «ثورة نظرية عسكرية: النشاط المشترك المتنوع النشط المتعدد الأبعاد للحرب، كتبه أنتوليو أيكيويليا وأوضح فيه أن «الأبعاد المتنوعة» للحرب لا يجب أن تكون أشياء من قبيل الطول والاتساع والعمق، والعمق أشارت إليه النظرية جغرافياً ومكانياً. وبدلاً من هذا هنالك عوامل متصلة عاطفياً بالحرب كالسياسة والمجتمع والتقنية والقتال واللوجستيات. لكن من السيئ جداً أنه لا يزال يركِّز على المحور العسكري للنظر في الحرب دون أن يتقدم في فهمه للحرب.



المنطلقة" تتنفس عبر العديد من الأطروحات العسكرية بعد حرب الخليج، إلا أنهم لا يستطيعون ترك جميع السلاحف خلفهم.

ربما هذا هو الوقت المناسب للمقدم لوني هينلي[1] والأمريكيون الذين شككوا في قدرة الثورات العسكرية في البلدان الأخرى ليراجعوا ضمائرهم:

لماذا لم تحدث ثورة؟

1 في المؤتمر الاستراتيجي الذي عقدته كلية الحرب في الولايات المتحدة غي نيسان سنة 1996، كتب الكولونيل لوني هينلي ورقة لتقرير بعنوان الصين في القرن الحادي والعشرين: شريك استراتيجي... أم عدو. وكانت النتيجة: «في السنوات الخمس والعشرين الأولى من القرن القتالي، ستعجز الصين عن تحقيق ثورة عسكرية، (انظر البيانات العسكرية الأجنبية لأكاديمية العلوم العسكرية قسم البحوث العسكرية الأجنبية، حزيران سنة 1997).

الجزء الثاني:

مناقشة للطرق الجديدة للعملية

كما أن الماء ليس له شكل ثابت كذلك ليس للجنود موقع ثابت، وتحقيق النصر استجابة للتغييرات لدى العدو يسمى معجزة.

صن تزو

معرفة اتجاه الحرب فن مشابه لتشخيص الطبيب للمريض.

فولي



تعبير "الثورة العسكرية" شائع شيوع محبي جوردان وسط دوري كرة السلة الممتاز، وبصرف النظر عن أن ظهور أي شيء جديد يأتي نتيجة توافر عوامل معينة تجعله ضرورياً، أخشى من أن ظهور شيء جديد لدى الأمريكيين مرتبط بعمل أناس بارعين في صناعة الأفكار الرائجة، فالأمريكيون الذين أحبوا على الدوام السبق العالمي فيما يتعلق بقضايا عديدة ماهرون جداً بتغليف قضايا معينة بشكل جميل وفقاً لمنظور كل فئة ثم ضخِّها في العالم أجمع. حتى أن العديد من الأمم باتت قلقة ومقاوِمة للغزو الأمريكي الثقافي، على الرغم من أن معظم البلدان حذت حذوها وقلَّدَتها في كل ما يتعلق بالثورة العسكرية. ولأن بيري وزير الدفاع الأمريكي السابق، أكّد على تكنولوجيا الإخفاء وسُمِّي "أبو الإخفاء"، عندما سأله باحث صيني زائر: "ما هي أهم الإنجازات والتقدمات في الثورة العسكرية الأمريكية؟" أجاب بلا تفكير "إنها الإخفاء الطبيعي وتكنولوجيا المعلومات"، مثَّلت إجابة بيري الرأي السائد في الدوائر العسكرية الأمريكية، فالثورة العسكرية الأمريكية هي الثورة في التقنية العسكرية، من وجهة نظر بيري وأمثاله فمن الضروري فقط حل المشكلة من منظور التكنولوجيا بما يسمح للعسكريين أمام الأكمة أن يعرفوا ما وراء الأكَمَة ومن ثم فهذا يعني بالنسبة له إنجاز هذه الثورة العسكرية[1]. فالمراقبة وإمعان التفكير وحل المشكلات من وجهة نظر التكنولوجيا هو أنموذج التفكير الأمريكي، وسيئاته وحسناته واضحة، تماماً مثال سمات الشخصية الأمريكية. هذا النوع من الأفكار الذي يساوي الثورة التقنية بالثورة العسكرية ظهر من خلال الشكل الذي اتّخَذَتهُ حرب الخليج وكان له تأثير قوي على كافة جيوش العالم. لم يكن هنالك الكثير من الناس ممن يستطيعون البقاء هادئين وواضحين حيال هذا الموقف، وبطبيعة الحال لم يكتشف الكثيرون سوء الفهم الذي وقع فيه الأمريكيون وبدأ يتسبب بسوء فهم على

1 عندما كان العقيد شين بوجيانغ، الباحث الزميل في معهد العلوم العسكرية، في زيارة إلى الباحثين في الولايات المتحدة، زار مجموعة من العسكريين المهمّين، وسأل شين بوجيانغ بيري: «ما أهم الإنجازات التي حققتها الثورة العسكرية الأمريكية؟» كان رده: «كان أكبر تقدم بلا شك في تكنولوجيا الإخفاء. إنه تقدم كبير، ومع هذا أريد أن أقول إنه في نطاق آخر مختلف تماماً، حدث شيء لا يقل أهمية؛ ألا وهو اختراع تقنية المعلومات. فتقنية المعلومات حلَّت المشكلة التي طالما طالب العسكريون بحلها لعدة قرون، لا سيما: ماذا يوجد وراء الجبل التالي؟ وكان التقدم لحل هذه المشكلة بطيئاً جداً لعدة قرون. وأصبح التقدم في التكنولوجيا سريعاً بشكل كبير جداً على مدى السنوات العشر الماضية، حيث أضحى هنالك طرق ثورية لحل هذه المشكلة». كبروفيسور في كلية الهندسة في جامعة ستانفورد، كان بيري بطبيعة الحال توّاقاً لمراقبة وفهم الثورة العسكرية من وجهة النظر التقنية. وهو بلا شك مؤيد للثورة التقنية العسكرية.

مستوى العالم بأسره حيث انتشرت الثورة العسكرية على مستوى العالم. وبات شعار "بناء جيش بأحدث التقنيات" شبيهاً بإعصار المحيط الأطلسي، حيث يضرب مزيداً ومزيداً من البلدان[1] وحتى في الصين، التي تقع على الجانب الغربي من المحيط الأطلسي، يبدو أن أمواجه ضربت سواحلها خلال ذات الفترة.

لا يمكن إنكار أن الثورة التقنية العسكرية هي حجر الأساس في الثورة العسكرية، لكن لا يمكن اعتبارها الثورة العسكرية بأكملها، بل إنها في أفضل أحوالها مجرد خطوة أولى لهذا الإعصار الذي يشق طريقه. فأعلى تجسيد وآخِر إتمام للثورة العسكرية يتلخَّص في ثورة الفكر العسكري، التي لا يمكن أن تبقى بها بهذا المستوى المتدني بعد تشكيل التكنولوجيا العسكرية وتشكيل النظام. الثورة في الفكر العسكري في تحليلها النهائي، هي ثورة في طرق وأساليب القتال، والثورة في التكنولوجيا العسكرية جيدة كما هو الإصلاح في النظام المتشكِّل، لكن نتائجها النهائية تعتمد على التغييرات في طرق وأساليب القتال، وإتمام هذا التغيير فقط هو ما من شأنه أن يدل على نضج الثورة العسكرية[2]، إن اعتُبِرَت الثورة في التكنولوجيا العسكرية مرحلة أولى للثورة العسكرية، فنحن

1 في «تلخيص للموقف العسكري» عام 1997 في كتاب العالم العسكري السنوي، أوضح الكتاب أن: «كان الاختراق الخاص في الموقف العسكري في عامي 1996-1995 أن بعضاً من الدول الكبرى بدأت الضغط لاستخدام التكنولوجيا العالية لبناء الجيش، في إطار تحسين نوعية الجيش. واستخدمت الولايات المتحدة هدف رقمنة الميدان المعركة كهدف لترسيخ سياسة استخدام التكنولوجيا العالية لبناء الجيش. وأقامت اليابان برنامجاً جديداً لإعادة تنظيم قوات الدفاع وتجهيزها وسعت لإنشاء «قوة عسكرية ضاربة عالية التقنية». ومضت ألمانيا قدماً في ديرباي وهو التقرير الذي يهدف إلى إحراز التقدم في ثماني تقنيات معقدة. وطرحت فرنسا خطة إصلاح جديدة لرفع «نوعية التقنية» للقوات العسكرية. كما اتخذت إنكلترا وروسيا بعض الإجراءات؛ وبعض الدول الصغيرة والمتوسطة اشترت هي الأخرى أسلحة متقدمة في محاولة منها تدارك المستوى التقني العسكري «بلوغ الهدف بخطوة واحدة».

2 بصرف النظر عن النظرة التي تساوي بين الثورة في التكنولوجيا العسكرية والثورة العسكرية، يتوق العديدون لأن يروا الثورة العسكرية على أنها ناتجة عن الدمج بين التكنولوجيا الحديثة والمؤسسات العسكرية الحديثة والأفكار العسكرية الحديثة. على سبيل المثال قال ستيفين ميازي وتوماس كايويتي في تقريرهما بعنوان الاستراتيجية والثورة العسكرية: من النظرية إلى السياسة: «ما يسمى الثورة العسكرية تتكون من تغييرات متزامنة و متبادلة في مجالات التكنولوجيا العسكرية، وأنظمة التسليح وطرق القتال ونظام تنظيم القوات، حيث يوجد طفرة في الكفاءة القتالية للجيش» (تقرير أبحاث معهد الأبحاث الاستراتيجية للجيش الأمريكي بعنوان الثورة الاستراتيجية والعسكرية: من النظرية إلى التطبيق) كما يعتبر تقرير بحثي لمركز الأبحاث الأمريكية للشؤون العالمية حول الثورة العسكرية، أن الثورة العسكرية هي النتيجة المشتركة للعديد من العوامل. ويساوي توفلر بين الثورة العسكرية واستبدال الحضارة، وهو أمر غير عملي.

الآن في المرحلة الثانية الأساسية المهمة من الثورة. والاقتراب من إتمام الثورة في التكنولوجيا العسكرية ينذر إلى حد بعيد ببداية المرحلة الجديدة، التي تمثِّل إلى حدٍ بعيد مشكلات في تنفيذ العمل الأيديولوجي في المرحلة الأولى: بينما الثورة في التقنية العسكرية سمحت للمرء باختيار الإجراءات على نطاق واسع، كما صنعت هذه المعايير لدرجة أن المرء بات مُهدداً بهذه الإجراءات ضمن نفس النطاق (لأن احتكار نوع واحد من التكنولوجيا أصعب بكثير من ابتكار نوع منها). هذه التهديدات لم تكن يوماً كما هي اليوم لأن المعايير متنوعة ودائمة التغيير، وهذا يعطي المرء شعوراً دائماً برؤية العدو في كل مكان. أي اتجاه أو إجراء أو شخص يمكن في أي وقت أن يتحول إلى تهديد على أمن الدولة، وبصرف النظر عن إمكانية الإحساس الواضح بوجود التهديد فمن الصعب جداً على المرء أن يكون يعرف بوضوح الاتجاه الذي يمكن أن يأتي التهديد منه.

اعتاد العسكريون والسياسيون على حد سواء على اتباع نمط محدد من التفكير، ووفقاً لهذا النمط من التفكير فالتهديد الرئيسي على الأمن القومي هو القوة العسكرية لدولة معادية أو دولة قد تصبح معادية. رغم أن الحروب والحوادث الرئيسية التي جرت خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين قدّمت لنا وشكّلت دليلاً قاطعاً على أن الحقيقية هي العكس من هذا: فالقوات العسكرية لم تعد كما كانت العامل الرئيسي المؤثِّر على الأمن القومي. صحيح أن المماحكات الإقليمية والصراعات القومية والنزاعات الدينية وتقاسم مناطق النفوذ كانت وما تزال أسباب الحروب في التاريخ الإنساني، وأسباباً لحروب تُشن بالوكالة عن دول ذات اتجاهات متناقضة، هذه العوامل التقليدية تصبح على نحو متزايد أكثر تداخلاً مع: السيطرة على الموارد والمنافسة على الأسواق والتحكم في رؤوس الأموال والعقوبات التجارية وغيرها من العوامل الاقتصادية، لدرجة أن العوامل من الفئة الأولى تكاد تكون في المرتبة الثانية بعد العوامل الاقتصادية. هذه العوامل تتكون من نمط جديد من التهديدات لأمن السياسة والاقتصاد والجيش لدولة من الدول، وهذا نمط ربما لا يتَّسم بأي قدر من المظهر العسكري من الخارج، ولذا وصفهم بعض



المراقبين بأنهم "الحروب الثانوية" أو "الحروب الموازية"[1]. ومع هذا فالدمار الذي أحدثه هذا النمط من التهديدات في المناطق المُهاجَمَة ليس بالتأكيد ثانوياً بالنسبة للحروب العسكرية البحتة. وفي هذا الصدد لسنا بحاجة سوى لذكر أسماء المختلّين أمثال: جورج سورس، بن لادن، إسكوبار، أساهارا شوكو وكيفين ميتنيك[2]. ربما لا يستطيع أحد تحديد متى بدأت بعض الجهات الفاعلة الحروب التي لم تعد تقتصر على الدول ذات السيادة فقط، لكن شينريكو الياباني والمافيا الإيطالية والتنظيمات الإسلامية المتشددة، وعصابة "القمر الذهبي الجديد" الكولومبية، والشخصيات السرية ذات النيات الشريرة، وأصحاب رؤوس الأموال الذين يسيطرون على عدد كبير من البنوك الكبيرة، وكذلك أفراد غير مُتَّزنين نفسياً يحاولون تحقيق هدف محدد ولديهم شخصيات عنيدة ويتسمون بالإصرار، كل هؤلاء يمكن أن يصبحوا صانعي حرب عسكرية أو غير عسكرية. والأسلحة التي يستخدمونها يمكن أن تكون الطائرات الحربية أو المدافع أو الغازات السامة أو القنابل أو المواد البيوكيميائية وكذلك فيروسات الحاسوب، ومتصفحات الشبكة وأدوات التمويل. مما يعني أن كل طرق الحرب الجديدة والإجراءات الاستراتيجية التي يمكن للتكنولوجيا الجديدة أن تقدمها؛ يمكن أن يستفيد منها هؤلاء المُتعصِّبون لتنفيذ هجمات من كل الأشكال سواء كانت مالية أو سيبرانية أو إعلامية أو إرهابية. ومعظم هذه الهجمات ليست أعمالاً عسكرية، رغم أنها يمكن أن تكون مساوية تماماً للأعمال الحربية التي تجبر الدول الأخرى على الرضوخ إلى مصالح المهاجمين ومطالبهم. وهؤلاء لديهم ذات القوة التدميرية اللازمة للحرب العسكرية أو ما يزيد عليها، وشكَّلوا مُسبقاً تهديدات خطيرة مختلفة عن الماضي وفي العديد من الاتجاهات على أمننا القومي برمته.

بأخذ هذا الموقف بعين الاعتبار، من الضروري توسيع الرؤية قليلاً، حيث ستتمكن

1 انظر كتاب تشاو يينغ: نظرة جديدة للأمن القومي.

2 نورس: كيفين ديفيد ميتنيك مستشار أمن الحاسوب، يهودي أمريكي، من أكبر الهاكرز في العالم ولد في 6 أيلول/ سبتمبر عام 1963 وهو أحد أشهر مخترقي الأنظمة. تم اعتقاله لأول مرة من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي في 15 شباط/ فبراير 1995. جوروج سورس: مضارِب مالي، بن لادن: مؤسس تنظيم قاعدة الجهاد، إسكوبار: مهرب مخدرات سيء السمعة، ماتسوموتو (شينزو) مؤسس طائفة أومشنريكيو في اليابان.

من رؤية الأمن القومي بناءً على الانتماء الإقليمي الذي بات منتهي الصلاحية. التهديد الرئيسي للأمن القومي بعيد عن كونه محدوداً بالعدوان العسكري لقوى معادية على أراضي أو أجواء أو مياه دولة أخرى. وفيما يخص مدى التراجع في مؤشر الأمن القومي، عندما نقارن تايلاند وإندونيسيا، اللتين عانتا لعدة شهور من انخفاض قيمة العملة بمقدار عشرات بالمئة وبات اقتصادهما قريباً من الإفلاس، مع العراق الذي عانى من الاحتواء المزدوج عبر الهجمات العسكرية والمقاطعة الاقتصادية، أخشى أنه ليس ثمة فارق كبير. وحتى الولايات المتحدة تلك القوة العظمى الوحيدة التي خرجت من الحرب الباردة، أدركت هي الأخرى أن الدولة الأقوى تكون عادةً الدولة الأكثر أعداءً والأكثر تعرُّضاً للتهديدات من غيرها. في تقارير الدفاع الوطني للولايات المتحدة لعدة سنوات مالية متتالية، وبعيداً عن إدراج "الدول القوية إقليمياً والمعادية للمصالح الأمريكية" في ترتيب من عشر تهديدات رئيسية، كما اعتبرت هذه التقارير "الإرهاب والأنشطة التخريبية والظروف الأناركية التي تهدد استقرار الحكومة الفيدرالية والازدهار الأمريكي والنمو الاقتصادي، وكذلك تجارة المخدرات والجرائم الدولية" تهديدات للولايات المتحدة. ونتيجة لذلك وسَّعوا مدى البحث المتعدد النطاقات عن التهديدات المحتملة للأمن القومي[1]. وبالفعل،

1 ذكر وزير الدفاع الأمريكي التهديدات العديدة التي تواجه الولايات المتحدة في كل تقاريره حول الأمن القومي في أعوام 1996 و1997 و1998 على التوالي. لكن هذا النوع من الرؤية الواسعة ليس في الحقيقة معياراً للمراقبة يمكن أن يحافظ عليه الأمريكيون دوماً بوعي ذاتي. في أيار من عام 1997، وضّح أنه في «البيئة الأمنية العالمية» فالجزء الأول من تقرير تحقيق الدفاع لمدة أربع سنوات نشرته وزارة الدفاع الأمريكية، يقول إن الولايات المتحدة ستواجه تحديات خطرة، أولها التهديدات القادمة من العراق وإيران والشرق الأوسط وشبه الجزيرة الكورية، ثانياً انتشار التقنيات الحساسة مثل الأسلحة النووية والبيوكيميائية والكيميائية إضافة إلى توصيل التكنولوجيا وتقنية حرب المعلومات، وتقنية التخفي إلخ. ثالثاً النشاط الإرهابي وتجارة المخدرات غير القانونية ومنظمات الجريمة العالمية والهجرة المنفلتة من عقالها، رابعاً تهديد انتشار الأسلحة الصغيرة المضادة للأشخاص. «الأمم التي يمكنها منافسة الولايات المتحدة لن تظهر قبل سنة 2015 وحتى بعد 2015 ربما تظهر دول قوية إقليمياً أو دول قريبة من الدول الكبرى في القوة. ويعتبر البعض أنه حتى لو كانت آفاق الصين وروسيا مما لا يمكن التنبؤ به، فإنهما قد تكونا هذا النوع من الأعداء». هذا التقرير وهو جهد مشترك بين مكتب وزارة الدفاع وهيئة الأركان المشتركة، يبقى بطبيعة الحال ضمن ما يسمى التهديد العسكري الذي نصفه حقيقة ونصفه خيال. عند تحليل تهديدات عام 1997 للأمن القومي الأمريكي في هذا التقرير نجد قسماً خاصاً بما يسميه «عوامل غير معروفة» ويُظهِر فيه أن الأمريكيين خائفون ومتوترون من التهديدات المستقبلية.

ليست الولايات المتحدة وحدها بل جميع الدول التي تعبد رؤية السيادة الحديثة وسَّعَت دون وعي منها حدود الأمن إلى ميادين متعددة، بما فيها الميادين السياسية والاقتصادية والموارد والقوميات والأديان والثقافة والجماعات والجغرافية والبيئة والفضاء الخارجي إلخ[1]. هذا النوع من "النظرة الممتدة الميدان" هو فرضية لبقاء وتطور الدول حديثة الاستقلال إضافة إلى كفاحها لبسط النفوذ على العالم، وفي المقابل فالنظرة لاستخدام الدفاع الوطني كهدف رئيسي لأمن دولة يبدو فعلياً مما فات أوانه وعلى الأقل ليس فعالاً. الاستجابة إلى "نظرة الميدان الممتد" يجب أن تكون: المفهوم الأمني الجديد الذي يشتمل على المصالح الوطنية. وما يركِّز عليه بالتأكيد ليس محصوراً في قضية الأمن الوطني وإنما يمتد إلى الاحتياجات الأمنية في العديد من المناطق بما فيها الأمن السياسي والأمن الاقتصادي والأمن الثقافي والأمن المعلوماتي للدولة. هذه "نظرة واسعة للأمن" ترفع المفهوم التقليدي للميدان الإقليمي إلى نظرة ميدان المصالح للدولة.

العبء المتزايد لهذه الرؤية الواسعة للأمن تجلب معها تعقيدات للهدف إضافة إلى الوسائل والأساليب لتحقيق الهدف. ونتيجة لهذا فالاستراتيجية الوطنية لتحقيق الهدف، لا سيما ما يسمى بشكل عام الاستراتيجية العليا، تتطلب إجراء تعديلات تتجاوز الاستراتيجيات العسكرية وحتى الاستراتيجيات السياسية. مثل هذه الاستراتيجية تأخذ بعين الاعتبار كافة الأشياء التي تشكِّل جزءاً من اعتبارات

1 شياوموهان ماليك أسترالي، أوضح الاتجاهات السبعة التي ستؤثر على الأمن القومي خلال القرن الحادي والعشرين وهي: الاقتصاد العالمي، الانتشار العالمي للتكنولوجيا، المد العالمي للديمقراطية، استقطاب السياسات العالمية، التغييرات في طبيعة الأنظمة العالمية، تغييرات في مفاهيم الأمن، التغييرات في النقاط الأساسية للصراع. التأثيرات المشتركة لهذه الاتجاهات تشكِّل مصادر لنوعين من الصراع تهدد الأمن في منطقة آسيا والمحيط الهادي. الصنف الأول من مصادر الصراعات التقليدية: الصراع على الهيمنة بين الدول الكبيرة، توسع القومية للدول الناجحة، النزاعات حول الأراضي والمياه الإقليمية والمصالح، الصراعات الاقتصادية، تضخم القوة التدميرية للأسلحة. الصنف الثاني هو الأنواع الجديدة لصراعات المستقبل: القومية (العنصرية) لدى الدول المنحدرة، الصراعات على خلفية المعتقدات الدينية والثقافية، انتشار الأسلحة الخفيفة الفتاكة، النزاعات على البترول والصيد والموارد المائية، تدفق اللاجئين والسكان، الكوارث البيئية، والإرهاب. كل هذه تشكِّل تهديدات متعددة على الدول في القرن الحادي والعشرين. رأي هذا الكاتب الأسترالي يعتبر الأمن القومي أعلى قليلاً من الرأي الأمريكي الرسمي. (لمزيد من التفاصيل انظر الاستراتيجيات الأمريكية المقارنة عام 1997)



مؤشرات الأمن لمصالح الدولة بأكملها، إضافة إلى العوامل السياسية (الإرادة الوطنية، القيم، التماسك) والعسكرية على الاقتصاد والثقافة والعلاقات الخارجية والتكنولوجيا والمصادر الطبيعية والقوميات وغيرها من العوامل المؤثرة قبل أن يتمكن المرء من تصور "ميدان ممتد" كامل يتداخل مع المصالح الوطنية والأمن الوطني؛ وهما الخريطة الاستراتيجية الواسعة للموقف.

أي شخص يقف أمام هذه الخريطة للموقف سيشعر فجأة بالفزع من ضآلة حجمه أمام المحيط الواسع: فكيف يمكن لوسيلة وطريقة واحدة أن تغطي هذه المساحة الواسعة والممتدة، مثل هذه المصالح المُعَقَّدة وأحياناً المتناقضة، وهذه الأهداف المُعَقَّدَة وحتى المتصارعة؟ على سبيل المثال، كيف يمكن للوسائل العسكرية من قبيل "سياسات إراقة الدماء" التي تحدث عنها كلاوزفيتز أن تُستَخدَم لحل أزمة جنوب شرق آسيا المالية؟ أو كيف يستطيع قراصنة الكترونيون ممن يذهبون ويجيئون وكأنهم أشباح على الشبكة التعامل مع استخدام ذات النوع من الأساليب؟ النتيجة هي دليل ناصع على أن مجرد امتلاك سيف للتعامل مع الأمن القومي على المستوى المنظور الواسع للأمن لم يعد كافياً، فلا يمكن لدعامة واحدة أن تسند مبنى متداعياً. قبو الأمن للمبنى الوطني الحديث لا يمكن دعمه بقوة وحيدة من دعامة واحدة، ومفتاح بقائه منتصباً ومنع انهياره يكمن في إن كان يستطيع تشكيل قوة مُرَكَّبَة من كل الاعتبارات التي تتعلق بالأمن الوطني. كما أنه وبالنظر إلى هذا النوع من القوة المُرَكَّبَة، فليس من الضروري امتلاك هذا النوع من القوة المركبة ليصبح الوسيلة التي يمكن الاستفادة منها في العمليات الفعلية. ويجب أن تكون هذه "طريقة الحرب الكبيرة" التي تجمع كافة الأبعاد والطرق في منطقتين رئيسيتين من الشؤون العسكرية وغير العسكرية بحيث تُجري الحرب. وهذا هو نقيض الطرق التي جرت فيها الحروب في الماضي. وحالما ظهر هذا النوع من الحرب الكبيرة بات ضرورياً التحول إلى صيغة جديدة كلياً من الحرب التي تشمل وتتفوق على كل الأبعاد المؤثِّرة على الأمن الوطني. ومع هذا فعندما نحلل مبدأها نجد أنها ليست مُعَقَّدة بل مجرد عملية جمع بسيط. "فالطريقة تأتي بالأولى، والأولى تأتي بالثانية، والثانية تأتي



بعشرة آلاف شيء آخر"، وسواءً كانت شيئين أو ثلاثة أو عشرة آلاف شيء فإنها على الدوام نتيجة لعملية الجمع. وبعمليّة الجمع يتوفر دوماً وفرة وتغييرات لا تعد ولا تحصى وذات تنوع كبير. الجمع زاد تقريباً من وسائل الحرب الحديثة لتبلغ عدداً لا نهائياً، كما أنها غيَّرَت بشكل أساسي تعريف الحرب الحديثة الذي وضعه القدماء في الماضي: تُنَفَّذ الحرب باستخدام الأسلحة والوسائل الحديثة. وهذا يعني أنه بينما زيادة الإجراءات تقلل من تأثيرات الأسلحة، فإنها تضخِّم أيضاً من مفهوم الحرب الحديثة. وأخشى من أن معظم التطلعات القديمة للانتصارات كانت باستخدام الوسائل العسكرية عند خوض الحرب، حيث يكون اختيار الوسائل لتغطي ميدان المعركة واسعاً للغاية. ويجب على هؤلاء العسكريين والسياسيين ممن لديهم طموحات جامحة للنصر أن يوسِّعوا مجال رؤيتهم، وتحديد زمان وحجم الموقف، والاعتماد على أسلوب الحرب الرئيسي والتخلص من الغشاوة التي تفرضها النظرة التقليدية للحرب.



الفصل الخامس:

منهجية جديدة لألعاب الحرب

سادة تقنيات الحرب العظام في القرن الحادي والعشرين سيكونون أولئك الذين يبتكرون طرقاً للجمع بين إمكانات متنوعة لإنجاز أهداف تكتيكية واستراتيجية.

بير تيرفود

كل شيء يتغير، نحن نؤمن بأن عصر الثورة في أساليب العمل، حيث تكون كافة التغييرات التي ينطوي عليها الانفجار التقني، واستبدال الأسلحة وتطوير مفاهيم الأمن، وتعديل الأهداف الاستراتيجية، وغموض حدود ميدان المعركة، وتوسع مدى ومجال الوسائل غير العسكرية والأشخاص غير العسكريين ضمن الحرب كل هذا ينصب على نقطة واحدة كانت قد وصلت من قبل. هذه الثورة لا تسعى إلى أساليب العمل التي تتناسق مع كل نوع من التغيير، بل إنها بدلاً عن ذلك توجِد أسلوب عمل مشترك لكل هذه التغييرات، بمعنى إيجاد تقنية جديدة تستخدم أسلوباً واحداً لتغييرات لا حصر لها لحروب المستقبل[1].

1 الحرب لعبة نموذجية، وعلى الرغم من أنها ليست سريعة التأثر بنظريات الألعاب الكلاسيكية. والحرب في جوهرها هي السلوك الطبيعي للإنسان، وبناءً على التخمينات المتنوعة لمعنى «الإنسان المنطقي» تفشل طبيعياً وبسهولة. الآثار المريعة للأسلحة النووية جعلت الإنسان يرجع تدريجياً الحس المنطقي الذي افتقده لمدة طويلة في سلوكه اللاعقلاني. كما أن مسار العولمة دفع بالبشرية للتوافق مع تفكير «الإنسان المنطقي» بينما السعي للأمن القومي، وتعلم كيف تطلق العنان لـ«مأزق إطلاق الأحكام» ولم يعد يسقط في فخ «لعبة الديوك» من المنافسة على الهيمنة ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. واللعبة الاقتصادية بالتعاون والتنافس بدأت تتسرب إلى المجال العسكري وبدأت تؤثّر على الحرب في نطاقها الجديد.

إبعاد غيوم الحرب:

من رأى حرب الغد؟ لا أحد. ورغم هذا وردت فصولها المتنوعة على ألسنة العديد من الأنبياء وثبتت في شاشات ذهنية مثل رسوم كارتون بسيطة. من الحرب الغريبة للأقمار الصناعية في مدارات في الفضاء إلى ملاحقات الغواصات النووية في أعماق المحيطات، ومن القنابل الدقيقة التي تطلقها قاذفات دقيقة إلى صواريخ كروز تُطلَق من البوارج الحربية، إنهم يغطون السماء والأرض ويمكن القول إنهم كثيرون لدرجة أنه يَصعُب عدُّهم. وأفضل ما يعبِّر عنهم تعبيراً دقيقاً هو وصف المناورة الميدانية مع القوات نفذتها وحدة رقمية من الجيش الأمريكي في مركز التدريب الوطني فورت إيروين:

مع تنفيذ الوحدات الرقمية لمركز القيادة لدور "الوحدات الزرقاء" كان الحاسوب يُدخل ويعالج المعلومات التي يتلقاها من الأقمار الصناعية وطائرة "النجم المشترك"، طائرات الإنذار المبكّر تراقب الأجواء، الطائرات القاذفة الموجَّهة بالأقمار الصناعية وطائرات الإنذار المبكر استخدمت الصواريخ الدقيقة لمهاجمة الأهداف، القوات المدرعة والحوّامات المدرعة تناوبت على شن هجمات ثلاثية الأبعاد على العدو، جنود المشاة استخدموا أجهزة حاسوب محمول لتلقي الأوامر واستخدام أسلحة آلية مع أجهزة رؤية محمولة على الخوذات، والمشهد الأروع كان بالفعل عندما هاجم جندي خمسة فئران على التوالي ووجّه نيران مدفعيته نحو مجموعة من دبابات العدو على الجانب الآخر من الجبل، وأظهرت شاشة حاسوب دبابات العدو وقد أصيبت.

ما يسمى "جيش القرن الحادي والعشرين" و"القوات الزرقاء" المجهزة بمعدات رقمية والتي عملت في صحراء موجاف، كانت النتيجة النهائية لهذا التدريب هي نصر واحد وتعادل واحد وست خسارات، لكن "جيش القرن الحادي والعشرين" و"القوات الزرقاء" خسروا أمام "القوات الحمراء" المجهزة بعتاد تقليدي، إلا أن هذا لم يمنع وزير الدفاع كوهين في إيجاز صحفي بعد انتهاء التدريب من التصريح:

أعتقد أنكم جميعاً تشهدون على الثورة العسكرية هنا.......[1]

من الجلي أن الثورة العسكرية التي أشار إليها كوهين مطابقة لفهم أولئك الأنبياء للحرب الذين تحدثنا عنهم آنفاً.

المنتصر يحب دوماً أن يسير على طريق النصر، ومثل الجيش الفرنسي الذي اعتمد على خنادق فيردان للانتصار في الحرب العالمية الأولى، وأمِلَ أن يحقق ذات الانتصار عبر خط ماجينوت؛ يأمل الجيش الأمريكي الذي انتصر في حرب الخليج يأمل بمواصلة نمط "عاصفة الصحراء" خلال القرن الحادي والعشرين. ورغم التبجيل الذي أُسدِل على تقديرات شوارتزكوف إلا أن معظم الجنرالات الأمريكيين يدركون أنه من غير الممكن أن تكون الحروب في القرن القادم مجرد تكرار لحرب الخليج. ولهذا السبب بدأوا باستبدال تسليح الجيش الأمريكي حتى قبل انجلاء دخان المعارك، وأجروا كذلك تعديلات على نظريات القتال الأصلية والنظام التنظيمي. العسكريون في العالم بأسره رأوا نموذج الجيش الأمريكي في المستقبل ومفهوم أسلوب الحرب لدى الأمريكيين من "مفهوم القوات المشتركة سنة "2010 إلى "جيش المستقبل". وبأخذ علوّ سقف التوقعات بالحسبان، فهذا خارج المألوف. لم يكن بوسع الكثيرين تخيل أن النقطة العمياء في المجال المرئي لدى الأمريكيين يمكن أن يظهر هنا فقط.

وحتى هذا التاريخ تسير ميول التطوير في التسليح لدى الجيش الأمريكي، والتغييرات في السياسات الدفاعية، والثورة في النظريات القتالية، والتجديد في المراسيم واللوائح، وآراء القادة الكبار، تسير جميعها سراعاً في اتجاه واحد. فقد أكدوا على أن الوسائل العسكرية هي الوسائل النهائية لحل صراعات المستقبل، وأن النزاعات بين

---

1 بدايةً بـ15 آذار سنة 1997 نفَّذ الجيش الأمريكي تدريبات على مستوى عالٍ للواء المهام الرقمية لمدة 14 يوماً في مركز فورت إيروين الوطني للتدريب في كاليفورنيا. وحسب تصريحات رئيس الأركان الجنرال ريمير، فقد كانت الغاية من هذا الاختبار هي معرفة ما إن كان بوسع التكنولوجيا التي تتسلح بها هذه القوات في القرن الحادي والعشرين الإجابة على الفور على ثلاثة أسئلة حاسمة في الحرب الفعلية: أين أنا؟ أين رفاقي؟ أين أعدائي؟ ووفقاً لظروف الاختبار، فالقوات التي أجرت إعادة ترتيب واستخدمت الأسلحة الجديدة ذات التكنولوجيا الرقمية كانت أسرع وأشد فتكاً وذات إمكانيات أكبر على البقاء من الجيش الراهن. انظر إلى تقارير «أخبار الدفاع في الولايات المتحدة 23-17 آذار سنة 1997، لمزيد من التفاصيل التي تتعلق بهذا التدريب.

جميع الدول ستؤول في نهاية المطاف إلى جيشين كبيرين يلتقيان في ساحة المعركة. وبأخذ هذه الفرضية بعين الاعتبار، يسعى الجيش الأمريكي لجعل نفسه قادراً على الانتصار في حربين تجريان في ميدانين مختلفين، وأجرى الكثير من الاستعدادات لهذا [1]. والمشكلة هي من هناك في البنتاغون، مثل رئيس هيئة الأركان السابق الجنرال باور، الذي أدرك تماماً أن الولايات المتحدة كانت تركز معظم طاقاتها على خوض حرب" على شاكلة الحرب الباردة التي قد لا تتكرر ثانية" وكانت توجّه قوتها في الاتجاه الخاطئ؟[2] ويعود هذا إلى أن الاتجاه العالمي في نهاية القرن العشرين واضح تماماً. وكما نرى عملياً، فعصر الحروب كمسألة تتعلق بانتقال الأسلحة والجنود لم يصبح أمراً واقعاً بعد، لكنه كمفهوم بدأ يتراجع بشكل ملحوظ. فبعد الزيادة في عدد المعاهدات الدولية للحد من سباق التسلح وانتشار الأسلحة، وسّعت الأمم المتحدة والمنظمات الدولية من قوة تدخلها في الحروب المحلية والصراعات الإقليمية وخفّضت نسبياً من المعالجة العسكرية للأمن القومي، وعلى النقيض فالطفرة الكبيرة في كمية تقنيات الأسلحة ذات التقنية العالية ستزيد بشكل كبير من احتمالات الإجراءات غير العسكرية التي تهدد الأمن القومي، والمجتمع الدولي في حيرة من أمره حيال ما يجب فعله عند مواجهة التهديدات غير العسكرية التي لا تقل تدميراً عن الحرب التقليدية، ويفتقر إلى القوانين الرادعة والفعالة. سرّع هذا حدوث الحروب غير العسكرية، وفي نفس الوقت أودى بالمفاهيم والأنظمة القديمة للأمن القومي إلى حافة الانهيار. وفيما عدا تزايد الهجمات الإرهابية، والحروب السيبرانية، والحروب المالية وحروب الفيروسات الحاسوبية التي ستسيطر على

---

1 أكَّدَت «استراتيجية الجيش الوطني لعام 1997» للولايات المتحدة مجدداً على أن مهمة ومستوى القدرة العسكرية للولايات المتحدة هو الانتصار في ذات الوقت في حربين إقليميتين واسعتي النطاق. وبالفعل ما تزال الاستراتيجية العسكرية وسياسية بناء الجيش في حقبة الحرب الباردة متواصلة. وأوضح جيمس بلاكر في مقاله بعنوان «بناء جيش الولايات المتحدة وفقاً للثورة العسكرية، حيث تختلف خطة إصلاح القوات عن تقرير الاختبار العسكرية لمدة أربع سنوات» بأن هذه السياسة «كانت خطة عسكرية مُعَدَّة منذ عشرين سنة واختيرت خلال فترة انتهت منذ عشر سنوات» (عدد الصيف سنة 1997 من مجلة الاستراتيجية العسكرية).

2 انظر التقرير الصادر عن معهد الأبحاث الاستراتيجية الصادر عن الكلية الحربية في الولايات المتحدة، واستراتيجية الثورة العسكرية في: من النظرية إلى السياسة، الفصل الثامن.

المستقبل، يوجد أيضاً أشكال متعددة من "حروب المفهوم الجديد" التي يصعب اصطلاح اسم لها وهي كفيلة بجعل وجهة النظر الأمنية التي تقول: "مقاومة العدو في الخارج قبل مقاومته في الداخل" مما عفا عليه الزمن.

ليس الأمر أن دوائر الجيش الأمريكي لم تلاحظ هذه الميزة للقضاء على العدو المتمثل في التهديدات العسكرية وغير العسكرية (أشرنا آنفاً لتقارير عديدة تتعلق بالأمن القومي لعدة سنوات متتالية صادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية) بل إنهم دفعوا بالحل في المشكلة الثانية إلى السياسيين ووكالة المخابرات المركزية وبالتالي انسحبوا من كل حروب الأبعاد الموجودة، والعمليات غير القتالية والآراء الأخرى الجديدة. وقلّصوا دورهم أكثر فأكثر حتى باتوا شجرة تتدلى منها أنواع عديدة للأسلحة المتطورة تنتظر أن يرتطم بها أرنب أحمق مشوش الذهن، وقد اصطدم بالفعل صدام حسين بهذه الشجرة فتساقطت عليه هذه الأسلحة، لكن من سيكون النوع التالي من الأرانب؟

وبأخذ الحالة الذهنية للعسكريين الأمريكيين -وهي أشبه ما تكون بالتربص وسط الظلام بيد ممسكة بالخنجر- فقد فَقَدَ الأمريكيون أعداءهم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي السابق وبدأوا يبحثون بدأب عن سبب ينقذهم من "البطالة". لذا نجدهم من أكبر جنرال حتى أدنى جندي، ومن أصغر التشكيلات الهجومية إلى الخنادق الدفاعية، ومن أعظم الاستراتيجيات إلى أبسط التكتيكات العملياتي، كل ما يفعله الجيش الأمريكي هو التخطيط للانتصار في حرب كبيرة. لا ينبغي القول إنه طالما لن يكون في المستقبل جيوش متقابلة فإن الدوائر العسكرية الأمريكية وحتى الكونجرس الأمريكي لن يخشوا من خسارة هدفهم، فالنتيجة هي إن لم يكن هنالك عدو فيجب اختلاق عدو، لذا فحتى في منطقة صغيرة جداً مثل كوسوفو لا يستطيعون تفويت الفرصة لتجربة أسلحتهم الجديدة. محاولة الأوساط العسكرية الأمريكية حل المشكلات إما باستخدام القوة أو عدم استخدامها أبداً أشبه بعملية اعتصار ضرع الثور لاستخلاص الحليب منه، وبعد تمدد جذورهم خارج منطقة الحرب إلى منطقة الأعمال غير العسكرية، لم يعودوا يرغبون بتمديد أنفسهم إلى منطقة أبعد وهم الآن في منطقة تكوين الحرب غير العسكرية. ربما يكون هذا

بسبب نقص الحساسية للأشياء الجديدة وربما يكون أيضاً نتيجة لعادة العمل، وربما بسبب محدودية التفكير. وبغضِّ النظر عن السبب، فالجندي الأمريكي تغشي الحرب عينيه على الدوام، وهذه حقيقة لا مِراء فيها.

وحتى لو كانت الولايات المتحدة تتحمل وطأة مواجهة تهديد من النوع غير العسكري وكانت الجانب المتأذي مرة بعد مرة، فالمفاجئ في هذا هو أن دولة بهذا الحجم ليس لديها استراتيجية موحدة وبنية قيادة للتعامل مع التهديد على غير المتوقع. وما يجعل المرء يحتار أيضحك أم يبكي هو أن لديهم 49 وزارة ومكتباً مسؤولاً عن مكافحة الأنشطة الإرهابية، لكن ليس هنالك سوى قدر ضئيل جدا من التعاون والتنسيق بينهم، والدول الأخرى ليست أفضل بكثير من الولايات المتحدة في هذه الناحية. المخصصات واتجاهات الاستثمار الأساسية للعديد من الدول فيما يتعلق بالاحتياجات الأمنية ما تزال مقتصرة على وزارات الدفاع والمخابرات والوزارات السياسية، لكن ما يزال ثمة القليل من الاستثمارات الهزيلة في الاتجاهات الأخرى، فالولايات المتحدة على سبيل المثال تستخدم سبعة مليارات دولار لتمويل مكافحة الإرهاب وهي 1/25 من أصل 250 مليار دولار هي الميزانية العسكرية.

وبغضِّ النظر عن المدى الذي تولي فيه كل دولة آذاناً صماء للتهديدات المُلِحَّة للحرب غير العسكرية، فهذا الموضوع يتعدى على بقاء البشرية خطوة خطوة، واتساع وسرعة هذا التعدِّي مبني على نمطها وسرعتها. وليس من الضروري الإشارة إليها كما سيكتشف الناس عندما يركِّز الجنس البشري انتباهه أكثر على السعي للسلام والحد من الحروب، والعديد من الأشياء في الأصل هي أشياء في حياتنا السلمية ثم تبدأ بالتحوّل واحدة تلو الأخرى إلى أسلحة قاتلة تدمر السلام. وحتى تلك القواعد الذهبية والوصايا الثمينة التي لطالما تمسّكنَا بها تبدأ هي الأخرى بالكشف عن اتجاهات متناقضة وتصبح وسيلة لبعض الدول لتتمكن من شن هجمات ضد دول أو منظمات أو أفراد آخرين ولتفعل هذا ضد المجتمع بأسره. مثلما: (في السيناريوهات التالية) عندما يكون هنالك حاسوب يكون هنالك فيروس حاسوبي، وعندما يكون هنالك عملة يكون هنالك مضاربة نقدية، وعندما يكون ثمة حرية عقيدة يكون

ثمة تطرف ديني وهرطقة، حقوق الإنسان والسيادة الوطنية، اقتصاديات حرة وحماية التجارة، الحكم الوطني والتوحد العالمي، المشاريع الوطنية في مقابل الشركات العابرة، التحرر المعلوماتي وحدود المعلومات، ومشاركة المعرفة واحتكار التكنولوجيا. من الضروري في كل ميدان أنه في أي لحظة غداً قد تندلع حرب حيث تتقاتل جماعات مختلفة من البشر من أماكن متقاربة. ميدان المعركة بجانبك والعدو في شبكتك، لكن لا يمكنك أن تشم رائحة البارود أو الدم.

ومع هذا في حرب كما في السابق، لأنها تتوافق مع تعريف الحرب الحديثة: إرغام العدو على الرضوخ لمصالح الطرف الآخر، من الواضح جداً أن أياً من الجنود في أي دولة يتمتع بالاستعدادات الكافية عقلياً ضد هذا النوع من الحرب الجديدة التي تجاوزت تماماً الفضاء العسكري، ومع هذا، فهذه بالفعل حقيقة مرّة يجب أن يواجهها جميع العسكريين.

التهديدات الجديدة تتطلب رؤى جديدة للأمن القومي، والرؤى الجديدة للأمن القومي تستلزم هي الأخرى جنوداً يستطيعون توسيع أفقهم قبل توسيع انتصاراتهم، وهذه قضية تتعلق بإبعاد السحب الرفيعة الطويلة التي تغطي مشهد الحرب أمام العيون.

تهافت قواعد وميدان فقدان الفعالية:

كوسيلة رصينة لحل الصراعات على البقاء والمصالح، كانت الحرب على الدوام الوحش الذي روَّضته البشرية، فمن جهة إنه منظِّف الشارع في السلسلة البيئية للمجتمع، ومن الجهة الثانية إنه التهديد المباشر الذي يهدد بإفناء الجنس البشري، كيف يمكننا التعامل معه دون أن نؤذي أنفسنا؟ على مدى آلاف السنين وخصوصاً في القرن العشرين، أثناء الفترات الزمنية الفاصلة بين نيران الحرب، كان ثمة قضية واحدة تشغل الجميع: وهي بذل الجهد لوضع الوحش في القفص. ولهذا السبب صاغ البشر عدداً لا يُحصى من المعاهدات والقوانين. من اتفاقية جنيف الشهيرة



إلى معاهدة الأمم المتحدة وإلى وقتنا الراهن، بدأوا باتخاذ حلول متنوعة تتعلق بالحرب، ليضعوا عوائق بعد أخرى في طريق الحروب المجنونة والدموية، وأرادوا الاستفادة من القوانين الدولية لخفض أضرار الحروب على البشرية إلى حدها الأدنى، بدءً بمنع استخدام الأسلحة البيوكيميائية، والقتل العشوائي للمدنيين، وسوء معاملة الأسرى، والحد من استخدام الألغام الأرضية...إلخ. إلى الانتشار الواسع لمعارضة استخدام القوة العسكرية أو التهديد باستخدامها للتعامل مع قضايا العلاقات الدولية. كل هذه القوانين باتت شيئاً فشيئاً تلقى القبول لدى الدول، وأكثر معاهدة جديرة بالثناء من هذه المعاهدات هي معاهدة منع انتشار السلاح النووي، وحظر التجارب النووية، والتقليص الثنائي المتعدد للأسلحة النووية إلخ، مما جَنّبَ البشرية الدخول في الشتاء النووي. وعند انتهاء الحرب الباردة شعر العالم بأجمعه بالسعادة الغامرة معتبرين أن: "السلام المخيف" قد بدأ. بعد أن استخدم شوارزكوف "العاصفة" لهزيمة صدام في حرب الخليج تاه الرئيس بوش عُجباً بالنجاح: "لقد نجح النظام العالمي الجديد في أول اختبار له"، لقد كان هذا مثل عودة تشمبرلين من ميونيخ يعلن أن البشرية سوف "تتحد معاً في عالم يحدوه الأمل بالسلام"، فماذا كانت النتيجة؟ ومثل تشمبرلين لقد أخذته نشوة النصر باكراً جداً[1].

بغض النظر عما إن كانت نهاية الحرب الباردة أو حرب الخليج هي مولد النظام العالمي الجديد، فلم يكن هذا النظام قادراً على الوفاء بوعود السياسيين للعالم والنظام الدولي الجديد الذي توقعته البشرية بأجمعها، انهيار الاستقطاب العالمي أدى إلى خروج وحوش الحروب المحلية من الأقفاص واحداً تلو الآخر لتغمر رواندا والصومال وبوهيميا والشيشان والكونغو وكوسوفو بأنهار من الدماء، واكتشف الناس هذه المرة كيف يمكن أن تنهار جهود السلام عبر آلاف السنين ضربة واحدة.

ظهور هذا النوع من الأوضاع مرتبط بالموقف العملي الذي تعتنقه كل دولة فيما

1 في الحقيقة كانت هذه مشكلة العراق التي لم يتمكن بوش هو الآخر من حلها أبداً. وبات صدام على نحو متزايد نقطة مؤلمة لم يتمكن الأمريكيون من إيجاد حل لها.

يتعلق بوضع القوانين الدولية، وفيما إن كانت كل دولة تقر بالقوانين أم لا يتوقف على ما إن كانت تستفيد منها أم لا. فالدول الصغيرة تأمل باستخدام القوانين لحماية مصالحها، أما الدول الكبيرة فتحاول الاستفادة من القوانين للهيمنة على الدول الأخرى. وعندما لا تتوافق القوانين مع مصالح دولة ما -بشكل عام- فإن الدول الكبرى تصحح انتهاك الدول الصغيرة للقوانين فيما يشبه فرض القانون بالقوة، أما عندما تنتهك الدول الكبرى القوانين، على سبيل المثال تفرض الولايات المتحدة قوانينها على بنما، حيث قبضت على رأس الدولة وجلبته للمحاكمة على أراضيها. وفي مثال آخر تتجاهل الهند معاهدة حظر التجارب النووية، كما ابتلعت دولة الهيملايا سيكيم، مثلما ابتلع العراق الكويت. تنهّد المجتمع الدولي مراراً وتكراراً من اليأس حائراً ما يفعل[1]. وعلى الرغم من هذا ففي أي موضوع يوجد على الدوام منافس لا يمكن التغلب عليه وعدو طبيعي يتمثّل بحق في القول الصيني الشائع: خثارة الفاصولياء تشكل محلولاً ملحياً، ولا بد أن يتغلب شيء على شيء آخر. في المجتمع الدولي، حيث يشارك عدد كبير من الدول، عندما تواجه الضعف والخور، في تشكيل القوانين والاستفادة منها إضافة إلى تجاهل القوانين وتدميرها عندما لا تصب هذه القوانين في مصلحتهم، من التناقض الذي ظهر حديثاً بسبب ظهور هذه القوى غير الحكومية المختصة أنها لا تعترف بأية قوانين وتختص بتقويض الأنظمة الوطنية القائمة وخصوصاً الدول الكبيرة، بينما يهددون بقاء البشرية، كما يؤدون تأثيرات صغيرة تؤثّر على توازن المجتمع والبيئة. بمعنى أن هذه القوى غير الحكومية تعمل كنوع من قوة تدمير المجتمع حيث تدمِّر كلاً من النظام العالمي الطبيعي وتحد من تدمير هذه الدول الصغيرة للمجتمع الدولي. على سبيل المثال، كان هنالك أعمال تطفل تحذيرية لهاكر مجهولين[2] على الموقع الإلكتروني لوزارة الدفاع الهندية بعد

1 عملية «ثعلب الصحراء» التي تبنَّتها مؤخراً الولايات المتحدة وانكلترا تمثِّل هي الأخرى جريمة خطيرة واضحة لدول كبرى تنتهك ميثاق الأمم المتحدة.

2 المعنى الأصلي لكلمة «هكر» كان محايداً ولا يحمل أي حط من الشأن. استخدم الهكر الأوائل هوسهم بالتكنولوجيا ونياتهم الطيبة اتجاه المجتمع ليشكِّلوا معياراً فريداً من نوعه للهكر، التزم به العديد منهم على أجيال من الهكر. أما في فضاء الشبكة اليوم حيث يتزايد الانحطاط الأخلاقي يوماً بعد يوم، لم يعد لهذا الموقف النبيل أي أثر.



أن أجرت تجارب نووية والعمليات العسكرية للمسلم الغني أسامة بن لادن بسبب رفضه للوجود الأمريكي في الشرق الأوسط. ورغم هذا فمن الصعب لنا الآن أن نحدد التأثيرات الإيجابية والسلبية لهذه الأعمال، مع أنه يمكن اعتبار هذه الأعمال صادرة عن شخصيات غير مسؤولة وتخريبية ولا تحترم القوانين.

النتيجة المباشرة لتدمير القوانين هي أن الميادين التي تتحدد بالحدود المرئية وغير المرئية والتي يعترف بها المجتمع الدولي تفقد فعاليتها. وهذا بسبب أن كل منفّذي هذه الأعمال ليسوا ضمن قوة تنتسب لدولة ويشنون حرباً غير عسكرية على المجتمع الدولي ويستخدمون وسائل تتجاوز الدول والمناطق والتدابير. والحدود الوطنية المرئية، وفضاء الانترنت غير المرئي، والقوانين الدولية، والقوانين الوطنية، والأعراف، والمبادئ الأخلاقية، بالتأكيد لها تأثير يقيِّدُهُم. ليسوا مسؤولين عن أحد، وليسوا مقيدين بأية قوانين، وليس هنالك ما يعيب في انتقاء الأهداف ولا في أية وسائل غير مستخدمة. وفيما يتعلق بالطبيعة السرية لتحركاتهم، فلديهم قوة اختفاء كبيرة جداً، ويُحدِثون ضرراً بالغاً بسبب سلوكهم القوي، ويبدون قسوة غير معتادة نتيجة هجماتهم العشوائية التي لا تميّز المدنيين عن غيرهم. كل هذا منشور في الوقت الحقيقي عبر التغطية المتواصلة لوسائل الإعلام الحديثة التي تقوّي من تأثيرات الإرهاب. عند شن هؤلاء الناس حرباً، لا يكون هناك إعلان للحرب، ولا ميدان معركة ثابت، ولا قتال وجهاً لوجه ولا قتل، وفي معظم الأحيان، لن يكون هنالك دخان البارود، ولا أسلحة نارية ولا دماء مسفوكة. ومع هذا فالدمار والإصابات التي يتعرض لها المجتمع الدولي ليس بحال من الأحوال أقل من نتائج تلك الحروب العسكرية.

بعد التلاشي التدريجي لأولئك الإرهابيين القدماء الذين تخصصوا في اختطاف الطائرات، والاغتيالات واتخاذ الرهائن، سرعان ما ظهرت قوات جديدة من الإرهابيين وسرعان ما ملئوا الفراغ الذي تركه أسلافهم. وفي غضون فترة قصيرة لا تزيد عن عشر سنوات تحولوا من أشخاص مجهولين إلى إزعاج عالمي كبير، وعلى رأسهم قراصنة الحاسوب (الهكرز)، انتشار الحواسيب الشخصية، وعلى وجه

الخصوص ابتكار الانترنت أدى إلى أعمال خبيثة يقوم بها الهكرز لتعريض النظام الاجتماعي الراهن للخطر. هؤلاء الهكرز الذين نتحدث عنهم هنا هم القتلة على شبكة الانترنت وممن يسرقون المعلومات أو يحذفون ويغيرون الملفات، يطلقون الفيروسات، ويحوّلون الأموال، ويدمّرون البرامج على الشبكة. وللتفريق بينهم وبين الهكرز غير الخبثاء يمكن أن نسمي الصنف الثاني "قطاع الطرق على الشبكة" أو "طغاة الشبكة" التي قد تكون أدق. قواهم لتدمير العالم صادمة، بداية سنة 1988، عندما بدأ الهكرز نشاطاتهم الأولى ولم يكن الناس يعرفون أي شيء عن أخطارهم، صمم روبرت موريس فيروس "الدودة" الصغير للغاية الذي شلَّ تماماً 6000 جهاز حاسوب للاستخدامات المدنية والعسكرية عبر الولايات المتحدة، بما فيها "مكتب تخطيط لوس انجلس" التابع لوزارة الدفاع الأمريكية، مؤسسة راند للأبحاث، وجامعة هارفارد. وبعد هذا بدأ هذا النوع من الحوادث بالظهور واحداً تلو الآخر في شبكات الانترنت للدول والمناطق. ومنذ أن بدأت الولايات المتحدة سعيها الجاد لمواجهة الجريمة الالكترونية عام 1990، لم تتناقص أنشطة الهكرز ولم تشهد أي انخفاض، بل على العكس انتشرت عالمياً انتشار النار في الهشيم. ومن الجدير بالملاحظة أنه بعد مرسوم "حرب المعلومات" الذي أصدره الجيش الأمريكي، الذي وضع جيوش الدول الأعداء أو المعارضين العالميين في نفس الخانة مع المستخدِمين غير المعتمَدين، ضمن الأفراد والإرهابيين والمنظمات غير الحكومية وأجهزة المخابرات، كمصادر ستة للتهديدات السيبرانية، بدأ الهكرز من ذوي الخلفيات الحكومية أو العسكرية بالفعل الكشف عن الأدلة[1]. لم يؤدي هذا إلى رص صفوف الهكرز لدرجة أن أعمال الهكرز الملاحقين تصاعدت سريعاً إلى مستوى

1 عام 1996 أُنشِئ مكتب نظام المعلومات في وزارة الدفاع الأمريكية لزيادة حماية أنظمة المعلومات العسكرية. وفي نفس السنة كان تأسيس اللجنة الرئاسية لحماية البنية التحتية الرئيسية للولايات المتحدة. وهذه الوحدة مسؤولة عن حماية أنظمة الاتصالات والأنظمة المالية والطاقة الكهربائية والمائية وخطوط الأنابيب وأنظمة النقل. حيث تعرَّضَت كل هذه الأنظمة لمخاطر حقيقية، وأفصح الكرّاس الميداني للعمليات بوضوح أنَّ: «التهديدات التي تواجه البنية التحتية للمعلومات حقيقية، ومصدرها هو العالم برمته، وتتركز هذه التهديدات في عدة نقاط تكنولوجية، فضلاً عن أن هذه التهديدات في تنامٍ مستمر. وتعود هذه التهديدات في الأصل إلى أفراد وجماعات ولهم دوافع عسكرية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو دينية أو فردية أو الفوائد التجارية. كما تأتي هذه التهديدات من بعض المجانين» (الترجمة الصينية لكرّاس العمليات الميداني الأمريكي، صفحة 7).

أعمال وطنية فحسب، بل أدى إلى زيادة توسيع تهديد الانترنت لجميع الدول (بما في ذلك الدول التي تضم هكرز حكوميين أو عسكريين) وبات من الصعب على نحو متزايد التنبؤ بهجماتهم أو الوقاية منها. الشيء الوحيد الذي أمكن التنبؤ به هو أن ضرر هذا النوع من التهديدات على الشبكة الحكومية الكبيرة للولايات المتحدة سيكون يقيناً أكبر منه على غيرها من الشبكات. وبأخذه هذا الحسابات بعين الاعتبار قال جاي سايتيردو المسؤول عن التحقيق في جرائم الحاسوب في الإف بي آي بمزيج من القلق والثقة بالنفس: "أعطني عشرة هكر مختارين بعناية، وسأكون قادراً في غضون 90 يوما على إخضاع هذه الدولة وإجبارها على إلقاء سلاحها والاستسلام"، وعند مقارنة هؤلاء الهكرز الإرهابيين على الشبكة بـ"قطاع الطرق على الشبكة" فقنابل بن لادن أقرب إلى الإرهاب التقليدي من حيث الموروث. ومع هذا لم يمنعنا هذا من اعتبارهم ضمن صفوف الإرهاب الجديد، ويعود السبب في هذا إلى جانب الدين أو التعليم المتطرف إلى الميول لتحدي سيطرة الدول الكبرى من بن لادن نفسه، يمكننا أن نلمح ظلال هؤلاء المقاتلين القدماء في الدول الكبرى ممن صنعوا ضجيجاً واستعراضاً زائفاً، لولعهم بأن يصبحوا محط الأنظار، ويستفيدون من الأسلحة الخفيفة وفي أسلوب واحد، لكن في المناطق الأخرى لا يستطيعون التحدث بذات الأسلوب. قبل التفجيرات الكبيرة في السفارات الأمريكية في نيروبي ودار السلام التي أصابت العالم بالذهول، كان بن لادن نفسه ضمن قائمة من ثلاثين اسماً لمنظمات إرهابية نشرتها المنظمة الدولية لمكافحة الإرهاب، ورغم أنه قد نُسِبَت إليه من قبل العديد من جرائم القتل، فقد كان "البطل المجهول" في العالم الإسلامي، والسبب في هذا هو أنه لم يتباهى بهذه الأعمال. وحتى بعد أن أطلق الأمريكيون صواريخ كروز عليه وأصدروا مذكرة اعتقال بحقه، أنكر مراراً وتكراراً صلته الشخصية بالتفجيرات. "التخفي والتستر" اللذان لهما نتائج أكبر، ويؤديان إلى نتائج أكبر ويُكسِبان سمعة غير مُستَحقَّة وغير متوقعة، ربما يكونان السمات الرئيسية للتنظيمات الإرهابية الجديدة الشبيهة بمنظمة بن لادن. كما أنهم وقد تعلموا كيف يستخدمون الوسائل الاقتصادية واستفادوا من الثغرات في الاقتصادات الحرة لدى الغرب؛ أسسوا شركات ومصارف وساهموا في الاتجار



بالمخدرات على نطاق واسع والتهريب وإعادة بيع الذخائر، وطباعة كميات كبيرة من العملة، والاعتماد على مساهمة الأتباع الدينيين للحصول على مصادر مالية مستقرة[1]، وبناءً على هذا فقد امتدت جذور هذه التنظيمات الإرهابية إلى مناطق أوسع، كما تعددت الوسائل، مثل الاستخدام الواسع للتنظيمات الدينية وتلك التي تحمل أفكاراً الهرطقة لتطوير إعلامهم ليتحول إلى حملات إعلامية مركَّزة، وإنشاء تنظيمات لها مليشيات تعمل ضد الحكومات ..إلخ. الإنجازات السهلة التي تزيد من تدفق الأموال تضمن أنهم سيتمكنون من تحصيل وإتقان استخدام كميات كبيرة من وسائل التقنية العالية بحيث يتمكنون من قتل عدد أكبر من الناس بطرق أسهل. وحتى اتساع أهداف الهجمات التي نفَّذوها حتى اليوم استهدفت الدول الغنية والغربية، وخصوصاً الدول التي تستطيع الهيمنة على دول أخرى، ومع ذلك فَهُمْ يشكِّلون تهديداً مشتركاً على النظام القائم، وتدميراً للقوانين المعروفة، وللمجتمع الدولي. ويمكن رؤية هذا من الظروف المعروفة التي تحاول هذه التنظيمات الإرهابية الجديدة النامية هي مجرد موجات سوداء تتحول ضمن الأنشطة الإرهابية العالمية الجديدة، وفي حكم المؤكد أيضاً أن هنالك تيارات أكثر ظلامية لا نعرفها تجري تحت الرماد.

يقترب المضارِبون الماليون حديثاً من هذا التيار المعاكس، رغم أنه لا أحد يُدرج أسماء هؤلاء التابعين الذين يرتدون ملابس أنيقة ويُحسِنون التصرف في صفوف الإرهابيين، لكن فيما يتعلق بالعواقب الكارثية لأعمالهم التي نفَّذوها في إنكلترا والمكسيك وجنوب شرق آسيا، فلا مجال للمقارنة بينهم وبين "قطاع الطرق على الشبكة" وبن لادن. عند التطرق لرجال الأعمال التماسيح من أمثال سورس، في قوة الاستثمار اليوم الذي يصل حجمه إلى 120 مليار دولار كرأس مال عائم، استخدم طرقاً تتعلق واستفاد من بعض قوانين الاقتصاد الحر ليغيِّر مراراً وتكراراً موقفه ويتلاعب بالسوق لإثارة المتاعب، بغية إحداث فوضى اقتصادية مرة بعد مرة. ونتيجة لهذا توسَّعت الدولة المتضررة تدريجياً من جنوب شرق آسيا إلى روسيا ثم

1 المثير للسخرية هو أن شركة البناء التي تملكها أسرة بن لادن باتت الشركة المنفِّذة لبناء ثكنات الجيش الأمريكي في العربية السعودية.

إلى اليابان وبعدها إلى أوروبا والولايات المتحدة، الذين كانوا يراقبون من بعيد ولم يستطيعوا النجاة بالاعتماد المحض على الحظ، وبالتالي بات النظام المالي القائم والنظام الاقتصادي في حالة صدمة شديدة في الصميم منه وبات هذا النوع من الأعمال خطراً جديداً يتهدد المجتمع الإنساني والأمن الدولي[1]. السمات النمطية للإرهاب هي: نفوذيتها للحدود، التخفي، لا تعمل وفق قوانين، وشديدة التدمير وهذا كله يجعلنا نسميه الإرهاب المالي.

أمام جهاز الدولة الهائل، ربما لا يكون للإرهابيين وتنظيماتهم أي قوة تذكر بمقارنة الأعداد والوسائل، لكن في الحقيقة ليس ثمة دولة واحدة تجرؤ على النظر إليهم باستخفاف، والسبب هو أن هؤلاء مجموعة من المهووسين لا يعملون وفقاً للقوانين، فالمنظمة الإرهابية التي تمتلك أسلحة نووية بالتأكيد أخطر بكثير من دولة لديها ذات السلاح، وعقيدة بن لادن هي: "إن كنت سأموت فلن أدع غيري يعيش"، وبالتالي فلن يوقفه شيء، لدرجة أنه مستعد لسفك دماء آلاف الأبرياء كي يقتل عشرة أمريكيين. أما منطق سوروس فهو: "أنا دخلت غرفتك لسرقة المال لأن بابك لم يكن مغلقاً" وبهذا يتنصل من مسؤولية تدمير اقتصادات الدول الأخرى، وتمريغ الأنظمة السياسية لهذه الدول بالفوضى.

يختفي بن لادن تحت عباءة الأصولية الإسلامية، وسوروس يخفي نفسه في غابات من الاقتصادات الحرة، والهكرز يخفون أنفسهم وراء أسلاك الشبكة، حيث لا وجود للحدود ولا تجدي الأسلاك الشائكة بين الدول. ويريدون إحداث تدمير عشوائي في حيّز منظَّم والتعامل بعنف وبعدها الهروب ضمن حيّز غير منظَّم، هؤلاء الإرهابيون الجدد شكَّلوا تحدياً خطيراً غير مسبوق للنظام العالمي الحالي، وجعلونا نشك بدرجة ثبات النظام الحالي. ربما أولئك الذين يتحرون عن تدمير القوانين وأولئك الذين يراجعون القوانين كلاهما ضروريان، ربما لأن أي تدمير للقوانين يتسبب دوماً بمشكلات جديدة تحتاج إلى التعامل معها بصرامة. في عصر يكاد

1 الجانب الأخطر في الإرهاب المالي هو «الأموال الساخنة» التي يمكنها شـن هجمات مدمِّرة على اقتصاديات الدول خلال أيام، وتتنوع الأهداف من البنوك الوطنية المركزية إلى الفقراء.

فيه النظام القديم أن ينتهي يكون أولئك الذين في المقدمة باستمرار هم نفسهم من يدمِّر القوانين أو أول من يتكيَّف مع هذه المواقف، وبطبيعة الحال، ففي هذا الصدد فقد مشى الإرهابيون الجدد من قبل إلى رأس المجتمع الدولي.

الطريقة المثالية للتعامل مع عدو لا يهتم بالقوانين هي بالتأكيد أن تكون قادراً على كسر القوانين. مؤخراً وبهدف السيطرة على الأعداء الذين يظهرون ويختفون في ساحة الحرب غير العسكرية، استفاد الأمريكيون من صواريخ كروز، واستخدمت حكومة هونج كونج احتياطيات العملة الأجنبية وإجراءات إدارية، وفسخت الحكومة البريطانية المعاهدات كي تسمح لعملائها السريين بعمليات اغتيال "قانونية" لقادة الدول الأجنبية ممن تعتبرهم إرهابيين، وهذا يكشف انتهاء صلاحية القوانين وتغيير طرق العمليات. لكنها تكشف أيضاً الضعف والبلادة في التفكير والتفرد في التطبيق. قيل إن الأمريكيين قرروا استخدام طرق الهكرز للبحث وغلق حسابات بن لادن المصرفية في العديد من الدول، كي يجففوا مصادر تمويله، وهذا بلا شك تقدم نوعي في العمليات التي تجري خارج نطاق الميدان العسكري. ومع هذا، يجب أن نقول إنه في هذا النطاق، الإرهابيون الجدد والقدامى ممن تمسكوا بثبات بمبدأ اللجوء إلى كافة المبادئ التي يمكن تصورها ما يزالون أفضل المُعَلِّمين لحكومات الدول.

الكوكتيل في كأس السيد العظيم:

الملك وو[1] من سلالة تشو منذ ثلاثة آلاف سنة والاسكندر الأكبر منذ ما يزيد على الألفي سنة بالتأكيد لم يكونوا يعرفون ما هو الكوكتيل، رغم أنهم كانوا أساتذة في مزج "الكوكتيل" في ساحة المعركة، والسبب هو، مثل مزج الكوكتيل كانوا عباقرة في الجمع بين اثنين أو أكثر من عوامل ساحة المعركة معاً، واستخدامهم في ساحة المعركة وإحراز النصر. 1+1 هو عملية الجمع الأولى، يمكن تجهيز الجنود بالرماح الطويلة والدروع العريضة للهجوم والدفاع وتعطي القدرة على التقدم والتقهقر، شخصان يشكِّلان وحدة، حيث "يقوم الجنود ممن يحملون أسلحة ثقيلة بأعباء الدفاع وأولئك الذين يحملون الأسلحة القصيرة يتمسكون بالمواقع" ويتعاون كل جنديين معاً، وبالتالي يشكِّلان أصغر وحدة تكتيكية[2].

الفارس دونكيشوت ومساعده سانشو عبّروا عن هذا الفصل في العمل بين الجنرال والجندي الخفيف الذي كان قائماً، وبالتالي يمكن للفريق الانطلاق في رحلة طويلة لطرد الشر عن الاميرة الخيالية. تجسّد عملية الجمع البسيطة هذه النظرية العميقة للتغييرات اللانهائية في ساحة المعركة، من الأسلحة البيضاء إلى الأسلحة النارية ومن ثم إلى الأسلحة النووية ومن ثم الجمع لما يُسمى الأسلحة ذات التقنيات العالية اليوم، الأداة الموسيقية في اليد الساحرة المنتصرة ترافق دوماً التاريخ الكامل للحرب التي تؤثّر سراً على نتيجة كل حرب. الملك وو هاجم تشو بثلاثمائة مركبة عسكرية، وثلاثة آلاف رجل شجاع، وخمسة وأربعين جندياً مدرعاً، وكانوا أقل بكثير من مشاة الملك تشو من أسرة تشانغ الذين كانوا بمئات الآلاف، ومع هذا أصبح هذا الجيش الصغير المكوّن من المركبات والمشاة فقط حجر الأساس في امبراطورية تشو، بسبب الجمع المناسب الذي قوّى كثيراً من القوة القتالية في الحرب البرية وأصبحت

---

1 كان Zhou of Wu King (بالصينية: 周武王 ؛ بينيين: Wáng W Zhōu) هو أول ملوك سلالة Zhou في الصين القديمة. إن التسلسل الزمني لعهده متنازع عليه ، ولكن يُعتقد عمومًا أنه بدأ حوالي عام 1046 قبل الميلاد وانتهى بعد ثلاث سنوات في عام 1043 قبل الميلاد.

2 موسوعة: تاريخ الحرب في الصين، مركز الترجمة العسكرية، المجلد الأول الصفحة 78، فصل الحروب الوحشية.



دليلاً على أول عملية جمع تمكنا من العثور عليها قبل 3120 سنة. وبالأخذ بعين الاعتبار أن هذا كان الحال في الشرق، فلم يكن الغرب استثناءً، فالسبب في قدرة الاسكندر على هزيمة جيش ضخم في معركة أبيلا الحاسمة يعود إلى التعديلات التي أجراها قبل دخوله المعركة، حيث غيّر ترتيب القوات بشكل مصفوفة خطية مما فاجأ العدو، وكانت خطته بسيطة للغاية، فقد نقل الفرسان للوراء ووضعهم على امتداد جانبي المصفوفة المربعة مشكِّلاً "مصفوفة مربعة كبيرة مفرغة" بحيث تشكِّل مرونة الفرسان وثبات جنود المشاة أروع جمع مثالي في مصفوفة المعركة الفريدة وبالتالي تضاعفت القوة الفردية لكل منهم بشكل قاطع، وبطبيعة الحال كانت النتيجة أن الاسكندر الذي لم تكن قواته متفوقة بشكل حاسم، هو الذي شرب نخب الانتصار[1].

عند الاطلاع على التاريخ العسكري للشرق والغرب، لا نلحظ أبداً تعبير "الجمع" في أي من الأوصاف المتعلقة بأساليب العمليات، رغم أن كل الخبراء العظام في الحرب على امتداد العصور كانوا على ما يبدو يعرفون هذا المبدأ جيداً. وكان ملك السويد غوستاف أكبر مُصلِح عسكري في بداية عصر الأسلحة النارية، وكل الإصلاحات التي أجراها تتعلق بترتيب القوات في ساحة المعركة وتطوير الأسلحة المستخدمة في عملية الجمع. فقد أدرك باكراً جداً أن تمركز المشاة خلف حملة الرماح وترتيبها في ساحة المعركة مع الجنود الذين يحملون الأسلحة النارية سمح لحمَلَة الرماح بالاستفادة من التغطية التي توفِّرها الأسلحة النارية، فزاد هذا من قوة الجميع إلى أقصى درجة. كما اعتاد على مزج مجموعات من الفرسان الخفيفة والثقيلة مع حملة البنادق الذين يتناوبون على مهاجمة العدو تحت غطاء كثيف من نيران المدفعية. وأُطلِقَ لاحقاً على هذا الملك لقب "أول خبير عظيم في مدفعية الميدان"، وفهم جيداً وظائف وتأثيرات المدفعية كأساس للاشتباك في المعارك، فشكَّل "فوج المدفعية" من المدفعية الخفيفة والمشاة مما سمح للمدفعية الثقيلة بالاستقلال عن القوات البرية، وهذه المدفعية الخفيفة والثقيلة المنتشرة بشكل منفصل على

1 التاريخ العسكري للغرب، تأليف جي إف سي فولر، ترجمه إلى الصينية نيو شيان جاو.

ما يبدو شكَّلَت في الواقع مزيجاً متكاملاً ضمن النطاق الكامل لساحة المعركة. ويمكن القول إن تأثيرات المدفعية تطوَّرت حتى وصلت مرحلة الكمال في تلك الفترة[1].

على أي حال، فكل هذا حدث قبل ظهور خبير تقنية المدفعية نابليون، عند مقارنة غوستاف بالكورسكي القصير (نابليون) الذي حشد ما يزيد على عشرين ألف قطعة مدفعية فلا يمكن رؤية غوستاف إلا كساحر صغير يقف أمام ساحر عظيم. خلال الفترة ما بين عامي 1793 و1814، أي ما يقرب من عشرين سنة لم يفهم أحد المدفعية تماماً كما فهمها نابليون. ولم يكن بوسع أحد فهم أولئك الذين تحت إمرته أكثر منه، وبطبيعة الحال لم يكن بوسع أحد الجمع بشكل كامل بين القوة القاتلة للمدفعية وقدرة الفرسان على المناورة، إضافة إلى ولاء وشجاعة القائد دافوت وشراسة القائد مورات في إنشاء قوة هجومية من شأنها أن تجعل كل أعدائها يهربون بمجرد رؤيتهم، وتحويل الجيش الفرنسي إلى آلة حربية مقاتلة لا يستطيع أي جيش أوروبي الوقوف في وجه من أوسترليتز[2] إلى بورودينو[3] لتكوين أسطورة بأن نابليون انتصر تقريباً في جميع معاركه[4].

الجنرال شوارزكوف الذي حقق المعجزة في معركة رئيسية لم يخسر فيها سوى نحو مئة جندي لا يمكن اعتباره واحداً من هؤلاء الخبراء العظام على هذا المستوى، ورغم هذا فيبدو أنّ حظه كان جيداً مثل جميع خبراء التقنيات العسكرية، في الواقع فالحظ لم يكن مهماً للغاية، وإنما قيادة هذا القائد لجيش حديث وكبير، ومثل أسلافه وحتى أكثر أعطى أهمية للجمع بين العناصر المهمة في الحرب، ويعود السبب في هذا إلى أنه خلال التسعينات كانت الأوراق في يديه كثيرة أكثر من الأوراق بيد أسلافه. وبالنسبة إليه كان

---

1 ثورة الأسلحة في الحرب، تي إن دوبيت الصفحات 176-169.

2 نورس: **معركة أوسترليتز** وتعرف أيضاً باسم **معركة الأباطرة الثلاثة**، هي واحدة من أهم النزاعات الحاسمة خلال الحروب النابليونية حدثت في 2 ديسمبر 1805. وتعتبر على نطاق واسع أعظم انتصار حققه نابليون بونابرت، حيث تمكن الجيش الكبير الفرنسي من هزيمة الجيش الروسي والنمساوي الأكثر عدداً تحت قيادة ألكسندر الأول وفرانز الثاني.

3 معركة بورودينو دارت رحاها بتاريخ 7 سبتمبر 1812 ما بين جيش نابليون بونابرت والجيش الإمبراطوري الروسي بقيادة الجنرال ميخائيل كوتوزوف، وهي إحدى أكبر معارك الغزو الفرنسي لروسيا التي نجم عنها خسارة 44,000 جندي روسي و35,000 جندي فرنسي ما بين قتيل وجريح وأسير، وقد قيل أنها كانت أكثر معارك الحروب النابليونية دمويةً.

4 السيرة الذاتية لنابليون، تأليف تاريلي. السيرة الذاتية لنابليون المجلد الأول، تأليف جون رونالد روس.

المفتاح لإخراج الجيش العراقي من الكويت، وإنقاذ إمدادات النفط التي تمثِّل شريان حياة بالنسبة للغرب، وإعادة فرض النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط، يعتمد على الكيفية التي يستخدم فيها التحالف، والتلاعب بوسائل الإعلام، واستخدام العقوبات الاقتصادية، والوسائل الأخرى، إلى جانب تطوير واجتذاب صنوف متنوعة من القوات البرية والبحرية والجوية والفضائية والإلكترونية إلخ. هذا التحالف الذي يتكون من جيوش ثلاثين دولة تحوّل إلى قبضة فولاذية تضرب صدام حسين، وحقق هذا دون أن يعرف عدوه ما يجري تماماً. وهكذا تكوَّن جيش ضخم من عدة مئات من الآلاف من الجنود وعدة آلاف من الدبابات، وعدة مئات من الطائرات، مثل خليط من الرمل والإسمنت يعززان الفولاذ المتناثر على امتداد أرض المعركة، تتقدم عدة مئات من الكيلومترات، وبات الجيش العراقي عاجزاً عن تحمل الهجمات الشديدة على طراز "القبضة" الأمريكية التي باتت صلبة مثل الخرسانة. حدثت في البداية قضية احتجاز الرهائن الغربيين ثم إطلاق سراحهم، ومن ثم حدث الخطأ تلو الخطأ ولم تجرِ ردود فعل قوية فيما يتعلق بكسر العزلة السياسية والعقوبات الاقتصادية.

وبغض النظر عما إن كانت الحرب قد جرت منذ 3000 سنة أو في نهاية القرن العشرين، يبدو أن جميع المنتصرين يتمتعون بميزة واحدة وهي أن: المنتصر هو من ينجح في عمليات الجمع.

إن القدرة على زيادة الوسائل المستخدمة في الحرب، إضافة إلى إجراء تحسينات مستمرة فيها اليوم وصل بنا لدرجة أن دلالة الحرب أصبحت تتضخم سريعاً، فدلالة هذه الوسائل أيضاً بدأت هي الأخرى تتعمق. الكثير من العوامل التي لم تظهر في حروب الماضي دخلت عالم الحرب عبر الجمع بين طرق عديدة مختلفة، ربما تسبب إضافة كل عنصر جديد تغييرات في نمط ونوع الحرب حتى اندلاع ثورة عسكرية. وبالنظر إلى تاريخ الحرب، وبغض النظر عما إن الرِكاب أم البندقية أم تلقيم السلاح من الخلف أم البارود عديم الدخان أم الهواتف الميدانية أو أجهزة التلغراف اللاسلكية أم الغواصات أم الدبابات أم الطائرات أم الصواريخ أم القنابل الذرية أم الحواسيب أم الأسلحة غير القاتلة أم تنظيم القوات في فِرَق أم تنظيم القوات في طواقم أم تكتيكات



الزمرة الذئبية[1] أم الهجوم الخاطف (بليتز) أم القصف السجادي أم إجراءات الإعاقة الالكترونية والمعارك الجوية البرية، ظهور كل هذه العناصر اجتمع مع عناصر ساحة المعركة الرئيسية ليُظهِر المزايا العظيمة لها ويثري عالم الحرب الحالي بدرجات متفاوتة.

على مدى السنوات العشرين الماضية، تقنية المعلومات وفيروسات الحاسوب والانترنت والأدوات المالية والمصادر الأخرى، إضافة إلى تكنولوجيا الوسائل غير العسكرية كشفت عن مزيد من الصعوبات للتنبؤ بنتائج حروب الغد. ومع هذا حتى اليوم، بالنسبة للغالبية العظمى من الضباط الكبار المستفيدين من عنصر الجمع لخوض الحرب عادة ما يكون عملاً غير واعٍ. لذا تبقى أعمال الجمع التي يقومون بها إلى على مستوى الأسلحة، وطرائق الانتشار وساحة المعركة، وآفاق الحرب المرسومة هي الأخرى في الغالب مقتصرة على الميدان العسكري. وحدهم أولئك العسكريون العباقرة يمكنهم الوقوف وحيدين عند كسر التقاليد وتخطي الحدود والجمع الواعي لكل الوسائل المتاحة في ذلك الوقت للعب الورقة الرابحة على امتداد العصور عبر تغيير إيقاع الحرب.

إن قيل إن الجمع كان وصفة سحرية لقلة من العباقرة، فاليوم يصبح صنع مزيج مدروس لاتجاه أسلوب العمليات أوضح يوماً بعد يوم، وتعمل الحرب اليوم عملها ضمن نطاق أوسع وأوسع مدى، ومع هذا فكل ما يقدِّمه عصر التكامل التكنولوجي يجعل عملية الجمع ممكنة في نطاق يبدو غير محدود. ويمكن القول على وجه اليقين إن من يقدر على مزج كوكتيل طيب وفريد من نوعه لمأدبة حروب المستقبل سيتمكن بلا ريب على وضع أكاليل الغار على رأسه.

1 تقنية مهاجمة السفن التجارية خلال الحرب العالمية الأولى باستخدام الغواصات ابتكرها دينجنسي، قائد قوات الغواصات في البحرية الألمانية. الطريقة الرئيسية للعملية كانت أنه بعد أن اكتشفت غوّاصة سفينة تجارية، أخطرت على الفور غوّاصات أخرى وبعد انتظار وصول العديد من الغواصات حتى تصل، شنَّت الغواصات عندها هجوماً شبيهاً بانقضاض قطيع من الذئاب على فريستها.

استخدام الإضافة لكسب اللعبة:

انكشفت كافة الأوراق اليوم، نحن نعلم أن الحرب لن تظهر بشكلها الأصلي، وإلى حد بعيد جداً فالحرب لن تبقى مجرد حرب بل باتت تسيطر على الانترنت، وتمتد إلى الإعلام، الهجوم والدفاع في معاملات الصرف الآجلة، إلى جانب الأشياء الأخرى التي لم نكن نراها على أنها حرب، لدرجة قد تثير استغرابنا كثيراً. لهذا يمكن القول بأن العدو قد لا يكون العدو الأصلي والأسلحة ربما لا تكون الأسلحة الأصلية، وساحة المعركة قد لا تكون الساحة الأصلية، لا شيء مطلق، فما يمكن أن يكون مؤكداً ليس مطلقاً، اللعبة تغيرت، وما يتعيَّن علينا مواصلته هو التأكد من طريقة القتال الجديدة ضمن الكثير جداً مما لم يعد مؤكداً. ولا ينبغي أن تكون هذه الوصفة الطبية موجهة لعلاج الأعراض وليس المرض، بل يجب أن تكون نوعاً هجيناً من التعلم واسع النطاق من نقاط قوة الآخرين وجمع المزايا بحيث نجني الخوخ والتفاح من شجرة الكمثرى، هذا هو الجمع إذا، لقد عرضنا هذه البطاقة من قبل بالفعل.

ما لم نتحدث عنه حتى الآن هو مصطلح آخر: الإضافة.

الإضافة هي طريقة الجمع:

في حلبة الملاكمة اللاعب الذي يستخدم نوعاً واحداً من الملاكمة من البداية إلى النهاية في المباراة ضد خصمة ليس بالتأكيد من يستطيع الجمع بين الضربات المستقيمة واللكمات الخاطفة والتأرجح ولكمات الخطاف ضد خصمه مثل العاصفة. المبدأ في هذا قد يكون بسيطاً جداً: واحد زائد واحد أكبر من واحد، المشكلة هي أن مثل هذا المبدأ الذي يعرفه الطفل قبل دخوله المدرسة كان غير واضح بشكل يثير المفاجئة بالنسبة للعديد من الأشخاص المسؤولين عن نجاح أو فشل الأمن والحرب لدول. هؤلاء الناس يمكنهم أن يلتمسوا لأنفسهم الأعذار قائلين إنهم يستخدمون طريقة الجمع في الملاكمة لمهاجمة العدو، فلم ينسوا أبداً إضافة التكنولوجيا إلى التكنولوجيا، والتكتيكات إلى التكتيكات، والأسلحة مع الأسلحة والإجراءات مع الإجراءات. كما أنهم قد يستنتجون بازدراء أن أعمال الجمع ليست بالشيء الجديد. لقد حدث هذا من

الاسكندر إلى نابليون وحتى إلى شوارزكوف، فهم لا يدركون أن قدرتهم على فهم أو عدم فهم الجمع ليست مفتاح المشكلة، المهم حقاً هو إن كان بوسع المرء أن يفهم أو لا يفهم ما يجري أو ما يحقق الجمع وكيف ينفِّذ الجمع. أخيراً، لكن بالتأكيد ليست النقطة الأهم، إن كان لدى المرء أفكار للجمع في ساحة المعركة وخارج ساحة المعركة، وبين الحرب واللاحرب، وبين العسكرية واللاعسكرية، وبالتحديد الجمع بين الطائرات المخفية وصواريخ كروز مع القتلة على الشبكة العنكبوتية، وجمع الردع النووي والحروب المالية والهجمات الإرهابية، الحروب المالية والهجمات الإرهابية، أو ببساطة جمع شوارزكوف + سوروس + شياوموليسي + بن لادن. هذه إذاً الأوراق الحقيقية بأيدينا.

وسواء كانت العملية جمعاً أم إضافة، فكلاهما إطارات فارغة، فقط عند إضافة الدم والقسوة يبدأ الموقف بالتحول إلى وضع صادم.

عندما يواجهك هذا المفهوم الجديد كلياً عن الحرب، فلا شك بأن الانطباع عن الحرب التي لطالما اعتاد عليها الناس سيكون صادماً. بعض الأشكال التقليدية للحرب، إضافة إلى المنطق والقوانين المرافقة لها ستتعرض للتحدي أيضاً. ونتيجة المنافسة ليست انهيار القصر التقليدي بل إن جزءاً من موقع البناء الجديد سيكون مشوشاً، من وجهة نظر القانون معظمنا سيرى انهياراً.

حتى هذه النقطة، وجدنا السبب بدءاً من ظهور "التقنية العالية" على الساحة، أصبحت هذه الثورة العسكرية عاجزة عن الاكتمال، من وجهة نظر التاريخ الإنساني وتاريخ الحروب، لم يكن هنالك أبداً ثورة عسكرية واحدة أُعلِن أنها اكتملت بمجرد اكتمال ثورات تقنية أو تنظيمية. فقط بعد الإشارة إلى ظهور هذه الثورة في الفكر العسكري على أعلى مستوى تنتهي عملية الثورة العسكرية. هذا الوقت ليس استثناءً لذا سواءً حدثت الثورة العسكرية الجديدة بالتكنولوجيا العالية أم لم تحدث فانتهاؤها يعتمد على إن كان يمكن أن تمضي قدماً في طريق ثورة الفكر العسكري. هذه المرة فقط التي تحتاج فيها أن تقفز فوق الأخاديد التي تصنعها روح الحرب التي استمرت لبعض آلاف من السنين.



لإنجاز هذا من الضروري فقط أن تطلب المعونة من الإضافة. لكن قبل أن نستفيد من الإضافة، يجب أن تتجاوز القيود السياسية والتاريخ والثقافة والإثنيات وتجري تفكيراً شاملاً. فمن دون التفكير الشامل، لن يكون هنالك ثورة شاملة. وقبل هذا، حتى سن زو وكلاوفيتز قيّدا نفسيهما وراء قضبان الميدان العسكري، ومكيافيللي هو الوحيد الذي اقترب من مملكة هذه الأفكار. ولفترة طويلة جداً من الزمن، ونظراً إلى أن كتاب "الأمير" وكاتبه ومؤلفه سابقان لزمانهما، فقد كانا محل ازدراء والفرسان والحكّام، الذين لم يتمكنوا بطبيعة الحال فهم أنّ تجاوز جميع الحدود كان ثورة أيديولوجية، تضمنت فرضية ثورة في الفكر العسكري. وبنفس الطريقة حتى اليوم فأولئك الذين يفهمون الترتيب الكبير للقوات في ساحة المعركة ويعتقدون أن الحرب مجرد قتل الناس وطرق العمليات هي طرق لقتل البشر فقط وأنه ما من شيء يستحق إيلاء الاهتمام غير هذا، لن يتمكن من فهم هذه النقطة.

في الحقيقة لم يكن الأمريكيون بلهاء لدرجة أن لا يبدوا أي تفاعل. ستيفن ميزي وتوماس كايويت من المعهد الاستراتيجي للكلية الحربية للجيش الأمريكي الذين أثاروا مشكلة "عرض النطاق الترددي للثورة العسكرية الحديثة" باتوا بالفعل حساسين لهذه النقطة. فقد اكتشفوا الثغرة بين الجيش الأمريكي فيما يتعلق بالفكر العسكري والتهديد الحقيقي الذي يواجه الأمن القومي. التأخر الفكري عن الواقع (فضلاً عن تجاوزه) ليس عيباً في العسكريين الأمريكيين، بل إنه طَبعٌ فيهم. عندما "عندما يولي جيش ما تركيزاً مفرطاً على التعامل مع نوع محدد من الأعداء" فيمكن أن يؤدي هذا إلى تعرضهم للهجوم والهزيمة على يد عدو آخر من خارج مجال الرؤية الذي يركزون عليه. وعبّر ستيفن ميزي وتوماس كايويت عن مخاوفهما من هذا، فأوضحا أن "رغم ضغط الوثائق الرسمية الجيش (يقصدان الجيش الأمريكي بكافة صنوفه) من الضروري إحداث خرق في التفكير العسكري الغربي الثابت لتوسيع مفهوم صراعات المستقبل. لكن معظم الوصفات عن الكيفية التي ستشن فيها القوات الرقمية في القرن الحادي والعشرين حرباً تبدو مثل "حرب مدرعات تستخدم تكنولوجيا جديدة للقتال مع دول حلف وارسو"، يعود السبب في هذا إلى أن الجيش الأمريكي

يجري تحضيرات للحرب موجهة بهذا النوع من التفكير العسكري الذي يأملون فيه أن تكون الحرب ركض الأعداء باتجاه فوهات مدافعهم، مثل هذا التفكير الرغبوي السخيف يمكن أن يؤدي إلى نوع واحد من التوقعات المستقبلية "الغالبية العظمى من خطط التنمية للجيش الأمريكي الحالي، مثل أولئك في جيش القرن الحادي والعشرين، موجَّهون جميعاً نحو التعامل مع عدو لديه مدرعات ثقيلة تقليدية، وإن كانت الولايات المتحدة تواجه جيشاً منخفض المستوى تقنياً، أو عدواً متوسط المستوى أو جيشاً لديه قوة مكافئة في بداية القرن القادم، فالمشكلة عندئذٍ في عدم كفاءة عرض النطاق الترددي عند مواجهة الأنواع الثلاث المذكورة للأعداء"[1]. سواء كان المتطفلون أم الهكرز، أم تفجير كبير في مركز التجارة العالمي نفَّذه بن لادن فكل هؤلاء يزيدون على تردد عرض النطاق الذي يفهمه الجيش الأمريكي، فالجيش الأمريكي بطبيعة الحال لم يستعد نفسياً بكفاءة للتعامل مع هذا النوع من الأعداء، وخصوصاً ما يتعلق بالتفكير العسكري وطرق العمليات المستمدة منها. ويعود السبب في هذا إلى أنهم لم يأخذوا في الحسبان ورفضوا بشكل قاطع التفكير بالوسائل الخارجة عن المألوف وانتقاء إجراءات عمليات بغير الوسائل العسكرية. وهذا بطبيعة الحال سيمنعهم من إضافة وجمع هذين الاثنين إلى الإجراءات الجديدة والطرق الجديّة إلى العمليات. وفي الواقع فإن الاستفادة من رافعة الحجم الكبير للتقنية الجديدة والعوامل الجديدة الناتجة عن عصر التكنولوجيا المتكاملة لا يتطلب من المرء سوى توسيع أفقه قليلاً ويتحرر فكرياً، وبالتالي إرخاء عجلة الثورة العسكرية الصدئة نتيجة للتأخر فيما يتعلق بالتفكر. يمكننا هنا أن نقدِّر عميقاً أهمية المقولة القديمة "حجر من الهضاب الأخرى يمكن أن يفيد بصقل حجارة هذه الهضبة".

سيكون الوضع جيداً لو أننا كنا جريئين نوعاً ما وخلطنا الأوراق تماماً بأيدينا، وجمعناهم ثانية، ورأينا ماذا ستكون النتيجة.

1 تقرير بحثي صادر عن معهد الدراسات الاستراتيجية التابع للكلية الحربية الأمريكية، الثورة الاستراتيجية والعسكرية: من النظرية إلى التطبيق.

يُفتَرض أن تكون الحرب المندلعة بين دولتين متقدمتين تملكان من قبل معلومات تقنية كاملة، وتعتمدان على الطرق التقليدية في العمليات، الجانب المُهاجِم سيستخدم بشكل عام أنماط العمق الكبير والجبهة الواسعة والقوة الكبيرة وثلاثية الأبعاد لإطلاق حملة هجومية ضد العدو، ولا تخرج حملتهم عن نطاق استطلاع القمر الصناعي والتشويش الالكتروني والهجمات الجوية واسعة النطاق والأسلحة عالية الدقة والالتفاف البري والانزالات البرمائية والانزالات المظلية خلف خطوط العدو.... النتيجة ليست إعلان العدو الهزيمة، وإنما ستعود بحرابها وريشها[1]. لكن باستخدام طريقة الجمع، يمكن أن يحدث سيناريو مختلف تماماً ويمكن أن تجري اللعبة كالتالي: إن كان الطرف المهاجم يحشد سراً كميات كبيرة من المال دون أن تشعر به دولة العدو على الإطلاق ثم يبدأ بعدها هجوماً مباغتاً ضد أسواقها المالية، وبعد التسبب بأزمة مالية، يزرع فيروساً حاسوبياً وكتيبة من الهكر في نظام العدو الحاسوبي مقدماً، وفي ذات الوقت ينفّذ هجوماً سيبرانياً ضد العدو بحيث تُشل تماماً كل شبكة الكهرباء المدنية وشبكة تنظيم المرور وشبكة المعاملات المالية وشبكة الاتصالات الهاتفية، هذا سيسبب حالة من الهلع في دولة العدو، وشغباً في الشوارع وأزمة سياسية، وهنالك أخيراً الضغط القوي من الجيش، والوسائل العسكرية التي تُستخدم تدريجياً حتى إجبار العدو على توقيع معاهدة سلام غير مُشرّفة. وهذا بلا شك لا يندرج ضمن النطاق الذي تحدث عنه سن زو عن "كبح جماح جيش العدو دون قتال" وعلى أي حال يمكن اعتباره "كبح جماح الجيش الآخر من خلال العمليات الذكية"، ومن الواضح من كان متفوقاً ومن كان متخلفاً عند مقارنة هاتين الطريقتين في العمليات.

هذه بالطبع مجرد فكرة واحدة، لكنها بالتأكيد فكرة واقعية، وبناءً على هذه الفكرة، فلا نحتاج إلّا هز مشكال الإضافة ليكون بوسعنا الجمع بين طرق لا تنضب من العمليات.

1 نورس: هذا التشبيه مستمد من حروب الهنود الحمر الذين كانوا يظفرون بريش وحراب عدوهم المهزوم، والمقصود هنا هو كسر الروح القتالية لدى العدو.

العسكري شبه العسكري غير العسكري:

الحرب الذرّية الحرب الدبلوماسية الحرب المالية.

الحرب التقليدية حرب الشبكة الحرب التجارية.

الحرب البيوكيميائية الحرب المخابراتية حرب الموارد.

الحرب البيئية الحرب النفسية حرب المعونات الاقتصادية.

حرب الفضاء الحرب التكتيكية الحرب التنظيمية.

الحرب الإلكترونية حرب التهريب حرب العقوبات.

حرب العصابات حرب المخدرات الحرب الإعلامية.

الحرب الإرهابية الحرب الافتراضية (الردع) الحرب الأيديولوجية.

أي من أنواع طرق العمليات المذكورة أعلاه يمكن الجمع فيما بينها لتشكِّل شكلاً جديداً تماماً من العمليات[1]، وبغض النظر عما إن كانت أعمال الجمع مقصودة أم لا، فإنَّ تنفيذها باستخدام طرق مختلفة للعمليات بما يتجاوز الميادين والأصناف التي طبَّقته العديد من الدول في ممارسة الحرب. على سبيل المثال الإجراءات التي اتخذتها الأمريكيون ضد أسامة بن لادن هي حرب إرهابية دولية + حرب مخابراتية + حرب مالية + حرب سيبرانية + حرب قانونية، وكمثال آخر ما فعلته دول الناتو للتعامل مع أزمة كوسوفو في التحالف الجنوبي: الردع باستخدام القوة + الحرب الدبلوماسية (التحالف) + الحرب القانونية، وقبل هذا تبنّت الأمم المتحدة بضغط من الولايات المتحدة طرق العمليات ضد العراق: الحرب التقليدية + الحرب الدبلوماسية + حرب العقوبات + الحرب الإعلامية + الحرب النفسية + الحرب المخابراتية إلخ. ولاحظنا أيضاً أن الوسائل التي تبنَّتها حكومة هونج كونج أثناء الحرب

1 وفقاً لرؤيتنا فأنواع الحرب الثلاثة هنا كلها واقعية وليست مجازية أو وصفية، الحروب على الطراز العسكري تكون على الدوام تقليدية وكلاسيكية تُستَخدَم فيها الأسلحة، والأنماط المتنوعة من الحروب ومنها غير العسكرية ليست تصادمية ولا شيْ غير طبيعي، لكنها تبدي سلوكاً حربياُ، وتقع العابرة للمجال العسكري في موقع بين الاثنتين حيث يكون للأولى طرق مثل الحرب النفسية والحرب الاستخباراتية وبعضها يتكون من طرق جديدة تماماً مثل حرب الشبكة والحرب الافتراضية (يشير هذا إلى الأساليب الافتراضية الالكترونية، انظر الفصل المعنون جونج شو بان يؤسس آلية لدولة، والاستراتيجيات الوقائية لسونغ).



الأمنية المالية في شهر آب سنة 1998 للتعامل مع المُضاربين كانت: الحرب المالية + الحرب القانونية + الحرب النفسية + الحرب الإعلامية، ورغم أنهم دفعوا ثمناً باهظاً، فقد كانت نتائج الحرب جيدة جداً، كما أن الطرق التي تمت فيها الأمور، مثل طباعة كمية كبيرة من الرنميبي المزيف في تايوان[1] ، باتت بسهولة شديدة تدابير حرب من الحرب المالية + حرب التهريب.

نستطيع أن نرى بسهولة من خلال هذه الأمثلة التأثيرات الرهيبة لتطبيق الإضافة-الجمع في طرق العمليات. فإن قيل إنه بسبب القيود على التدابير التقنية والظروف، فإن تلك الأطراف التي كانت منخرطة في حروب في الماضي كانت ما تزال غير قادرة على الجمع بحريَّة بين جميع العوامل لكسب الحرب، أما اليوم فقد أدى الانفجار التكنولوجي العظيم إلى تكنولوجيا المعلومات التي وفَّرت لنا هذا النوع من الإمكانات. فقط إن كنا نريد ولم نسمح بطغيان النيات الذاتية على القوانين الموضوعية، فهل سنتمكن عندئذ من ترتيب الأوراق بيدنا بطرق متنوعة بما يضمن لنا الفوز في نهاية اللعبة.

لكن، ما من أحد يمكنه كتابة وصفة انتصار مضمونة لكل حروب المستقبل، الأنواع المتعددة لطرق العمليات ظهرت في تاريخ حروب الإنسان، والعديد منها ذرته رياح النسيان بتعاقب السنين. وعند إمعان النظر في الأسباب نجد أن كافة هذه العمليات كانت مبنية لغاية محددة، وعندما ظهرت الغاية فقدت الطريقة العملية قيمتها اللحظية. طرق العملية التي تملك بالفعل الحيوية يجب أن تكون "سلة فارغة". هذه السلة الفارغة تعتمد فقط على تفكيرها ومبدأ الاستفادة من عدم التغيير للتعامل مع العدد الكبير جداً من التغييرات. الجمع الذي تحدَّثنا عنه هو فقط هذا النوع من السلة الفارغة، السلة الفارغة من التفكير العسكري، إنها ليست دائماً نفسها مثل أي من طرق العمليات الموجَّهة بشدَّة في الماضي، لأنه فقط عندما تمتلئ السلة بأهداف ومحتويات محددة تبدأ في تحديد الاتجاه والهدف.

1 نورس: رنمينبي هي عملة الجزء القاريّ من جمهورية الصين الشعبية. تعني هذه الكلمة حرفياً عملة الشعب، ووحدتها الأساسية تدعى يوان.

ومفتاح الانتصار أو الهزيمة في الحرب ليس إلا في الأشياء التي يمكنك وضعها في هذه السلة.

يوفي؛ المنظِّر العسكري خلال عهد سلالة سونغ في الصين، صرَّح عند مناقشة طريقة استخدام طرق العمليات أن "الامتياز الدقيق للتطبيق يكمن في عقلية واحدة". ورغم أن هذه العبارة تبدو مبهمة جداً، إلا أنها في الواقع التفسير الأمثل للتطبيق الدقيق للجمع. فقط إن فهمنا هذه النقطة يمكننا عندئذٍ تنفيذ طريقة العملية التي تتجاوز تعدد طرق العمليات، وبالتالي يجعل هذا الطرق كثيرة العدد تتلاقى لتصبح واحدة. إنها أيضاً المرحلة الأخيرة من طرق العمليات.

الخلاصة إذا بسيطة جداً، وبالتأكيد لن تصدر عن دماغ بسيط.

الفصل السادس:

سعياً وراء قواعد النصر: القوة تبتعد عن نقطة هجوم العدو

"أتَّخِذُ عادةً تحركات مفاجئة، العدو يتوقع تحركات مفاجئة، لكنني أتحرك بأسلوب غير مفاجئ هذه المرة لأهاجم العدو. أنا عادة ما أتخذ خطوات غير مفاجئة فالعدو يتوقع تحركات غير مفاجِئة، لكنني أتحرَّكُ بأسلوب مفاجئ هذه المرة لأهاجم العدو"

لي شيمين

مهما قيل عن الجمع، يجب أن نقول إنه لا يكفي التركيز على الجمع. من الضروري حصر التركيز، بحثاً عن سر آخر أقرب إلى النواة، فلا جدوى من إجراء عملية الجمع مئة مرة مالم تكن بشكل ملائم.

في تاريخ الحرب، لم ينتصر أحد بحرب جرت بطريقة سلسة. وهكذا يحتوي كتاب جون يو (الحديث العسكري) في جميع إصداراته على مصطلحات من قبيل: اتجاه الهجوم الرئيسي، الأهداف الرئيسية للضربة، الهجوم المُضلِل والمُجَنَّبات، التي تميّز بالتفصيل بين الأعمال الرئيسية والثانوية. ما يكمن وراء هذه المصطلحات ليس فقط اعتبارات الحاجة لخداع العدو أو الاستخدام العميق للقوة، بل إن هنالك أسباباً أخرى، فمن ناحية الغريزة، فكل هؤلاء الجنرالات المشهورين الذين انتصروا في حروب لا حصر لها، أدركوا وجود شيء اسمه "قواعد النصر". هؤلاء الناس اقتربوا أيضاً من هذه القواعد عشرات آلاف المرات، وبرغم هذا إلى حد اليوم، لم يجرؤ قائد أو فيلسوف على القول: وجدت القواعد. وحتى عملية تسمية هذه القواعد لم تكتمل، لكن في الحقيقة القواعد مختفية بين ثنايا أمواج الممارسة العسكرية الإنسانية، ومن المناسب القول إن كل نصر تقليدي شهد للقواعد، لكن في كل مرة، الناس إما لا يريدون الاعتراف أو لا يجرؤون على تأكيد تجربتهم قواعد النصر، لكن

بدلاً من ذلك، عادة ما يعزون تأثيرات القواعد إلى محاباة بعض الأقدار الغامضة. معظم أعمال "الشهادة المتأخرة" على التاريخ العسكري توفِّر مناقشات يصعب على الناس استيعابها لأن المناقشات تصف تأثيرات القواعد بأسلوب غامض للغاية. لكن قواعد النصر موجودة بالتأكيد، إنَّها هناك مثل رجل غير مرئي، يرافق كل حرب بشرية، والطرف الذي تشير إليه الأصابع الذهبية لهذه القواعد سيعبر أقواس النصر فوق أحزان الطرف المهزوم. ومع هذا حتى المنتصرون في الحرب لا يرون بحق وجه هذه القواعد الحقيقي.

المواجهة السرية لقاعدة النسبة الذهبية:

"كل شيء عبارة عن أرقام"، عبر هذا النمط من التفكير وضع الحكيم القديم فيثاغورث[1] مجموعة من الأرقام الغامضة: 0.618 ونتيجة لها وجد قاعدة النسبة الذهبية.

(صيغة رياضية توضِّح اشتقاق الرقم 0.618)

منذ 2500 سنة، اعتبر الفنانون التشكيليون هذه الصيغة القاعدة الذهبية للجمال. فكما يشهد تاريخ الفنون، جميع الأعمال الفنية في تاريخ الفن تقريباً التي تُعتبر تحفاً فنية باهرة، سواءً صُنِعَت بطريقة غير مدروسة أو من خلال جهد مدروس، جميعها اقتربت أو توافقت مع هذه القاعدة في مميزاتها الجمالية الأساسية. لطالما انبهر الناس بجمال معبد البارثينون لليونان القديمة، وشكُّوا بأنها قد تكون من صنع إله، وبالقياس والحساب تبيَّن أن العلاقة بين خطوطها الأفقية

1 فيثاغورث كان رياضياً وفيلسوفاً من العصر اليوناني القديم، تنصُّ البديهية القديمة التي وضعها على: «كل شيء هو مجموعة من الأرقام»، لذا يمكن رؤية كل الأشياء الموجودة، في التحليل النهائي، كعلاقة بين الأرقام. وفي نظرية فيثاغورث، فالأشياء جميعها مختلطة سواء بشكل منطقي أو غير منطقي، لكن ما يزال لهذه النظرية تأثير كبير على تطور الفلسفة اليونانية القديمة والفكر الأوروبي في العصور الوسطى. واعترف كوبرنيكوس بمفاهيم فيثاغورث الفلكية كمفاهيم سبقت طروحاته. يُعتَبَر غاليليو أيضاً من أنصار نظرية فيثاغورث. واستخدام النسبة الذهبية لإثبات تناسق العلاقات في الكون كان أحد تطبيقات التفكير الفيثاغورثي؛ انظر موسوعة بريتانكا الموجزة، المجلد الأول، الصفحة 715.



والعمودية كانت متوافقة تماماً مع نسبة 1:0.618. وفي كتاب "فن عمارة فيرس أون" رسَّخ المهندس المعماري العظيم لي كوربوسر أهم نظرياته عن "مقياس التصميم الأساسي" عن أساسيات القاعدة الذهبية، النظرية التي عمَّقت ووسَّعَت تأثير فن العمارة والمهندسين المعماريين على العالم[1]. وللأسف فهذه الصيغة التي ربما أراد بها الخالق كشفَ كل المجالات للإنسان لم تُستَخدَم إلا في مجال واحد وهو الإبداع الفني، وباستثناء أولئك الذين يتمتعون بمواهب غير عادية أدركوا أن هذه القاعدة الذهبية للجمال قد تصبح، -أو أنها بالفعل- قاعدة يجب اتباعها في المجالات الأخرى.

لم يكن الأمريكي جاي كيفر سنة 1956 أول من اكتشف أن البحث عن نقاط التجربة بناءً على القاعدة الذهبية سيسهِّل الوصول إلى الحالة المثالية بأسرع وقت، ونقّح الرياضي الصيني هوا لوجينج هذا الاكتشاف وحوّله إلى "طريقة البحث المثلى" أو طريقة 0.618. وانتشرت هذه الطريقة في الصين لبعض الوقت، وعلى حد علمنا، فحملة الترويج التي بُنِيَت على تكتيك الموجة الإنسانية لم تأتِ سوى بنتائج هزيلة، لكن هذه الواقعة أثبت إمكانية تطبيق القاعدة الذهبية في مجالات أخرى غير مجالات الفنون[2] (لا يشير النص إلى موضع الحواشي من 4 إلى 12 رغم أنه يتناولهم بالشرح في نهاية الفصل).

في الواقع، قبل ظهور مفهوم الفهم الواعي لقاعدة النسبة الذهبية، استفاد الناس منها بالفعل في أعمالهم بدافع غريزي، وبالطبع لم يكن المجال العسكري استثناءً، يمكننا أن نرى بالعين المجرَّدة العلامات السريعة الزوال لحوافر وحش غامض في الحملات الشهيرة المذهلة والمعارك التاريخية، ودون النظر بعيداً، سترى نتائج تطابق

---

1 انظر: اللغة الكلاسيكية لفن العمارة للمؤرخ المعماري البريطاني سامرسون.

2 بتقسيم قطعة مستقيمة طولها (ل) بحيث تكون نسبة أحد الأجزاء إلى القطعة بأكملها تساوي نسبة الجزء الآخر إلى هذا الجزء، أي: س/ل= (ل-س)/س. التقسيم وفقاً لهذه الطريقة يُدعى «النسبة الذهبية»، وهذه النسبة تساوي تقريباً 0.618. ومن العصور اليونانية القديمة وحتى القرن التاسع عشر، آمن الناس بأن هذه النسبة كانت القيمة الجمالية في الفن التشكيلي. وعند التطبيق العملي، نجد أن الطريقة الأبسط هي استخدام القيم التقريبية مثل: 2/3، 3/5، 5/8 و 8/13 التي تنتج نتيجة للمتتالية: 2،3،5،8،13،21 انظر شي هاي (القاموس الكبير) (قاموس شانغهاي) 1980 الصفحات 2057-2058.



هذه القاعدة أينما يممت وجهك في المجال العسكري. ويمكن رؤية شبح الرقم 0.618 في أشياء من انحناء سيف الفرسان إلى ذروة مسار الطلقة، أو القذيفة أو الصاروخ الباليستي ومن الارتفاع والمسافة الأمثل لإطلاق القنابل من الطائرة القاذفة في وضع القصف بالانقضاض إلى العلاقة بين طول خط الإمداد ونقطة التحول في الحرب.

عند قراءة صفحات من تاريخ الحرب عَرَضاً، ستنبهر بالتأكيد من حضور الرقم 0.618 وكأنه حزام ذهبي، يمكن لمحه في الحروب الصينية والأجنبية القديمة والحديثة. ففي معركة يانلين بين جين وتشاو خلال فترة الربيع والخريف، قاد الدوق جين قوة عسكرية لمهاجمة تشنغ، وخاضت قوة جين معركة حاسمة ضد قوة تشاو في يانلين، وبنصيحة من ماريو بينغان المُنشَق عن جيش تشاو، استخدم الدوق لي تقسيماً لجيشه لمهاجمة الجيش الأوسط من قوة تشاو، واستخدم الجيش العلوي والجيش الأدنى والجيش الجديد وقوات اللوردات لمهاجمة ميمنة الجيش الأيمن لقوة تشاو، أما نقطة الهجوم التي انتقاها فقد كانت بالضبط في نقطة النسبة الذهبية. لقد ذكرنا آنفاً معركة أربيلا بين الاسكندر وداريوس، اختار المقدونيون المنعَطَف إلى الجناح الأيسر وقلب القوة الفارسية كنقطة لهجومهم؛ وياللروعة كانت هذه النقطة هي "النقطة الذهبية" لكامل الجبهة.

لمئات السنين، وجد الناس أن من الصعب فهم السبب الذي كان فيه فرسان المغول التابعين لجنكيز خان، مثل الإعصار، قادرين على اكتساح القارة الأوراسية، عوامل مثل الشراسة البربرية أو القسوة البالغة أو الدهاء أو حركية الفرسان لا تعطينا أسباباً مُقنعة، ربما كان ثمة أسباب مهمة أخرى؟ وكما هو متوقع أثبتت قاعدة النسبة الذهبية طاقتها المعجزة ثانية: يمكننا أن نرى أن تشكيل المعركة لدى فرسان المغول كان مختلفاً عن الكتائب الغربية التقليدية. وفيما يتعلق بتشكيلاتهم ذات الأعمدة الخمسة، كانت نسبة الفرسان الثقيلة إلى الخفيفة 2/3، فارسان يرتديان دروعاً ثقيلة إلى ثلاثة فرسان يرتدون دروعاً خفيفة لسرعة وسهولة الحركة، وهذا مثال آخر على النسبة الذهبية، لا بد وأن يثير إعجابك مستوى الفهم العبقري الذي وصل إليه أولئك المفكِّرون على ظهور الخيل. لقد كان من الطبيعي لقوة تعمل تحت



إمرة هذه القيادة أن تمتلك قوة ضاربة أكثر مما لدى الأوروبيين الذين واجهوهم.

يبدو أن المسيحيين الأوربيين الذين كانوا موهوبين في تطبيق قاعدة النسبة الذهبية على الدين والفنون، كانوا في ذات الوقت مُتَخَلِّفين في فهم تطبيقاتها في المجالات الأخرى. الجنرال الهولندي موريس الذي كان أول من حوّل الكتيبة التقليدية القديمة عبر مزج أعداد متماثلة من الجنود المُسَلَّحِين ببندقية موسكيت وآخرين مسلحين بالرماح، فَشِلَ في إدراك هذه النقطة حتى في عصر البارود الأسود عندما بدأت بنادق موسكيت تحل تدريجياً محل الرماح، وكان الملك غوستاف من السويد هو من عدَّل هذا التشكيل بالجبهة القوية والأجنحة الضعيفة، ووفقاً لهذا التعديل تحوَّل الجيش السويدي إلى أقوى جيش أوروبي في ذاك الوقت، وكان كل ما فعله هو إضافة 96 جندي مسلَّح ببندقية موسكيت إلى مجموعة مكونة من 216 جندي مسلَّح بالرماح و198 جندي مسلح ببنادق موسكيت، وسرعان ما آتى هذا التغيير أُكُلَهُ فيما يخص استخدام الأسلحة النارية، وبات نقطة التحول الفاصلة بين عصري الأسلحة البيضاء والأسلحة النارية. ولا حاجة للقول أننا رأينا ثانية الضوء المُشرق لدور النسبة الذهبية 198 زائد 96 من الجنود المسلحين ببنادق موسكيت إلى 216 جندي مسلحين بالرماح.

وهنالك المزيد أيضاً، دعونا نرى كيف تُقحِم هذه النسبة نفسها بعناد لتفرض نفسها علينا قبل أن ندرك أن دورها يتعدى الفنون. هاجم نابليون روسيا في حزيران من عام 1812، وفي أيلول بعد فشله في القضاء على القوات الروسية الفعالة في معركة بورودينو، دخل موسكو، وفي هذا الوقت، لم يلاحظ نابليون أن العبقرية والحظ يتخلَّيان عنه رويداً رويداً، وأن ذروة نجاحاته ونقطة التحوُّل في حياته المهنية تقترب أيضاً، فبعدها بشهر انسحبت القوات الفرنسية من موسكو بعد هطول الثلوج بغزارة، كان هنالك ثلاثة شهور من التقدم المظفَّر وشهران من الانكسارات، ويبدو من حيث التسلسل الزمني أن الامبراطور الفرنسي كان يقف على خط النسبة الذهبية عندما كان ينظر إلى مدينة موسكو وهي تحترق. وبعدها بـ130 عاماً بدأ الألمان النازيون الخطة بارباروسا ضد الاتحاد السوفيتي، وعلى مدى عامين حافظ



الألمان على زخمهم الهجومي، وعام 1943 تحوّل الألمان إلى الدفاع في نهاية عملية القلعة ولم يتمكَّنوا بعدها من شن ما يمكن تسميته حملة أخرى ضد الاتحاد السوفياتي، وربما يجب أن نعتبر الحقيقة التالية مصادفة: إنها معركة ستالين غراد التي اعتبرها جميع المؤرخين نقطة التحول في الحرب الوطنية السوفياتية، وحدثت بالضبط في الشهر السابع عشر من الحرب أي شهر تشرين الثاني من عام 1942، لقد كانت هذه هي "النقطة الذهبية" في محور الوقت لما مجموعه 26 شهراً من الهجوم النازي من الازدهار إلى الانهيار.

فلنلقِ نظرة أيضاً إلى حرب الخليج، قبل الحرب، قدَّر الخبراء العسكريون أن عتاد وعدد الحرس الجمهوري سيفقد فعاليته عندما تصل خسائره إلى نسبة 30 بالمئة في العدد والعدّة نتيجة الغارات لجوية، ولإيصال الخسائر العراقية حتى هذه النقطة الحاسمة، وسَّعَت القوات الأمريكية زمن القصف مراراً وتكراراً، وعندما خرجت عملية سيف الصحراء من غمدها، كانت القوات العراقية قد تكبَّدت ما نسبته 38 بالمئة من الدبابات البالغة 4280، و32 بالمئة من المدرعات البالغة 2280 مدرعة، و47 بالمئة من المدفعية البالغة 3100 قطعة مدفعية، وكان كل ما تبقى من القوات العراقية هو ما نسبته 60 بالمئة، ومن ثنايا هذه البيانات المريعة بدأ شبح الرقم 0.618 بالظهور مجدداً يوم 24 كانون الثاني سنة 1991، حيث انتهت عملية عاصفة الصحراء البرية بعدها بـ100 ساعة.

هذه الأمثلة المتناثرة على صفحات التاريخ أصبحت بحق شيئاً معجزاً، وعند مراجعتها واحدة واحدة، فإنها لا تبدو مصادفات تاريخية متكررة، لكن الخالق (عز وجل) لا يعمل شيئاً عبثاً، فإن أظهرت العديد من الأحداث نفس الظاهرة، فهل يمكنك اعتبارها مجرد حوادث؟ لا حتى هذه اللحظة يجب أن تعترف أن هنالك قاعدة هنا.

قواعد النصر، قاعدة المبدأ الجانبي:

في القواعد اللغوية الصينية، هنالك بنية أساسية للجملة، فتنقسم الجملة أو العبارة وفقاً لهذه البنية إلى جزئين: المُعَدِّل والكلمة المركزية، العلاقة بينهم هي أن تكون الكلمة مُعَدِّلَة أو مُعَدَّلة، فالكلمة السابقة تعدِّل الكلمة اللاحقة وتحدد اتجاهها وميّزاتِها. بمعنى أن الكلمة الأولى تشكِّل المظهر والثانية تشكل جزء النسيج الحي، نحن عادةً نحدد الفرق بين شخص أو شيء وشخص أو جسم آخر ليس حسب وجوده ككائن حي أو كجماد بل حسب مظهره وهيئته. ومن هذا المنظور، بالنسبة للكلمة المركزية يجب أن تُعتَبَر الكلمة المُعدِّلة إلى حد بعيد مركز الجملة أو العبارة. على سبيل المثال: تفاحة حمراء، قبل تقييدها بكلمة حمراء كانت كلمة تفاحة تشير إلى نوع من الفاكهة على العموم وبالتالي نوع عامٌّ في طبيعته، لكن كلمة حمراء تخصص كلمة تفاحة بحيث يمكن القول إنها "هذه التفاحة"، من الواضح أن كلمة "حمراء" تلعب دوراً مهماً في هذه العبارة، وعلى سبيل المثال أيضاً: منطقة اقتصادية. دون كلمة "الاقتصاد" تشير كلمتي المنطقة الخاصة إلى مفهوم التقسيم الجغرافي فحسب، أما عندما تخصصها كلمة "اقتصادية" فإنها تكتسب صفة وتوجهاً خاصاً، فتصبح نقطة الدعم للرافعة الاقتصادية التي يستخدمها دنغ شياو بينغ لإصلاح الصين. هذه البنية نمط أساسي في القواعد اللغوية الصينية: قاعدة المبدأ الجانبي.

هذه البنية التي تعني أن عنصراً أساسياً معدَّلاً بعنصر جانبي موجود بشكل واسع في اللغة الصينية لدرجة أن المتحدِّث باللغة الصينية لن يتمكن من الحديث دون استخدامها. أما إن كان في الجملة كلمات دون تعديل مباشر، فالجملة ستفتقر عندئذ إلى الوضوح لأن هذا يعني غياب عناصر تحدد الدرجة والموقع والنمط التي يمكن فهمها فهماً مجرداً. على سبيل المثال، إن حُذِفت المُعدِّلات (الصفات) في عبارات من قبيل: "شخص طيب"، "شيء جيد"، "بناء عال"، "راية حمراء" و"ركض بطيء" فعندئذٍ تصبح الكلمات المركزية (الموصوف) كلها كلمات مطلقة دون أن تشير إلى شيء محدد. وكما يظهر هنا في بنية المبدأ الجانبي، فإن العنصر الجانبي، يُقارن

بالعنصر "المبدئي" يكون في موقع تحديد النوعية في الجملة أو في العبارة، وكما نرى هنا، في بنية المبدأ الجانبي، فالعنصر "الجانبي"، مقارنة بالعنصر "المبدئي" يختص بتحديد النوعية في الجملة أو العبارة، بمعنى أنه ضمن سياق محدد يمكننا استخدام الفهم الذي تكون فيه الكلمة المركزية في بنية المبدأ الجانبي هي الكيان المبدئي، ويعمل المُحَدِدُ كعنصر موجِّه، وبالتالي يكون العنصر "المبدئي" هو جسم العنصر "الجانبي"، بينما يكون العنصر "الجانبي" هو روح العنصر "المبدئي". عندما يبدأ تشكيل البنية بالجسد كمقدمة، يأتي دور الروح شديد الأهمية بعدها، فالعلاقة التي تجعل الكيان الرئيسي تابعاً لعنصر التوجيه هي الأساس في وجود الكيان الجانبي الرئيسي. وفي ذات الوقت، بما أن المبدأ الجانبي واحد من أشكال بنية النظام المطابق للعالم الموضوعي، يبدو أنه يوحي لنا بشيء يشبه القانون ويتجاوز نطاق اللغة.

وباتباع هذا المسار، سرعان ما نرى أن علاقة المبدأ الجانبي تمتدُّ على نطاق واسع ليس في عبارات من قبيل "شخص جيد"، "شيء سيء"، "بناء عالٍ"، "راية حمراء" أو مصطلحات عسكرية من قبيل: حاملة طائرات، صاروخ كروز، طائرات شبح، ناقلة جنود مدرعة، مدفع ذاتي الحركة، قنابل ذكية، قوة الرد السريع، حرب جوية برية، عمليات مشتركة. هذه العلاقات تتواجد في أي مكان في العالم خارج نطاق اللغة بشكل لا حصر له. وهنا تكمن أهمية اقتباس -فقط- وليس نسخ هذه اللفتة الخطابية، والتي تظهر في الأنظمة اللغوية الإنسانية فقط، في نظريتنا. ولا نريد هنا ربط الحرب بالتعابير اللغوية بشكل اعتباطي، وإنما نريد استعارة مصطلح "المبدأ الجانبي" لنصل إلى العنصر الجوهري في نظريتنا، إذ أننا نعتقد أن علاقة المبدأ الجانبي هذه تتواجد على نطاق واسع في حركة وتطور العديد من الأشياء، وتلعب دوراً كعنصر موجِّه في علاقة مثل علاقة العنصر "الجانبي"، بدلاً من العنصر "المبدئي". الآن، نصف هذا الدور بـ "تعديل العنصر المبدئي بالعنصر الجانبي" (لاحظ: هذا ليس المعنى الأصلي لبنية المبدأ الجانبي كأداة لغوية بلاغية، بل امتداداً في المعنى لاستخدامنا له). على سبيل المثال، في دولة ما يكون الشعب هم الكيان المبدئي،

بينما تكون الحكومة هي العنصر الموجِّه للبلاد، وفي القوات المسلحة يشكِّل الجنود والضباط الأصاغر الكيان المبدئي، بينما تشكِّل القيادات العنصر الموجِّه للقوات المسلحة، وفي الانفجار النووي يكون اليورانيوم أو البلاتينيوم الكيان المبدئي بينما تكون وسائل تفجيرهم العنصر الموجِّه لبدء شرارة سلسلة التفاعلات، في أزمة مالية على غرار دول شرق آسيا كانت البلدان الضحية هي الكيانات المبدئية، بينما كان المضاربون الماليون هم العنصر المولِّد للأزمة. دون التوجيه الذي توفِّره الحكومة سيتحوَّل الناس إلى كومة من الرمال المتحركة، ودون التوجيه الذي توفِّره القيادات العسكرية يتحول الجنود إلى شراذم من الغوغاء، ودون وسائل التفجير لن يكون اليورانيوم والبلوتونيوم سوى كومة من المعادن، ودون أنشطة المضاربين الماليين لإحداث التشويش المالي، فالآليات التنظيمية للدول الضحايا كانت ستجنِّبهم الكوارث المالية. في علاقة من هذا القبيل، إن نحَّينا عامل التفاعلات المتبادلة جانباً، يتَّضِح لنا تماماً ما هو العنصر الجانبي وما هو العنصر المبدئي، ومن يعدِّل من.

كما رأينا من المناقشة الواردة آنفاً، فبنية المبدأ الجانبي هي بنية متناظرة، وبالتالي فالعلاقة بين العنصر الجانبي والعنصر المبدئي ليست متوازنة، وفي هذه النقطة، يكون الوضع مشابهاً تماماً لقاعدة النسبة الذهبية: 0.618 و 1 حيث يشكِّلان بنية غير متناظرة وعلاقة غير متوازنة، ولدينا ما يبرر تماماً اعتبارنا إياها كطريقة ثانية للتعبير عن صيغة المبدأ الجانبي. ففي بنية المبدأ الجانبي المهم هو العنصر الجانبي وليس العنصر المبدئي. وينطبق هذا على قاعدة النسبة الذهبية، فالمهم هو 0.618 وليس الـ 1. وهذا هو القاسم المشترك للقاعدتين. القوانين تقول لنا أن أي شيئين لهما سمات مشتركة لا بد وأن يتبعان بعض القواعد المشتركة، فإن كان هنالك أية قاعدة مشتركة تنطبق على بنية المبدأ الجانبي والنسبة الذهبية فهي كالآتي:

0.618 انحراف نحو المبدأ الجانبي

ربما تكون أفضل قصة نوضِّح من خلالها هذه النقطة هي قصة سباق خيول تيان جي، ففي وضع القوة الشاملة الأدنى قام المنظِّر العسكري صن بن بتحركه الكلاسيكي الذي كان مثالاً كافياً عن حكمة الألعاب الصينية، فبدأ سباق تيان

جي بين أسوأ وأفضل خيول الملك تشي، وبعد الخسارة المحتومة في هذا السباق استخدم خيول فريقه؛ الأفضل منها والمتوسطة الأداء، للتغلب على أسوأ خيول خصمه وعلى المتوسطة الأداء منها وبالتالي ضمن تحقيق الفوز مرتين. هذه الطريقة في استخدام استراتيجية الخسارة مرة والربح مرتين (العنصر الموجِّه) لربح اللعبة بأكملها (العنصر الأساسي) يمكن النظر إليها على أنها بنية مبدأ جانبي نموذجية، نتيجة الربح مرتين من أصل ثلاثة ألعاب طابقت النسبة الذهبية تماماً 2:3، ونرى هنا تلاقي واتحاد القاعدتين:

قاعدة النسبة الذهبية = قاعدة المبدأ الجانبي.

اكتشاف قاعدة هو بداية ونهاية لدراسة قضية ما، طالما أننا نعتقد أن شيئاً يسمى قاعدة المبدأ الجانبي يمكن رؤيتها في عمل كل الأشياء، يجب أن نصدِّق أيضاً أن قاعدة مثل النسبة الذهبية لن تترك المجال العسكري دون أن تترك بصمتها.

الحقائق كذلك بالفعل:

في معركة تشانغشاو بين تشي ولوو: تواجهت القوتان في ميدان المعركة، وكانت قوة تشي شرسة للغاية، إلا أن قوة لوو تشبثت بمواقعها، وهاجمت قوة تشي ثلاث مرات بثلاث جولات من قرع الطبول لكنها فشلت في خرق جبهة قوة لوو، مما أسفر عن انخفاض ملحوظ في الزخم، ونالت قوة لوو فرصتها لشن هجوم معاكس، فحققت النصر التام، وبعد المعركة كشف المستشار تساو غوي عن سبب هزيمة تشي وانتصار لوو في هذه المعركة: كانت قوة العدو ذات زخم كبير في الجولة الأولى من قرع الطبول، وقلَّ الزخم في الجولة الثانية، وكانوا منهكين في الجولة الثالثة. وبينما كان العدو مُنهَكاً، كانت قواتنا تتمتع بقوتها الكاملة. يمكن تقسيم آلية المعركة بالكامل إلى خمسة مراحل: الجولة الأولى من قرع الطبول لقوات تشي، والجولة الثانية من قرع الطبول لقوات تشي، والجولة الثالثة من قرع الطبول لقوات تشي، ثم الهجوم المعاكس لقوات لوو، ثم مطاردة قوات تشي. من المرحلة الأولى



حتى الثالثة تبنى ساو غوي استراتيجية تجنب هجوم العدو، بحيث تجاوزت قوات تشي سريعاً النقطة الذهبية لقوتها الهجومية دون إحراز أية نتائج. وفي ذات الوقت اختارت قوة لوو هذه النقطة بالتحديد لشن الهجوم المعاكس، حيث طبّقت تماماً قاعدة النسبة الذهبية في ميدان المعركة منذ 2700 سنة (3:5 يساوي تقريباً النسبة الذهبية 0.618)، ومن المؤكد أن ساو تشي لم يكن يعرف فيثاغورث ونظريته عن النسبة الذهبية التي جاءت بعدها بمئتي سنة، وحتى لو كان يعرف النظرية، فلم يكن بوسعه تحديد مكان النقطة 0.618 بالضبط وسط معركة قائمة، لكنه وجد النقطة غريزياً على ضوء القاعدة الذهبية المتقطع، وهذه موهبة يشترك فيها جميع العسكريين العباقرة.

وفكَّر هانيبعل بنفس الطريقة التي فكَّر فيها ساو تشي في معركة كانوي، وكما فعل ساو تشي؛ فهم سر انحدار قوة هجوم العدو، ولذا عمد على خلاف العادة إلى نشر أضعف القوات من المشاة الغاليّة والإسبانية في قلب الجبهة حيث يجب أن تُنشر أفضل القوات، جاعلاً هذه القوات الضعيفة تتحمل هجمات القوات الرومانية، ومثل هذه القوات لم يكن بوسعها الصمود في وجه القوات الرومانية، وتحولت تدريجياً إلى شكل هلال ذي أسنان مدببة، وسواء ظهر هذا القوس عن عمد من هنيبعل أو مصادفة، إلا أنه أصبح حاجزاً يمتص هجمات القوات الرومانية، ومع التضعضع التدريجي لهذه القوة الكبيرة بسبب طول الجبهة وصلت إلى الحد الأدنى من الزخم في وقت ظهور الجزء الذي كان في المؤخرة من القوات القرطاجية، التي كانت أضعف إجمالاً لكنها كانت متفوقة في سلاح الفرسان، وسرعان ما شنوا هجوم الفرسان من المجنَّبات ليكملوا الطوق على القوات الرومانية، ومن ثم تحوَّلت كانوي إلى منطقة قتل، قُتِل فيها سبعون ألفاً.

كانت المعركتان مختلفتان لكنهما اشتركتا بطريقة العمل؛ ففي كلتا المعركتين، كانت الاستراتيجية السائدة هي تجنُّب هجمات العدو الجبهيَّة لإضعاف زخم العدو، وتبني نهج عملياتي يقوم على الانحراف الواضح عن القتال الجبهي (بالمواجهة) ومن ثم انتقاء نقطة الانحدار لقوة العدو بعناية كنقطة مثالية تشن فيها القوات المُهِمَة

هجومها المعاكس، واستُخدِمَت الطريقة العملياتية بشكل متوافق تماماً مع قاعدة النسبة الذهبية والمبدأ الجانبي.

إن لم ننظر إلى هاتين الحالتين على أنهما مصادفتان أو ظاهرتان منعزلتان، سنرى شعاع قاعدة النسبة الذهبية يتحرك بشكل واسع عبر صفحات تاريخ الحرب، وربما تكون هذه النقطة أكثر انتشاراً في الحروب الحديثة. فخلال الحرب العالمية الثانية كانت العمليات الهجومية الألمانية على فرنسا مُتَشَرِّبَةً بالقاعدتين المذكورتين، مثل تغيير وضع الدبابات من كونها تابعة للمشاة إلى جعلها سلاح المعركة الرئيسي، وجعل الحرب الخاطفة (بلتزيرغ) العقيدة القتالية الرئيسية على أساس نبذ تجارب الحرب العالمية الأولى، وانتقاء جبال الأندرين كاتجاه رئيسي للهجوم للقوات الألمانية، ولم تكن هذه مفاجأة للأعداء فحسب بل للجنرالات القدامى الذين عفا عليهم الزمن، فقد كانت هذه الأعمال غير تقليدية بشكل واضح ويطغى عليها الجنوح نحو العنصر الجانبي. وكانت سمة الجنوح هذه هي التي أدَّت إلى تغييرات جذرية في التفكير العسكري للجيش الألماني بأكمله، وألقت بحلم شليفن في القنال الإنكليزي لتجرفه أمواج القنال الهادرة ويتحول إلى كابوس للإنكليز في دنكرك. وقبل هذا الزمن، من كان ليفكر بأن مخطط هذه المعجزة كان سيأتي من ضابطين منخفضي الرتبة: مانشتاين وغودريان؟

وخلال ذات الحرب كان هنالك الهجوم الياباني على بيرل هاربر، الذي كان مشابهاً لعملية الهجوم على فرنسا، وتمَّ وفقاً لقاعدة المبدأ الجانبي. إيسوهورتو ياماموتو استخدم حاملات الطائرات بنفس الطريقة التي استخدم فيها غودريان الدبابات، ومن وجهة النظر المفاهيمية نظر ياماموتو إلى السفن الحربية على أنها القوة الرئيسية في المعارك البحرية الحاسمة في المستقبل، لكنه انتقى حاملات الطائرات وما تحمله من طائرات بشكل صحيح ودقيق على أنها السلاح المبدئي للعمليات ضد البحرية الأمريكية، وما يثير الاهتمام أكثر هو أنه لم ينفِّذ هجمات جبهية على امتداد السواحل القارية للولايات المتحدة عند شن الهجمات على الأمريكيين، وفي نفس الوقت، أخذ بعين الاعتبار نصف قطر الهجوم لأسطوله المشترك، أي: الموقع الأمثل

الذي كان بمتناول قواته، وهكذا اختار هاواي التي كانت عظيمة الأهمية الاستراتيجية للسيطرة على المحيط الأطلسي، لكن الأمريكيين لم يصدِّقوا أنها ستكون نقطة الهجوم حتى بعد أن تلقَّوا معلومات استخباراتية قبل العملية. كما ينبغي الإشارة إلى أن هذا الجنرال الذي يثق بالمعارك البحرية الحاسمة اختار هجوماً تسللياً على بيرل هاربر، بدلاً من معركة بحرية حلم بها طوال حياته، كأول معركة كبرى تؤثّر على مسار الحرب. وبالتالي حقق النصر من خلال حركات مفاجئة ضرب فيها أهدافاً جانبية.

من خلال التحليل آنف الذكر، يجب أن نفهم أنه لا يجب فهم قاعدة النسبة الذهبية أو قاعدة المبدأ الجانبي حرفياً بشكل ضَيِّق، بل إن من الضروري فهم جوهرهما. ميدان المعركة المتغيِّر سيعطي أي قائد عسكري إما الوقت الكافي أو المعلومات الكافية للتحديد الدقيق لنقطة النسبة الذهبية أو درجة الانحراف نحو العنصر الجانبي. وحتى الشيئين الجوهريين في هاتين القاعدتين؛ 0.618 و"التوجه نحو العنصر الجانبي" ليسا ثابتين في العملية الرياضية، فهم يمثِّلون آلاف التجلِّيات للنصر في ميادين الحروب المتغيرة وساحات المعارك وأوضاع الحرب.

إنها تظهر في بعض الأحيان في الوسائل، على سبيل المثال: خلال حرب الخليج استخدم شوارتزكوف القصف الجوي كوسيلة رئيسية، بينما استخدم القوات البرية والبحرية التي كانت على الدوام قوات رئيسية كقوات داعمة.

وتتجلى في بعض الأحيان في اختيار التكتيكات، على سبيل المثال: غيَّر دونيز الحرب البحرية من سفينة تواجه سفينة إلى هجمات الغواصات على السفن التجارية، شكَّل تكتيك "الزمرة الذئبية" هذا تهديداً كبيراً على البحرية البريطانية أكثر من المعارك البحرية.

وتتجلى أحياناً في انتقاء الأسلحة، على سبيل المثال: مدفعية نابليون ودبابات غودريان وحاملات الطائرات لياماموتو، والذخائر الدقيقة التي استُخدِمَت في عملية الساحل الذهبي حيث كانت كافة الأسلحة الرئيسية الكفيلة بترجيح ميزان الحرب.

وتتجلى أحياناً في انتقاء نقطة الهجوم، على سبيل المثال: خلال معركة ترافالجار

(الطرف الأغر) البحرية اختار نلسن على حكمة منه مؤخرة الأسطول الفرنسي بدلاً من المقدمة كنقطة رئيسية للهجوم، وبالتالي حقق نصراً بحرياً، أدى لميلاد الإمبراطورية البحرية[1].

وتتجلى أحياناً في انتقاء فرص القتال، على سبيل المثال: في حرب الشرق الأوسط الرابعة اختار السادات يوم السادس من تشرين الأول، في شهر رمضان للمسلمين، كيوم أول للقوات المصرية المكلفة بعبور قناة السويس، وبدأ الهجوم بعد الظهر عندما تكون الشمس أقرب للمغيب منها إلى الشروق، وكانت قذى بعيون الصهاينة، وهكذا تحطمت أسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يُقهر[2].

إنه يتجلى أحياناً في الانتشار المتفاوت للقوات، على سبيل المثال، قبل الحرب العالمية الأولى، أعدَّت القيادة العليا الألمانية خطة شليفن لغزو فرنسا، وتقضي الخطة بهجوم جريء تتحرك بموجبه 53 فرقة ألمانية من أصل 72 على الجناح الأيمن لتشن الهجوم الرئيسي، أما الفرق الـ 19 المتبقية تنتشر على امتداد خط الجبهة على الجانب الأيسر والأوسط. وبهذه الطريقة، باتت طريقة الطاولة الرملية أشهر خطة في التاريخ مع أن هذه كانت أول مرة تُستخدم فيها.

وتتجلى أحياناً في استخدام التضليل، على سبيل المثال: سنة 260 قبل الميلاد، كان ثمة منافسة بين تشين وتشاو، والملك تشاو شيانغ تشين لم يكن على عجلة من أمره لخوض معركة حاسمة ضد عدوه، وأخذ بنصيحة فان سوي، فهاجم أولاً مقاطعة

1 قبل معركة ترافلجار البحرية، أخبر نلسن قباطنته عن «طريقة سرية» يتمكن من خلالها من تغيير الطريقة العملياتية التقليدية للبحرية عبر تقسيم السفن البحرية إلى مجموعتين. مجموعة تهاجم وسط أسطول العدو بزاوية مقدارها 90 درجة، وتفصل جزء المؤخرة عن الجزء الأوسط. ثم تهاجم القوة المُرَكَّزة السفن في قسم المؤخرة لأسطول العدو. وتفصل مجموعة أخرى القسم الأوسط عن القسم الأمامي وتنفِّذ هجوماً مركَّزاً على القسم الأوسط، وسيكون من المتأخر جداً عندها على سفن المقدمة أن تحاول العودة لتقديم المعونة. معركة ترافالجار البحرية جرت تماما وفق الطريقة التي توقعها نلسن. ورغم أنه قُتِل متأثراً بجراحة في المعركة، لكن البحرية البريطانية أحرزت النصر الساحق، انظر كتاب ديج تشوبي وشيجي جينداي هيزان شي (تاريخ الحروب البحرية القديمة في العالم) سنة 1994 الصفحات 143-155.

2 دي سي ساي تشاي دولنج (حرب الشرق الأوسط الرابعة).



تشانغدان في إقليم هان بغية حرمان تشاو من دعمها، ثم تظاهر بالرغبة بالتفاوض للسلام، ونتيجة لذلك توقَّف الأمراء عن تقديم المعونة لتشاو؛ لقد استخدم الحيلة لنثر بذور الشقاق، فطرد ملك تشاو الجنرال ليان بو وعيّن مكانه المنظِّر العسكري قليل الخبرة تشاو كو، ونتيجة لذلك، هُزِمَت قوة تشاو في تشانغبينغ، ويعود السبب في هزيمة تشاو وانتصار تشين إلى استخدام فان سوي الحيلة، أكثر من قوة قوات تشين[1].

كما يجب أن ندرس ونركِّز على ظاهرة أخرى؛ وهي أن مزيداً ومزيداً من البلدان تبحث خارج المجال العسكري عند التعامل مع القضايا الهامة، السياسية والاقتصادية ومسائل الأمن القومي. ويستخدمون وسائل أخرى لإمداد أو إغناء أو حتى استبدال الوسائل العسكرية، بحيث يتمكنون من تحقيق أهداف لا يمكن تحقيقها بالقوة العسكرية وحدها. وهذا هو الجزء الأهم في علاقة العنصر الجانبي والعنصر المبدئي في الحرب على أساس مفهوم الحرب، وفي نفس الوقت يشير هذا أيضاً إلى أنه في المستقبل سيكون هنالك أعمال متكررة قائمة على أساس قاعدة المبدأ الجانبي تتشكل على أساس الوسائل العسكرية والوسائل الأخرى.

كل الاختيارات الآنفة الذكر تتسم بـ"الانحراف نحو العنصر الجانبي"، مثل قاعدة النسبة الذهبية، تتعارض قاعدة المبدأ الجانبي مع كافة أشكال التوازن والتوازي والتناظر والشمول للجميع والسلاسة، لكنها في المقابل تميل لاستخدام السيف لقطع أحد الجوانب. فتجنب الصدامات الجبهية فقط، سيكون ملائماً لسيفك كي يقطع الأشياء دون أن يتضرر، وهذه هي القاعدة الأهم لتحقيق النصر في الحروب القديمة.

إذا سمَّينا قاعدة النسبة الذهبية في مجال الفن قاعدة الجمال، فلمَ لا نسمي أيضاً قاعدة المبدأ الجانبي -صورتها المطابقة لها في المجال العسكري- قاعدة النصر؟

---

1 تشاي ليداي تشانغ شان شي (تاريخ الحرب في الصين) المجلد الثاني الصفحة 197.

العنصر المهيمن والشيء الكامل. جوهر بنية المبدأ الجانبي:

من بين العناصر الداخلية العديدة التي تكوِّن شيئاً ما لا بد وأن هنالك عنصراً معيَّناً يحتل موقعاً مهيمناً بين كافة العناصر، وإن كانت العلاقة بين هذا العنصر والعناصر الأخرى متناغمة ومثالية، فستكون متوافقة مع نسبة 0.618 في بعض الأماكن، ومتوافقة كذلك مع قاعدة المبدأ الجانبي. ومن هذا "كافة العناصر" التي تشكِّل جسم الإنسان، هي العنصر الأساسي؛ و"عنصر معيَّن" يعمل كعنصر موجِّه وبالتالي فهو العنصر الجانبي. وبمجرد أن يكتسب عضو ما غائية معينة، يشكِّل العنصر الجانبي والأساسي علاقة مهيمن-تابع. وعندما يتعارك ثوران، تشكِّل الثيران العنصر الأساسي، وتشكِّل القرون العنصر الجانبي. وعندما يتلاقى سيفان ضد بعضهما، تشكِّل السيوف العنصر الأساسي، بينما تشكِّر غروب السيوف العنصر الجانبي. طبيعة العناصر المهيمنة والعناصر التابعة واضحة تماماً. عندما تتغير الغاية، يظهر عنصر مهيمن جديد ويحل محل العنصر المهيمن القديم ويشكِّل علاقة مبدأ جانبي جديدة مع كافة العناصر الموجودة. استيعاب العلاقة بين العنصر المهيمن وكافة العناصر في كائن ما يعني فهم جوهر قاعدة النسبة الذهبية وقاعدة المبدأ الجانبي.

وعلى أساس هذه الفهم يمكننا أن نحدد سريعاً أهم خمس علاقات بين العلاقات المُعَقَّدَة للحرب: الأسلحة المُهيمِنَة وجميع الأسلحة، الوسائل المهيمنة وجميع الوسائل، القوة المهيمنة وجميع القوات، الاتجاه المهيمن وجميع الاتجاهات، والمجال المهيمن وجميع المجالات. العلاقة بين العناصر الخمسة المهيمنة وكافة العناصر في التصنيفات الخمسة تمثِّل بشكل أساسي علاقة المبدأ الجانبي التي تتواجد في الحروب على نطاق واسع.

فلنأخذ ثانية مثال حرب الخليج، في عملية عاصفة الصحراء، كانت الأسلحة المُهيمِنَة التي استخدمها الحلفاء هي طائرات الشبح، وصواريخ كروز، والقنابل الذكية، مع كافة الأسلحة الأخرى التي تلعب دوراً ثانوياً. الوسائل المهيمنة استُخدِمَت لـ 38 يوماً متتابعة هي القصف الجوي، مع الوسائل الأخرى التي أدت دور الإمداد. وكانت القوة



المهيمنة هي القوة الجوية مع كافة القوى الأخرى التي لعبت دوراً داعماً. والاتجاه المهيمن هو ضرب الحرس الجمهوري كهدف تتركز عليه الهجمات، بينما تعمل كافة الأهداف الأخرى في ساحة المعركة كأهداف ثانوية. المجال المهيمن كان المجال العسكري، بينما المجالات الأخرى كانت تقدِّم الدعم الشامل من خلال العقوبات الاقتصادية والعزل الدبلوماسي والحرب الإعلامية.

أياً يكن فليس هدفنا هو توضيح هذه العلاقات فقط، بل استيعاب وتطبيق هذه العلاقات، فكما نعرف موارد الحرب محدودة لجميع البلدان، وحتى دولة قوية مثل الولايات المتحدة يجب عليها التفكير المستمر بالموازنة بين التكلفة والفعالية (مبدأ "أقل ما يمكن من استهلاك الطاقة") وكيف تخوض الحروب بطريقة أكثر إبداعاً لتحصل على نتائج أفضل. لذا فمن الضروري جداً لأي دولة استخدام وتخصيص موارد الحرب بشكل سليم واستراتيجي. وسيتطلب هذا إيجاد طريقة صحيحة، أي أن القضية هي كيف تطبِّق واعياً قاعدة المبدأ الجانبي، في الحقيقة العديد من البلدان طبقوا عن غير وعي هذه القاعدة من قبل.

قبل انفراط عقد الاتحاد السوفياتي السابق، انحدرت إمكانيات الجيش الروسي على نحو متواصل، فلم يخسر موقعه كقوة عالمية أُولَى أمام الولايات المتحدة فحسب، بل وجد أنه من الصعب الحفاظ على الأمن القومي الآن. وفي ظل هذه الظروف، عدَّلت القيادة العليا استراتيجيتها المستقبليَّة في الوقت المناسب ورغم أنها كانت في وضع صعب، إلا أنها منحت الأولوية لاستخدام الأسلحة النووية التكتيكية وحتى الاستراتيجية في حال شُنَّت الحرب على روسيا. وعلى أساس هذا القرار، عدَّلت كذلك مساهمة الأسلحة التقليدية والنووية بشكل جذري. وعلى عكس روسيا، عندما باتت الولايات المتحدة القوة العالمية الوحيدة في العالم، أسست الولايات المتحدة قواتها المسلحة على أسس الأهداف الاستراتيجية الجديدة لصنوف القوات المسلحة الثلاث: "التفوق الشامل" (القوات البرية) [1]، "التحرك

1 «التفوق الشامل» كان هدفاً استراتيجياً تبناه جيش الولايات المتحدة في وثيقته «مفهوم الجيش سنة 2010».

من البحر للبر"(البحرية)، "الانتشار العالمي" (القوة الجوية)[1]. وعلى هذا الأساس أُختير العتاد الرقمي وأنواعٌ جديدةٌ من السفن الحربية البرمائية، وطائرات شبح بعيدة المدى كجيل جديد من الأسلحة، التي ستحلُّ مؤقّتاً محل الأوراق الرابحة مثل سلسلة الدبابات إم1-، وحاملات الطائرات، ومقاتلات إف16- كأسلحة رئيسية في الترسانة الأمريكية.

وكما يمكن أن نرى فيما يتعلق بالتعديلات الاستراتيجية التي أجرتها الولايات المتحدة وروسيا فيما يخص أسلحتهما المهيمنة، يبدو أن انتقاء الأسلحة المهيمنة على أساس قوتها التدميرية بات مما عفا عليه الزمن، فبقدر ما يكون انتقاء الأسلحة المهيمنة مقلقاً، فإن القوة التدميرية للأسلحة ليست سوى واحدة من عدة عناصر تتعلق بالأداء التقني للأسلحة. والأهم هو أن الأداء التقني هو الاعتبار الرئيسي لهدف الحرب، وأهداف العمليات، والبيئة الأمنية. وهكذا فالأسلحة المهيمنة ينبغي أن تكون أكثر الأسلحة تأثيراً لتحقيق الأهداف آنفة الذكر. كما أنه من الضروري دمجها عضوياً مع أسلحة أخرى، عند تكوين العنصر المهيمن لإكمال نظام التسليح. وتحت ظروف التقنية الحديثة، لم تعد الأسلحة المُهيمِنَة أسلحة فردية، بل "أنظمة أسلحة" تكوِّن أيضاً أنظمة أكبر[2]. ظهور الكثير من التقنيات العالية والجديدة وتعديلات مستمرة على أهداف الحرب أعطت مساحة كافية لاختيار

---

1 «الاشتباك العالمي» كان استراتيجية القوة الجوية للقرن الحادي والعشرين ووضعتها القوة الجوية بنهاية سنة 1997 لاستبدال «القوة العالمية بالوصول العالمي» كعقيدة استراتيجية للتعامل مع الأوضاع بعد الحرب الباردة. وفي هذا الصدد، فقد أكَّدَت الاستراتيجية على النقاط الجوهرية الستة للقوة الجوية: التفوق الجوي والفضائي، الهجوم العالمي، الحركية العالمية السريعة، الضربات الدقيقة، التفوق المعلوماتي، الدعم العملياتي المرن. انظر «الاشتباك العالمي ومفهوم القوة الجوية في القرن الحادي والعشرين».

2 مفهوم «نظام الأنظمة» كان نتيجة البحث المشترك الذي أجراه الأدميرال أوينز، الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة، وكبير مستشاريه بلاك. وحسب اوينز، لم تعد الثورة التكنولوجية العسكرية المعاصرة شأناً يتعلق بالثورة في السفن الحربية والطائرات والدبابات وغيرها من صنوف السلاح، وإنما ولوج عوالم أخرى مثل أنظمة الاستشعار، وأنظمة الاتصالات، وأنظمة الأسلحة دقيقة التوجيه. ودخول هذه العوالم سيولّد ثورة جوهرية في بنية القوة وأنماط العمليات العسكرية. ربما في المستقبل، لن يبقى هذا التقسيم للقوات بين برية وبحرية وجوية، بل التقسيم بين «قوة المجسّات» و«القوة الضاربة المتحركة» و«قوة الدعم الذكي». انظر المقابلة التي أجراها أوينز مع بوجيانج وجوانفانج دانغو شوايباو و شنداي جنشي وشيجي جنشي.

الأسلحة المُهيمِنَة والجمع بين الأسلحة المهيمنة والأسلحة الأخرى، وصنع كذلك في نفس الوقت، علاقة مهيمن-تابع بين الأسلحة المهيمنة وغيرها من الأسلحة من جهة والأسلحة الأخرى الأكثر منها تطوراً من جهة ثانية[1].

ذات العوامل تؤثِّر أيضاً في استخدام وسائل الحرب، ويصبح التركيز على العمل العسكري والوسائل الأخرى الداعمة في الحرب تلقائياً مما عفا عليه الزمن. ربما، في المستقبل غير البعيد جداً، ستكون الوسائل العسكرية واحدة من وسائل عديدة متاحة في الحروب مثل نمط الحرب الإرهابية التي يخوضها بن لادن. يمكن أن تكون الوسائل الأشد فاعلية لضرب بن لادن ليست صواريخ كروز، بل حرب الخنق المالي الذي يمكن تنفيذها عبر الانترنت.

وبما أن الوسائل باتت أكثر تعقيداً، فقد ظهرت عواقب غير متوقَّعة لكل العسكريين: تمدين الحرب. لذا فقضية العلاقة بين القوة المهيمنة وكافة القوى تشمل أيضاً قضية درجة مساهمة كافة المدنيين في الحرب، وكذلك انتشار وتخصيص واستخدام القوات العسكرية للعمليات القتالية. ونظراً لأن أنشطة الحرب أو شبه الحرب التي يقوم بها الجنود المحترفون أصبحت على نحو متزايد عاملاً هاماً يؤثِّر على الأمن القومي، فقد باتت قضية تشكيل القوة المهيمنة في حروب المستقبل محط موضع تساؤل العالم أجمع، رغم أن أحداً لم يتساءل عنها في العالم أجمع. على سبيل المثال: حوادث الهجمات التي نفَّذها "أوغاد الشبكة" على مواقع وزارة الدفاع الأمريكية والهندية كانت دليلاً على هذا.

سواء كان الفعل عملاً حربياً محضاً، أو عملاً غير حربي، أو عملاً غير عسكري، فإن أي عمل ذا طبيعة قتالية سوف يستتبع قضية كيفية الانتقاء الدقيق للاتجاه الرئيسي للعملية ونقطة الهجوم الرئيسية، أي: لتحديد توجهك الرئيسي فيما يتعلق بكل العوامل التي تخص الحرب، وميادين الحرب وجبهات المعركة. هذه

1 لا نؤيد الرأي المتفائل لمؤيدي التكنولوجيا في مجال الثورة العسكرية. فنحن لا نصدِّق لا نعتقد أن التكنولوجيا يمكنها النفاذ عبر ضباب «احتمالات الحرب»، فاحتمالات الحرب لا تأتي وفقاً لعوائق فيزيائية أو جغرافية وإنما من عقول الناس.



هي القضية الأهم والأصعب بالنسبة لكل هؤلاء القادة الذين يوجِّهون الأسلحة الجيدة، تعدد الوسائل وكفاءة القوة البشرية. لقد كان الاسكندر وهنيبعال ونلسن ونيمتز إضافة إلى سن تزو وسن بن في الصين القديمة مَهَرَةً في انتقاء الاتجاهات الرئيسية للهجوم التي يمكن أن تفاجأ قوات العدو تماماً. ولاحظ ليدل هارت أيضاً هذه النقطة، وأشار إلى نهج اختيار الخط الأقل مقاومة واتجاه العمل الأقل توقعاً بالنسبة للعدو كـ "استراتيجية غير مباشرة". وبما أن حلبة الحرب توسَّعَت، لتضمَّ المجالات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والثقافية والنفسية، إضافة إلى الأرض والبحر والجو والفضاء والإلكترونيات، والتفاعلات بين كافة العوامل جعلت من الصعب على المجال العسكري أن يكون المجال السائد تلقائياً في أي حرب، بل ستجري الحرب في المجالات غير الحربية؛ يبدو هذا المفهوم غريباً ومن الصعب قبوله، لكن العلامات على ظهور هذا التوجُّه متزايدة. وفي الحقيقة، لم تكن الحرب في العصور القديمة منحصرة في مجال واحد. فمعركة ليان شيانجرو الدبلوماسية "لإعادة حجر اليشم سليماً إلى تشاو" والحرب الافتراضية التي شنها مو زي وقونقشو بأن كانت أمثلة تقليدية على الانتصار في الحرب أو منع الحرب بأعمال غير عسكرية. هذه الطريقة لحل مشكلة الحرب من خلال أعمال في مجالات متعددة يجب أن تنير بصيرة الناس اليوم. فحقبة استخدام التقنيات المتطورة جداً على نطاق واسع أعطانا مجالاً واسعاً لتطبيق الحكمة والوسائل أكثر من القدماء، لدرجة أن حلم الناس بتحقيق الانتصارات العسكرية في المجالات غير العسكرية وربح الحروب بوسائل غير حربية يمكن أن يصبح الآن حقيقة. إن أردنا الانتصار في حروب المستقبل، يجب أن نستعد فكرياً تمام الاستعداد لمثل هذا السيناريو، لشن حرب تؤثِّر على كل ميادين الحياة للدول المُشتَرِكَةِ فيها، ويمكن أن تُشنَّ في مجال لا تهيمن عليه الأعمال العسكرية. ولحد الآن ما تزال أسلحة ووسائل ورجال مثل هذه الحروب مجهولين، وكذلك الاتجاه والمجال الذي ستسير فيه مثل هذه الحرب.



قاعدة، ليست في شكل صيغة

الحرب أصعب من أن تفسَّر أو تُفهَم، إنها تحتاج دعماً تقنياً، لكن التكنولوجيا لا يمكنها أن تُغني عن المعنويات والدهاء، بل تحتاج إلهاماً فنياً دون الجنوح إلى الرومانسية والعواطف، ودقة رياضية دون أن تتحول هذه الدقة إلى عملية آلية متحجرة، وتحتاج تنظيراً فلسفياً دون أن يعيق التفكير النظري اقتناص الفرص السانحة وسط معمعات الحديد والنار.

ليس ثمة صيغة، فلا يجرؤ أحد على التشدُّق بأن هذه أو تلك هي الطريقة الأمثل في مجال الحرب. ولم يكن بوسع أحد استخدام طريقة معينة للانتصار في كل الحروب، لكن هذا لا يعني أنه ليس هنالك قواعد تحكم الحرب، فقلة من الناس سُجِّلَت أسماؤهم في قائمة الجنرالات الذين لم يُهزموا أبداً لأنهم اكتشفوا واستوعبوا قواعد النصر.

وهذه الأسماء تشهد على وجود قواعد النصر، لكن لم يكتشف أحد السر، على امتداد وقت طويل -على امتداد تاريخ الحرب بأكمله تقريباً- فقد اعتبر الناس هذه القواعد ومضات كهربائية في أدمغة قادة موهوبين، لكنهم نادراً ما يدركون أنها مختفية وسط القتال الدامي بين قعقعة السيوف ودخان البارود.

وفي الواقع فأي قاعدة تشبه صفحة من الورق، والمهم هو إن كنت قادراً على ثقبها أم لا.

قاعدة المبدأ الجانبي أشبه بصفحة من الورق، فهي بسيطة ومعقَّدة ومضطربة وفي ذات الوقت ثابتة، كما حدث مراراً وتكراراً يتمكَّن إنسان عن غير قصد وبمحض الحظ من ثقب الورقة، وتنفتح له على الفور. كما أنه من السهل التعبير عن هذه القاعدة بسلسلة من الأرقام أو بقاعدة لغوية، وهي معقدة جداً لدرجة أنك قد لا تتمكن من إيجاد خفاياها حتى ولو كنت خبيراً في الرياضيات والقواعد اللغوية، فهي مثل الدخان من الصعب الإمساك بها، وهي ثابتة مثل الظل وتترافق مع كل إشراقة نصر.

وبالتالي فنحن نعتبر قاعدة المبدأ الجاني مبدأً، وليس نظرية. لقد أخذنا بعين الاعتبار نسبية المبدأ، فالأشياء النسبية لا ينبغي أن تُطبَّق آلياً ولا تتطلب إجراءات دقيقة، النسبية ليست بياضاً مطلقاً وبالتالي لا تخشى البجعة السوداء[1].

لكن من خلال دراسة تاريخ الحرب، حددنا أن قاعدة المبدأ الجاني على أنها قاعدة لتحقيق النصر، لكن كيف ستُطَبَّق بشكل صحيح، ستكون هذه مسألة متروكة لكل مستفيد منها ليحدد هذا في ضوء الظروف الخاصة. فظاهرة الإصرار في الحرب كثيراً حيَّرت كل من يسعى للانتصار في الحرب: هؤلاء الذين يعملون ضد القوانين سيفشلون لا ريب، أما أولئك الذين يلتزمون بالقواعد المعروفة سينتصرون في الغالب. "ستة مضروبة في ستة يساوي 36، يوجد حيل في الأرقام، وأرقام في الحيل، ين متناسق مع يانغ[2] ، والفرص موجودة هناك، وليس من الممكن صناعة الفرص.

التصنيع لن يفيد، "الحيل الست وثلاثين"[3] تشكِّل الكشف عن الطريقة التي تسير وفقها الأمور، أي: بغض النظر عن عدد الأمثلة عن الحرب التي يمكن أن نجدها لِنُثبِتَ أن أسباب النصر تشتملها كانت متوافقة مع 0.618، فالشخص الآخر الذي يخطط لخوض حرب أو معركة بالتوافق التام مع قاعدة النسبة الذهبية سيتجرّع مرارة الهزيمة. وسواء استُخدِمَت قاعدتا النسبة الذهبية أو المبدأ الجانبي أم لا، فمفتاح النصر يكمن في تطبيق جوهر المبدأ، وليس التطبيق الحرفي، مثلما رسمت أنامل الرسّام دونغ تشي تشي جمال تشي تشي الفنّان. وفي معركة روسباخ الشهيرة ومعركة لوزين في التاريخ الأوروبي، استخدمت الأطراف المُهاجِمَة في الحالتين أسلوب

1 قاعدة المبدأ الجانبي ليست نظرية من نوع التصريحات «كل الرجال سوف يموتون» و«كل البجع أبيض اللون»، بل إنها قاعدة لتوجيه الناس للانتصار في الحرب.

2 نورس: علامة الين واليانغ ترمز لكيفية عمل الأشياء في العلم الصيني القديم. الدائرة الخارجية تمثل «كل شيء»، بينما الشكلان الأبيض والأسود داخل الدائرة يمثلان التداخل بين طاقتان متضادتان، طاقة الين «الأسود» وطاقة اليانغ «الأبيض» الطاقتان المؤديتان لحدوث أي شيء في الحياة.

3 نورس: الحيل الست والثلاثين هي مجموعة من الحيل أو التكتيكات من التراث الصيني تنسب إلى الجنرال الصيني تان داوجي يمكن استعمالها في السياسة أو في الحياة اليومية وتعتبر من التراث الصيني العام وتُدَرَّس حتى في المدارس كما يتم الاقتباس منها أو طباعتها في شكل كتيبات مصوَّرَة.

الاسكندر: "تشكيل الهجوم المائل"، لكن النتائج كانت مختلفة تماماً، ففي معركة روسباخ استنسخ قادة القوة الفرنسية النمساوية تاريخ الحرب بحذافيره. فحرَّكوا القوات وبنوا تشكيلات قتالية تحت أنظار فريدريك العظيم مباشرة. وحاولت القوات الفرنسية النمساوية استخدام التشكيلات المائلة لمهاجمة ميسرة الجيش البروسي، لكنها تلقت هزيمة منكرة على يد القوات البروسية التي أجرت تعديلات في الانتشار في الوقت المناسب. وبعدها بسنة، في لوزين واجه فريدريك القوات النمساوية التي كانت تزيد على قواته بثلاثة أضعاف ثانية، لكنه هذه المرة حقق العجائب. ورغم استخدامه تشكيلات الهجوم المائل، إلا أنه تمكَّن من إبادة القوات النمساوية، إنه شيء غريب حقاً أن تؤدي ذات الطريقة إلى نتيجتين مختلفتين تماماً[1]. مما يدلنا على أنه ما من طريقة صحيحة دوماً للحرب، بل يوجد قواعد صحيحة دوماً، كما تدلنا على أن القواعد الصحيحة لا تضمن النصر دوماً، السر في النصر هو التطبيق الصحيح للقواعد. وبشكل مشابه، فيما يتعلق بقاعدة المبدأ الجانبي، فالتأكيد على استخدام العنصر الجانبي لتعديل العنصر الأساسي، لكن هذا لا يعني أن التوجه نحو العنصر الجانبي سيؤدي إلى النصر دوماً. التوجه نحو العنصر الجانبي يعني أن بالدرجة الأولى التوجه من حيث خطوط الفكر والجوهر، وليس الشكل. على سبيل المثال، في الحرب الفعلية، ليس من الضروري أن تكون نقطة الهجوم دوماً في نقطة الانحراف في نقطة متناسبة مع الرقم 0.618 لتتوافق مع قواعد النصر، من الممكن أن تتطلب قواعد النصر اختراقات جبهية، وهكذا هذه المرة يكون العنصر الأساسي هو العنصر الجانبي. هذه طبيعة الحرب كفن، ولا يمكن استبدال هذا العنصر الفني بآخر رياضي أو فلسفي أو المجالات الأخرى من العلم والتكنولوجيا[2]، لذا فنحن متأكدون من أن هذا التيار في الثورة التقنية العسكرية لا يمكنه أن يحل محل الثورة في فن الشؤون العسكرية.

كما ينبغي الإشارة إلى أن المبدأ الجانبي مشابه بالتأكيد لمبدأ: "مفاجأة ألَّا يكون

1 انظر فوللر: التاريخ العسكري للعالم الغربي، المجلد الثاني، الصفحة 201، تاريخ الحرب الدقيق الصفحة 86.

2 لا نرفض أن نهمل التحليل الرياضي، خصوصاً في عصر انتشار استخدام الحواسيب وفي هذا البلد حيث يوجد تقليدياً تشجيع على الغموض وفتور اتجاه الدقة.



هنالك مفاجأة" الذي تبناه المُنَظِّرون الاستراتيجيون الصينيون القدماء، لكنهما في الواقع ليسا ذات الشيء. فقد دعا الاستراتيجيون القدماء إلى استخدام الحركات المفاجئة وغير المفاجئة مرات عديدة. فقال سن تزو: "من الضروري في القتال استخدام التحركات غير المفاجئة لتجميع القوة واستخدام التحركات المفاجئة لتحقيق النصر، القتال يستلزم التحركات المفاجئة وغير المفاجئة، وليس من نهاية للتغييرات في استخدام الحركات المفاجِئَة وغير المُفاجِئَة[1]". العنصر الجانبي والعنصر الرئيسي ليسا طريقتين يمكن استخدام كل منهما بمعزل عن الأخرى، بل إنهما تعبير عن قانون مجرَّد، وأهم ما يجب تمييزه هو ما يلي: من المؤكد أنه في تاريخ الحرب حالات الانتصار من جراء التحركات المفاجئة كانت عظيمة بسبب تنفيذها الرائع، لكن لن تحدث جميع الانتصارات من جرّاء التحركات المفاجئة، إذ إن هنالك العديد من الأمثلة عن تحقيق الانتصارات من خلال التحركات غير المفاجئة. قاعدة المبدأ الجانبي مختلفة، ومن خلال التحليل، يمكن اقتفاء أثر قاعدة النصر في كل انتصار، سواء حدث النصر من خلال تحركات مُفاجِئَة أو غير مُفاجِئَة: مما يعني أن النصر هو نتيجة قاعدة المبدأ الجانبي بطريقة مفاجئة أو غير مفاجئة.

لا يهم مدى وضوح قاعدة المبدأ الجانبي أو قاعدة النصر بالنسبة لنا، يمكننا فقط أن نتقدم من خلال تطبيق القاعدة من خلال طريقة غامضة، ففي بعض الأحيان يكون الغموض خير وسيلة للوضوح. والغموض فقط جيد حتى يتمكّن المرء من الاستيعاب بطريقة شاملة، هذه هي الطريقة الغربية في التفكير. لكن بشكل غريب، تلاقت الحكمة الغربية في النقطة الذهبية 0.618. ونتيجة لذلك فقد وفَّر المنطق الغربي والعقلانية والدقة والغريزة والفهم والغموض الشرقي منطقة مشتركة للحكمة العسكرية الغربية والشرقية وصنعوا معاً قاعدة النصر التي تطرَّقنا إليها. هذه القاعدة التي تلتمع بَهِيَّة، وتجمع بين الغموض لدى الشرق والصرامة لدى

1 الاقتباس من «الزخم» في كتاب صن زي بينفا (فن الحرب لصن زو)، مبدأ: «المفاجئ ليس مُفاجِئاً» مفهوم مهم استخدمه المنظِّرون الاستراتيجيون القدماء في العلاقة بين طرائق الحرب. كي تجري حركات غير متوقعة للعدو هي طريقة «المفاجئة»، ولمواجهة العدو في ساحة المعركة بشكل مفتوح هي الطريقة «غير المفاجئة». وفهم الامبراطور تايزونغ تانغ جيداً لـ «مبدأ المفاجئة وعدم المفاجئة». وكان اشتباك ويتشينغ مثالاً عن هذا.



الغرب، كما لو أن الإفريز في قصر تايهي (قاعة الانسجام الأسمى هي أكبر قاعة داخل المدينة المحرمة في بكين) قد رصَّع أعمدة معبد باثرون، لتُسبِغَ عليه خلعة البهاء والهيبة والحياة.

الفصل السابع

آلاف الطرق تجتمع وكأنها واحدة: الجمع الذي يتجاوز الحدود

حروب اليوم ستؤثّر على أسعار الوقود في الأنابيب، وأسعار الطعام في المحال، وأسعار الأوراق المالية في البورصة. كما ستُخِلُّ بالتوازن البيئي، وستشق هذه الحروب طريقها إلى كل شخص في بيته عبر شاشات التلفاز.

آلفر توفلر

فهم القواعد التي يتم بها النصر (موضوع الفصل السابق) لا يعني قطعاً وجود قفل على النصر، فمعرفة تقنيات السباقات الطويلة لا تعني القدرة على الفوز بالماراثون. اكتشاف قواعد النصر يمكن أن تعمِّق معرفة الناس بقوانين الحرب، وتزيد الخبرات التي تجري من خلالها فنون الحرب. لكن في ميدان المعركة، لن يصل المنتصر إلى النصر يقيناً لأنه اكتشف مزيداً من قواعد النصر، بل سيكون المفتاح هو أي منافس سيستوعب فعلياً قواعد النصر جوهرياً.

في حروب المستقبل الممكنة، ستفرض قواعد النصر مطالب مُلِحَّة على المنتصر، فلن يكون مطلوباً منهم -كما في الماضي- المعرفة التامة بكافة الطرق العبقرية للتنافس على النصر في ميدان المعركة فحسب، بل سيكون عليهم فرض مطالب تعني أن معظم المقاتلين لن يكونوا على أهبة الاستعداد، أو يشعرون كما لو أنهم غارقون في الظلام: ستُخاض الحرب وتُحسم خارج ميدان المعركة، والسعي للانتصار سيجري في ميدان معركة آخر.

وباستخدام هذا المعنى المحدد، لا يستطيع رجال مثل بأول أو شوارزكوف أو حتى سوليفان (رئيس أركان الجيش ما بين عامي 1991-1995) أو شاليكاشفيلي أن يُعتَبَروا "حداثيين". وإنما يبدون مثل مجموعة من العسكريين التقليديين، وهذا بسبب اتساع الهوة بين الجنود التقليديين ومن ندعوهم بالجنود الحديثين، وعلى



الرغم من أن هذه الهوة مما يمكن جسره، إلا أنها تتطلب قفزة فيما يتعلق بإعادة تفكير عسكرية كاملة. فبالنسبة للعديد من العسكريين قد لا يكون هذا مرغوباً إن تطلب أن يقضوا بقية حياتهم يعملون عليه، وفي الحقيقة فهذا بسيط جداً، الطريقة الجديدة هي لصناعة مكيافيللي عسكري جديد.

تحقيق الغايات بكافة الوسائل الممكنة سواء كانت عادلة أن غير عادلة، هذا هي روح التراث الذي تركه المفكِّر السياسي الإيطالي في عصر النهضة[1]، وفي العصور الوسطى، أحدث هذا تغييراً كبيراً في نمط الفروسية الذي كان سائداً وتراجعت تقاليدها. وكان معنى هذه القاعدة استخدام الوسائل، وبعضها شامل، دون أي قيود لتحقيق الغاية، وهذا ينطبق على الحرب أيضاً. ورغم أن "أيديولوجيا تجاوز الحدود" لم تكن من بنات أفكار مكيافيللي (سبقه الصيني هان فيزي[2])، إلا أنه كان أفضل من عبَّر عنها.

وجود الحدود شرط مسبق للتفريق بين الأشياء عن بعضها البعض، وفي عالم باتت فيه جميع الأشياء مترابطة، أصبحت أهمية الحدود نسبية، أما تعبير "تجاوز الحدود" يعني فأصبح يشير إلى تجاوز أشياء تُدعى أو تُفهم على أنها حدود. لا يهم فيما إن كانوا ضمن الأشياء المادية أو الروحية أو التقنية، أو إن كان اسمها "الحدود" أو "الحدود المحددة" أو "القيود" أو "القواعد" أو "القوانين" أو "الحد الأعلى من الحدود" أو حتى "المحرَّمات". عند الحديث عن الحرب، فهذا قد يعني الحدود بين ميدان المعركة وما هو ليس بميدان معركة، بين ما هو سلاح وليس بسلاح، بين الجندي وغير المقاتل، بين الدولة واللا دولة. ويمكن أن يشمل أيضاً

1 قال بي روسيل عن ميكيافيللي: «صُدِم الناس كثيراً به، وهو بالفعل كان صادِماً في بعض الأحيان، لكن إن اصطدم الناس بنفاقهم، كما حدث معه، فقلة منهم عندئذ ستفكر كما فكَّر هو... (حسب رأي مكيافيللي) إن اعتُبِر شيء ما جيداً فعلينا عندئذ أن ننتقي بعض الوسائل الكفيلة بإنجازه، وبالنسبة لقضية الوسائل، يمكن التعامل معها وفق أسلوب علمي بحت، دون اعتبار لكون هذا الشيء جيداً أم سيئاً (جونوانغ لون (الملوك)، دار هونان الوطنية للنشر، سنة 1987 الصفحات 123-115).

2 وُلِد في فترة الدول المتناحرة (221-475 قبل الميلاد) وكان هان فيزي أعظم مفكري مدرسة المنطق. وفي الكلام والفعل، أكَّد على أن التأثير الفعلي، كما في «الهدف الذي ترنو إليه الكلمات والأفعال هو النتائج»، ولم يكن ثمة أهداف أخرى أو قيود (انظر التاريخ العام للفكر الصيني، هو وائيل إت آل، عام 1957، الصفحة 616).

الحدود التقنية والعلمية والنظرية والفلسفية والعرقية والتقليدية والجمركية وغيرها من أنواع الحدود؛ باختصار، إنها تعني كافة الحدود التي تقيّد الحرب ضمن نطاق محدد. والمعنى الحقيقي لهذا المفهوم بتجاوز الحدود الذي نقترحه هو قبل كل شيء الأيديولوجيا العابرة. ثانياً فقط، يعني ذلك عند اتخاذ إجراء، لتجاوز الحدود عند الضرورة، يمكن عند تجاوزها واختيار أنسب الوسائل لذلك (بما في ذلك الوسائل المتطرفة). ولا يعني هذا أنه يجب اختيار الوسائل المتطرفة على الدوام وفي كل الأماكن. عند عن العسكريين في هذه الحقبة المتكاملة تقنياً، نجد أن هنالك أوجهاً متعددة يجب أخذها بالحسبان اليوم، وفرة الموارد القابلة للاستخدام (الموارد المادية وغير المادية) بحيث لا يكون مهماً الحدود التي يواجهها الناس، يوجد على الدوام وسيلة يمكنها اختراق هذه الحدود؛ وسائل أكثر بكثير من الوسائل التي كانت في عصر ميكيافيللي. وهكذا فمتطلبات العسكريين الحدثاء فيما يتعلق بترقية طريقة تفكيرهم تتضمن أيضاً أن يكونوا أكثر شمولية.

قلنا من قبل أن أعمال الجمع كانت مثل الكوكتيل في كؤوس الأساتذة الكبار للحرب. (بالطبع لم يسمع الاسكندر الأكبر أو ملوك أسرة تشو عن الكوكتيل، لكنهم عرفوا قيمة الاستخدام الجمعي للأشياء) لكن في الحروب القديمة الجمع بين الأسلحة والوسائل وتنظيم المعركة والخديعة كانت كلها تجري ضمن حدود المجال العسكري. هذا المعنى الضيق لمفهوم الجمع غير كافٍ أبداً اليوم. فمن يريد كسب حروب اليوم أو حروب الغد ويمسك خيوط النصر بيده، يجب عليه أن "يجمع" كافة موارد الحرب المتوافرة بيديه ويستخدمهم كوسائل لخوض الحرب. وحتى هذا لن يكون كافياً، فيجب أن يجمعهم حسب حاجة قواعد النصر، وحتى هذا لن يكون كافياً، لأن قواعد النصر لا يمكنها أن تضمن أن إحراز النصر مثل سقوط الثمرة اليانعة في السلة، بل سيحتاج أيدٍ ماهرة لتقطفه. تلك اليد هي مفهوم "تجاوز الحدود" والتكيف مع قوانين النصر عند خوض الحرب بالجمع. وهكذا فنحن نحصل على مفهوم كامل، وطريقة جديدة كلياً للحرب تسمى "حرباً تتم فيه أعمال الجمع وتتجاوز الحدود".



أعمال الجمع العابرة للدول (تشاو غوجيا زوه):

الجمع بين الدول والمنظمات الدولية وغير الحكومية

يبدو أننا الآن نواجه مفارقة أخرى: فيما يتعلق بنظرية "تجاوز الحدود" التي يجب أن تعني عدم تقييد أي نوع من تجاوز الحدود. لكن في الحقيقة، فتجاوز الحدود بلا حدود مستحيل التنفيذ، فأي تجاوز للحدود يمكن أن يجري فقط ضمن حدود معينة، وبالتالي فعبارة "تجاوز الحدود" لا تعني "انعدام الحدود"، بل تعني توسعة الحدود. أي تجاوز الحدود الجوهرية لمنطقة معينة أو اتجاه معين، والجمع بين الفرص والوسائل في مزيد من المجالات أو الاتجاهات، بغية تحقيق هدف معيَّن.

هذا هو تعريفنا "للحرب المشتركة التي تتجاوز الحدود".

هي طريقة حرب ميزتها الرئيسية هي "تجاوز الحدود"، ومبدؤها هو تجميع ومزج مزيد من الوسائل لحل مشكلة في نطاق أوسع من المشكلة نفسها. على سبيل المثال: عندما يتعرض الأمن القومي لدولة ما للخطر، فليس الرد هو ببساطة هو مسألة انتقاء وسائل لمواجهة الدول الأخرى عسكرياً، بل إنها بالدرجة الأولى تبديد للمشكلة من خلال استخدام "الجمع العابر للدول".

نرى من خلال التاريخ أن الدولة أعلى من فكرة الأمن. بالنسبة للشعب الصيني، تتساوى الدولة مع المفهوم العظيم: تحت السماء[1] . اليوم أهمية كلمة "بلاد" فيما يتعلق بالقومية أو الجغرافية ليست سوى صلة كبيرة أو صغيرة في المجتمع الإنساني ضمن "القرية العالمية". الدول الحديثة تتأثراً شيئاً فشيئاً بالمنظمات الإقليمية أو العالمية، مثل المجتمع الأوروبي (الاتحاد الأوروبي)، مثل آسيان وأوبك ومنتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ، وصندوق النقد الدولي، والبنك العالمي، ومنظمة التجارة العالمية، والمنظمة الأكبر هي الأمم المتحدة. إلى

1 نورس: تحت السماء أو كل ما تحت السماء وتنطق: تيان خا، هي عبارة في اللغة الصينية تمثل مفهومًا ثقافيًا في الصين. في الفكر السياسي الصيني التقليدي، فإن إمبراطور الصين الذي تلقى الانتداب على السماء، سيُرشح ليحكم تيان خا، التي تمثل العالم أجمع.

جانب هذه المنظمات يوجد عدد كبير من المنظمات متعددة الجنسيات والمنظمات غير الحكومية من جميع الأشكال والأحجام، مثل الشركات المتعددة الجنسيات، الاتحادات التجارية، منظمات البيئة والسلام، اللجنة الأولمبية، المنظمات الدينية، المنظمات الإرهابية، مجموعات الهكر الصغيرة...إلخ، حيث تخترق هذه المنظمات الدول من أقصاها إلى أقصاها. هذه المنظمات غير الحكومية والعابرة للجنسيات تشكّل معاً نظام قوة عالمي صاعداً ومقبلاً[1].

ربما لم يلاحظ الكثيرون، لكن العوامل التي تطرقنا إليها آنفاً تقودنا إلى حقبة من التحول تخضع فيها سياسات القوى الكبرى للسياسات العابرة للدول، والسمة الرئيسية لهذه الحقبة هي أنها انتقالية: حيث تظهر الآن العديد من الدلائل عليها، وبدأت العديد من العمليات لتوها، القوة الدولية هي جزء رئيسي، والقوة العابرة للدول والقوة غير الحكومية جزء رئيسي آخر، والقرار الأخير عن أي منها ستلعب الدور الرئيسي على الساحة الدولية لم يصدر بعد. فمن جهة القوى الكبرى تلعب الجزء المهيمن، خصوصاً وأن القوة الكبيرة من جميع النواحي؛ الولايات المتحدة، والقوى الاقتصادية الكبرى مثل اليابان وألمانيا، والصين تلك القوة الصاعدة، وروسيا تلك القوة التي بدأ نجمها بالأفول، يحاولون جميعاً الاستفادة من نفوذهم في جميع الأصعدة. ومن ناحية أخرى، يوجد قوى كبرى بعيدة النظر بدأت بالاقتباس بوضوح من القوة العابرة للدول ومن المؤسسات المتعددة الجنسيات وغير الحكومية لمضاعفة وتوسيع نفوذها. فهذه الدول تدرك أنه ليس بوسعهم تحقيق أهدافهم بالاعتماد فقط على قوتهم، وأحدث مثال وأكثر مثال معبِّر هو استخدام اليورو

1 في هذا الكتاب: المعرفة، الثراء، العنف على أعتاب القرن الحادي والعشرين، يتبنى ألفين توفلر جزءً صغيراً لمناقشة «أنواع جديدة من التنظيمات العالمية: نرى الآن انتقالاً شديد الأهمية للقوة، خصوصاً من دول منفردة أو دول متكتلة إلى مصارعين عالميين». ويعني بكلمة المصارعين العالميين الكيانات التي لا تشكِّل دولاً، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، من المجتمع الأوروبي حتى الشركات المتعددة الجنسيات. وحسب الإحصائيات الواردة في تقرير الاستثمار لعام 1997 الصادر عن الأمم المتحدة، كان في العالم آنذاك 44000 شركة متعددة الجنسيات و280000 شركة فرعية أجنبية ومؤسسة تابعة. هذه الشركات المتعددة الجنسيات تهيمن على ثلث إنتاج العالم، وتستحوذ على نحو 70% من الاستثمار الأجنبي المباشر، ثلثا التجارة العالمية وما يزيد على 70% من براءات الاختراع وأعمال نقل التكنولوجيا الأخرى. (المصدر: جوامنج دايلي 27 كانون الأول 1998 الصفحة 3، مقال كتبه لي دالن بعنوان «ازدواجية العولمة الاقتصادية»).

لتوحيد المجتمع الأوروبي، هذه العملية النشطة متواصلة اليوم، لكنها ما تزال في حالة من التخبط، وما يزال وقت جني ثمارها بعيداً. والاتجاه الأخير والآفاق بعيدة المدى ليسا واضحين، إنها أشياء تحدث بطبيعة الحال. ومع هذا يوجد بعض الأدلة التي تدل على الاتجاه، أي أن الستار يُسدل ببطء على حقبة كان فيها صدور القرار النهائي عن النصر والهزيمة يتم بطريقة الدولة في مواجهة اختبارات قوة الدولة، وفي المقابل يرتفع الستار بهدوء ليكشف عن حقبة ستنحل فيها المشكلات وتتحقق الأهداف باستخدام الوسائل العابرة للدول على مسرح أكبر من حجم الدولة [1].

في ضوء هذا، ندرج "أعمال الجمع العابرة للدول" بين العوامل الأساسية للحرب التي تتجاوز الحدود.

في هذا العالم التي تجري فيه الاختراقات المتبادلة عبر السياسة والاقتصاد والأيديولوجيا والتكنولوجيا والنفوذ الثقافي والشبكات والاستنساخ وهوليود والفتيات المثيرات (الإباحية عبر الانترنت) وكأس العالم، التي تتجاوز جميعها الحدود الإقليمية، من الصعب جداً إدراك آمال فرض الأمن وتحقيق المصالح بالمعنى الوطني البحت، وأحمق -مثل صدام حسين- من يعتقد أن بوسعه تحقيق طموحه الشخصي الجامح من خلال الاحتلال الصريح للأرض. والحقائق تثبت أن التصرف بهذه الطريقة في السنوات الأخيرة من القرن العشرين بات مما عفا عليه الزمن، وسيؤدي بالتأكيد للهزيمة. كما أن الولايات المتحدة في سعيها لضمان الأمن القومي ومصالحها الوطنية كقوة عظمى ناضجة تبدو أكثر ذكاءً من العراق، فمنذ اليوم الذي اتجه فيه الأمريكيون باتجاه المسرح الدولي، كان الأمريكيون يحققون أهدافهم إما بالقوة أو بالخديعة، والثمار التي جنوها من الدول الأخرى كانت أضعافاً مضاعفة عما

1 حسب رأي بريجنسكي، عدد من تجمعات الدول ستظهر في القرن الحادي والعشرين، مثل مجموعة دول أمريكا الشمالية، المجموعة الأوروبية، مجموعة شرق آسيا، مجموعة جنوب آسيا، مجموعة الدول المسلمة، ومجموعة دول شرق أوروبا. التنافس بين هذه المجموعات سيهيمن على صراع المستقبل. (تشير جملة دا شيكونغ يو دا هونلوان التي تعني باللغة الصينية «خارج السيطرة» إلى: الاضطراب العالمي عشية القرن الحادي والعشرين، دار نشر العلوم الصينية، الصفحة 221) وستتزايد المنافع للأمم المتحدة باستمرار، وهو الاتجاه الذي ظهر من قبل (انظر: الأمم المتحدة، نحو القرن الحادي والعشرين)، دار نشر المعرفة العالمية.

حصل عليه العراق من الكويت. ولا يمكن شرح الأسباب بمجرد أن "التاريخ يكتبه المنتصرون"، كما أن المشكلة ليست في التملص من الأعراف الدولية والفيتو. بل إن سبب هذا هو أن الولايات المتحدة تحاول على الدوام في جميع أعمالها الخارجية أن تتحصَّل على أكبر عدد من الأتباع، كي تتجنب أن تصبح قائداً وحيداً دون دعم. باستثناء دول صغيرة مثل غرينادا وبنما، التي قامت الولايات المتحدة بأعمال عسكرية واضحة وبحتة ضدهم، فقد سعت الولايات المتحدة في معظم الحالات عبر الوسائل العابرة للدول. وفي تعاملها مع المشكلة العراقية استخدمت الولايات المتحدة الجمع المعتاد في الوسائل العابرة للدول، خلال أعمالهم تعامل الأمريكيون بتواطؤ مع الآخرين، والمناورة بين مجموعات سياسية متنوعة، لتلقي الدعم من جميع دول الأمم المتحدة تقريباً. واستحصلت الولايات المتحدة من المنظمة الدولية الأولى في العالم على قرار لإثارة المشكلات بحجة قدَّمتها، وجرّت بموجبها 30 دولة إلى القوة المشتركة التي أرسلتها للعراق. وبعد الحرب نجحت الولايات المتحدة ثانية في فرض حظر اقتصادي على العراق تواصل لثمانِ سنوات، كما استخدمت أعمال التفتيش لتُبقي على الضغط السياسي والعسكري على العراق، مما ترك العراق وسط عزلة سياسية طويلة المدى وفي ضائقة اقتصادية خانقة.

منذ حرب الخليج، تزايد الاعتماد على أعمال الجمع العابرة للدول في الحرب والصراعات الأخرى بوضوح. وآخر الأعمال، وكلما جرت هذه الأحداث، ازداد وضوح هذه السمة، وكلما أصبحت وسيلة تستخدمها المزيد والمزيد من البلدان. في السنوات العشر الماضية أضحى هذا الاتجاه هو الخلفية التي تجري الاضطرابات الاجتماعية العالمية أمامها. التكامل الاقتصادي العالمي، والتدخل الدولي في السياسات المحلية، وضع مصادر المعلومات ضمت شبكات، التكرار المتزايد للعصور التكنولوجية الجديدة، الصراعات الاجتماعية الخفية، وقوة المنظمات غير الحكومية، كل هذا يجلب للمجتمع الإنساني الرخاء والمتاعب في ذات الوقت. ولذا فالقوى الكبرى وبعض القوى المتوسطة أيضاً وبعض البلدان صغيرة الحجم، تعمل بشكل متناغم دون الحاجة إلى تنسيق مسبق واضعة نصب عينيها الجمع بين

الوسائل العابرة للدول كطريقة لحل مشكلاتها[1].

لهذا السبب تحديداً تأتي التهديدات للدول الحديثة عادة من القوى العابرة للدول، وليس من دولة محددة أو اثنتين. كما يمكن أن يكون هنالك وسائل أفضل لمواجهة مثل هذه التهديدات من استخدام الجمع بين الوسائل العابرة للدول. في الحقيقة، ليس هنالك ما هو جديد وأعمال الجمع العابرة للدول لم تُكتَشف حديثاً، فمنذ حقبة الربيع والخريف (476-770 قبل الميلاد)، وفترة الدول المتناحرة (221-475قبل الميلاد)، والحرب البيلوبونيسية (404-431 قبل الميلاد) كانت أعمال الجمع في الوسائل العابرة للدول أقدم الوسائل وأكثرها تقليدية لدى المنظِّرين الاستراتيجيين في الشرق والغرب[2]، ولم تخسر هذه الفكرة ألَقَها حتى اليوم. ويمكن القول إن عملية الجمع التي قام بها شوارزكوف للوسائل العابرة للدول هي إصدار حديث عن الجمع بين "الحلفاء+ القوات المشتركة". إن كان علينا تبيين الفجوة في الأجيال بين العصور القديمة واليوم وتوصيف الفرق بينهما، فالفارق هو أن الفكرة بالنسبة للقدماء كانت عملية جمع بين ما هو حكومي وما هو حكومي، وليس بين ما هو أفقي وعمودي وبين ما هو داخلي محض وعابر للدولة وغير حكومي[3]. هذه الشعوب الثلاثة القديمة لم تتخيل أن المبدأ سيبقى دون تغيير حتى اليوم. ولم يتخيلوا التغييرات الثورية التي حدثت من الوسائل التقنية حتى الاستخدام الفعلي لها. النموذج الجديد تماماً من أعمال الجمع: "الدولة+ ما فوق الدولة + تجاوز الدولة + غير الحكومي" يؤدي إلى إحداث تغييرات جذرية في وجه الحرب ونتيجتها النهائية، ويغير الطبيعة العسكرية الأساسية للحرب والتي كانت حقيقة راسخة لا تقبل الجدل منذ العصور القديمة.

1 على سبيل المثالASEAN وOAU والمنظمات الأخرى أصبحت أو أنها في طريقها لتصبح مجموعات لحل المشكلات الإقليمية فوق الوطنية التي لا يمكن تجاهلها.

2 «الشمال-جنوب» (ست دول متحدة في مواجهة تشين) و«الغرب-شرق» (تشين متحدة في كتلة واحدة، أو تحالف من عدد من الدول لمهاجمة دولة أخرى) في حقبة الدول المتناحرة، مثالان عن التحالفات بين الدول، (شرح استراتيجية الدول المتناحرة) الصحافة الصينية سنة 1990 الصفحة الرابعة.

3 الجمع في الأعمال فوق الوطنية ليست بين الدول فحسب، بل إنها تشمل الجمع بين البلدان والتنظيمات العابرة للدول أو حتى المنظمات غير الحكومية. في الأزمة المالية لدول شرق آسيا يمكننا أن نرى بعض الدول تعمل مع صندوق النقد الدولي، والتعاون المثمر ضد الغارات المالية.

هذه الطريقة بحل الصراعات أو شن الحروب دون الاقتصار على قوة الدولة فقط، بل بالجمع بين القوى العابرة للدول وغير الحكومية، وهذا ما نعنيه بالمصطلح العام: أعمال الجمع التي تتجاوز الدول. ومن مراجعة أمثلة سابقة ناجحة يمكن التنبؤ بأنه من الآن وصاعداً ستكون أعمال الجمع بين الوسائل العابرة للدول أقوى سلاح لدى الدول عند محاولتها تحقيق غايات أمنها القومي وتأمين مصالحها الاستراتيجية من منظور أوسع من الدولة نفسها[1]. وبما أن القوة العظمى الوحيدة في العالم هي الولايات المتحدة فهي الأفضل في استخدام الجمع بين الوسائل العابرة للدول كسلاح. ولا تضيّع الولايات المتحدة أية فرصة للمشاركة في المنظمات الدولية التي تُعنى بالمصالح الأمريكية. وكمثال آخر على تصور هذا هو أو الولايات المتحدة ترى باستمرار أعمال كافة المنظمات تتعلق بشدة بالمصالح الأمريكية. سواء كانت هذه المنظمات أوروبية أو أمريكية أو آسيوية، أو من أديان مختلفة، أو عالمية تسعى الولايات المتحدة على الدوام للدخول إليها، والتلاعب بها. سنة 1996 ذكر تقرير لوزارة الدفاع الأمريكية هذا صراحة: "لحماية وتحقيق المصالح الأمريكية، يجب على الحكومة الأمريكية أن تمتلك الإمكانات للتأثير على سياسات وأعمال الدول الأخرى. وهذا يتطلب من الولايات المتحدة الحفاظ على مشاركتها فيما وراء البحار، خصوصاً في تلك المناطق التي تتعرض فيها أهم المصالح الأمريكية للخطر"[2]. على سبيل المثال، فيما يتعلق بتأسيس منظمة التعاون الاقتصادي الآسيوي الأطلسي، فالفكرة الأولية فيما يتعلق بمفهومها، التي وضعها رئيس الوزراء الأسترالي هاوك، كانت أن تضم فقط البلدان الآسيوية وأستراليا ونيوزلندا، لكن هذ الفكرة سرعان ما واجهت معارضة قوية من الرئيس بوش، ومن ثم توسَّعت لتشمل الولايات المتحدة

---

1 في عمله الجديد (سنة 1997)؛ رقعة الشطرنج الكبيرة: الأولوية الأمريكية ودوافعها الجيوسياسية، يكتب بريجنسكي عن وصفه للأمن العالمي، تأسيس «ترتيب الأمن العابر لأوراسيا». مركز هذا النظام هو الولايات المتحدة، وأوروبا واليابان وروسيا والهند ودول أخرى. وبغض النظر عما إن كانت وصفة بريجنسكي فعّالة أم لا، فعلى الأقل توضِّح خط التفكير المطابق لتفكيرنا، أ] أي حل مشكلات الأمن القومي في نطاق أكبر. وقال كارل دو: «يرى الناس المنظمات العالمية على أنها الطريق الأمثل لتخليص البشرية من حقبة الدولة القومية»، وهذه المهمة الأولية للتكامل هي «لحفظ السلام». انظر: تحليل العلاقات الدولية، دار نشر المعرفة العالمية، الصفحة 332.

2 التقرير السنوي لأمن الدفاع، السنة المالية 1996، دار نشر العلوم العسكرية (بيجين) الصفحة 5.



وكندا. وفي نفس الوقت وكي تجس الولايات المتحدة نبض زخم التعاون الاقتصادي الآسيوي-الأطلسي، لم تدخر الولايات المتحدة جهداً في تحريض البلدان الآسيوية على التوقيع على اتفاقات منفردة مع منطقة التجارة الحرة مع الشمال الأمريكي، لم تشق الولايات المتحدة طريقها فحسب بل جرَّت الآخرين لهذا الطريق أيضاً، ويمكن القول بثقة أن الولايات المتحدة استخدمت تكتيكات الجمع المزدوج.

ما يشعر الناس بأنه سر خاضع للحراسة المشددة هو سلوك الأمريكيين وأساليبهم في التعامل مع الأزمة المالية الآسيوية، فعندما اندلعت الأزمة، عارضت الولايات المتحدة على الفور اقتراحاً يابانياً بإنشاء صندوق نقد آسيوي، وبدلاً من هذا دعت لخطة إنقاذ، مع فرض بعض القيود عن طريق شريكها الرئيسي؛ صندوق النقد الدولي، مما يعني أن الدول الآسيوية ستُجبَر على قبول سياسية التحرر الاقتصادي التي تروّج لها الولايات المتحدة. على سبيل المثال، عندما مدد صندوق النقد الدولي تسديد قروض كوريا الجنوبية البالغة 57 مليار دولار اشترط أن تفتح كوريا أسواقها بالكامل وتسمح لرأس المال الأمريكي بشراء مشاريع كورية بأسعار منخفضة للغاية، هذه الطلب الذي كان بمثابة سطو مسلح، يعطي الدول المتقدمة وعلى رأسهم الولايات المتحدة، الفرصة للوصول دون أي قيود إلى أسواق الدول الأخرى، أو الدخول وملئ بعض الفراغ هناك. وهذا لا يختلف سوى قليلاً عن الشكل المقنَّع للاحتلال الاقتصادي[1]. إن ربطنا تماماً كل هذه الصنوف من الطرق الأمريكية، فسنجد تفسيرات لظواهر مثل الهجمات الاقتصادية التي تشبه أعمال القنص لأمثال سورس، والزيادة المضطردة في الدخل الأمريكي على مدى عشر سنوات ليرتفع إجمالي الناتج القومي من 810 مليارات إلى 5 ترليونات، وما زال في حالة نمو بمعدل 30 ملياراً كل شهر[2]، تخفيض شركات موديز وستاندرد وبورز ومورغان

1 في مقال بعنوان «مناقشة للمقاومة الآسيوية الجديدة للأجانب» في شهر آب عدد سنة 1998 من مجلة بونجي شونجي اليابانية، يعبِّر شينتارو إيسهيارا عن رأيه بأن هذه التحركات المتنوعة للولايات المتحدة توضِّح استراتيجيتها للتآمر بالهجوم على آسيا. رغم أن آراء «السيد لا» (كان مؤلفاً مشاركاً في كتاب الوطني بعنوان: اليابان يمكنها أن تقول لا) متطرفة نوعاً ما، لكنها ليست آراءه وحده.

2 انظر المؤتمر الإخباري، 29 أيلول صفحة 11، إعادة طباعة مقال من صحيفة فوتشن الأمريكية.



ستانلي التصنيف الإئتماني لليابان وهونج كونج وماليزيا في أكثر الأوقات حساسية، مخاوف جرينسبان[1] من أن الهجوم المعاكس لحكومة هونج كونج ضد "غزاة الاقتصاد" ستغيِّر قواعد اللعبة، القواعد الاستثنائية للبنك الاحتياطي الفيدرالي لمساعدة مؤسسة إدارة رأس المال طويلة الأجل التي خسرت أموالاً بسبب المضاربة، وسماع صوت "لا" خلال الصخب والهرج والمرج في آسيا وخفوت كلمة "العصر الآسيوي" يوما بعد يوم، عند إمعان النظر في كل هذه الأشياء يمكن أن نكتشف كيف تتصل هذه الأشياء معاً بسلاسة وذكاء[2]. وبافتراض أن هذه الأشياء جميعها متصلة واستُخدِمَت لمهاجمة هدف طال انتظاره، أفلا يكون هذا عملية جمع ناجحة من طراز: منظمات عابرة للدول + منظمات غير حكومية؟ ورغم أنه ليس ثمة دليل مباشر يثبت أن الحكومة الأمريكية والاحتياطي الفيدرالي قد صمموا بعناية واستخدموا هذه القوة الشديدة والأسلحة الخفيفة التي أدركناها من آثارها، فيمن للمرء أن يقول بالحد الأدنى أن أعمالاً معينة قد حظيت بتشجيع مسبق وموافقة ضمنية. مفتاح القضايا التي نريد مناقشتها هنا بالطبع ليست إن كان الأمريكيون قد استخدموا هذا السلاح عمداً أم لا، لكن هل هذا سلاح دمار شامل عملياً أم لا؟ الإجابة: نعم بلا شك.

1 نورس: آلان جرينسبان رئيس مجلس المحافظين للنظام الاحتياطي الفيدرالي سابقاً.

2 عدد المراقبين الذين تمسّكوا بآراء مشابهة لآراء شينتارو إيسيهارا ليس قليلاً أبداً. وعبّر المراقب الاقتصادي كونستانين سوروتشين عن رأي مشابه في مقال بعنوان «ما هو الدور الذي يلعبه مركز مراقبة الانترنت في الأزمة المالية الآسيوية؟»، نُشِر في 16 تموز في منتدى النشر الروسي (انظر ملحق الأخبار، 15 آب سنة 1998).

أعمال الجمع في الميادين العابرة للدول:

(الجمع خارج ميدان ساحة المعركة)

الميدان كلمة مشتقة من مفهوم المنطقة ويُستخدم لتحديد مساحة للأنشطة البشرية، وبناءً على هذا، فميدان الحرب هو ترسيم للمدى الذي تصل الحرب إليه. ومثل مفهوم أعمال "الجمع العابر للدول" فمفهوم "الجمع للميادين العابرة للدول" التي نتحدث عنها هي الأخرى إطار مختزل. ولنكون محددين، فهذه المصطلحات يجب أن تتبع كلمات "لأعمال الحرب" إن أردنا أن ننقل المعنى الكامل لهذه المفاهيم التي نبيِّنُها ونستخدمها. وهذا كي نوضّح الآراء حول "أعمال الجمع العابرة....." التي يقودها التفكير خارج الحدود محصورة بمدى الحرب وما يتعلق بها من أعمال.

ويقع مفهوم أعمال الجمع في ميادين ما فوق الدولة بين المفهوم الذي ناقشناه سابقاً لأعمال الجمع لما هو فوق الدولة ومفهوم أعمال الجمع لوسائل فوق الدولة، والتي سنتناولها فيما يلي. وكما أوضحنا في مناقشتنا السابقة، فمفهوم أعمال الجمع فيما يتعلق بالوسائل العابرة للدول يشكّل صلة لا غنى عنها في الخط الرائد فيما يتعلق بالتفكير بتجاوز الحدود. وكما توجَّب على الطائرات أن تخرق حاجز الصوت قبل أن تتمكن من الطيران بسرعات عالية، يجب على أولئك الذين يخوضون الحرب يتعيّن عليهم تجاوز الحدود إن كانوا يريدون دخول مرحلة التفكير بالحرب بِحُرِّيَّة. وتخطي الحدود الأيديولوجية شرط مسبق لخرق حدود العمل. ودون خرق الحدود الأيديولوجية، سيكون من الصعب في النهاية تحقيق السلام الفكري الكامل، حتى في حالة حدوث اختراق في العمل اعتماداً على الحدس. على سبيل المثال، العقيدة العسكرية للجيش الأمريكي فيما يتعلق بـ"العمليات كاملة الأبعاد" و"أعمال الجمع العابرة للميادين" مختلفة في طريقتها لكنها جيدة في تأثيرها (مصطلح "كاملة الأبعاد" يعني في كافة الميادين)، لكن مصطلح "العمليات الكاملة الأبعاد" بالنسبة للجيش الأمريكي، يبدو مثل انفجار في التفكير غير الاعتيادي لدى مجموعة من العسكريين، وليس شيئاً مبنياً وفقاً لخط فكري يُعتبَر بطبيعته خرقاً كاملاً. وهكذا، لأن الأفكار التي لا تصدر بأكملها ستواجه بالتأكيد كافة ألوان العوائق، فهذه الشرارة الفكرية



التي أشعلت ثورة في الشؤون العسكرية على وجه السرعة، سرعان ما انطفأت[1].

توسيع ميدان الحرب نتيجة طبيعية لمجال النشاط البشري الآخذ في الاتساع، وكلاهما متداخلان. لطالما بقي فهم البشرية لهذه الظاهرة متأخراً، على الرغم من أنه منذ عصر تساو غوي (بطل حرب الربيع والخريف) منذ مدة طويلة وكولين (جون كولين مؤلّف كتاب، الاستراتيجية العليا: المبادئ والتطبيق) مؤخراً، أدرك الكثيرون من ذوي النظرة الثاقبة العلاقة المتبادلة الحتمية بين الميادين المختلفة للحرب، وحتى الآن معظم المشتركين في الحرب يعتبرون كل الميادين غير العسكرية أدوات رديفة تخدم الميادين العسكرية. وبالتالي فقد قيّد ضيق نظرهم ومحدودية تفكيرهم تطور ميدان المعركة والتغييرات في الاستراتيجية والتكتيكات إلى حصر الميدان في ميدان واحد. من إضرام كوتوزوف النيران في موسكو (قبل انسحابه منها سنة 1812) دون أن يرف له جفن من تدمير أكثر من نصف البلاد في استراتيجية تقوية أعمال الدفاع وحرق الأخضر واليابس في طريق نابليون، إلحاق أكبر الخسائر البشرية في صفوف المدنيين من جرّاء القصف الرهيب الذي تعرّضت له مدينة دريسدن الألمانية والدمار النووي في هيروشيما وناكازاكي سعياً لتحقيق النصر، طرح استراتيجيات "الانتقام الواسع" و"الدمار المتبادل المؤكد"، لم يكسر أي من هذا القاعدة.

لقد آن الأوان اليوم لتصحيح هذا الخطأ. فالتداول الواسع للتقنيات اضطر السياسة والاقتصاد والجيوش والثقافة والدبلوماسية والدين على التداخل كل منها بالآخر. نقاط الاتصال جاهزة، والميل نحو دمج الميادين المتنوعة واضح جداً. أضف إلى هذا تأثير الانتشار الكبير للوعي بحقوق الإنسان على أخلاقيات

1 في جيش الولايات المتحدة اليوم، «الأبعاد الكاملة» مصطلح محدود بالحيّز العسكري، على سبيل المثال: مبدأ «الحماية الكاملة الأبعاد» في الرؤية المشتركة لعام 2010 يعني بالدرجة الأولى تقوية حماية معلومات الجيش الأمريكي. ووفقاً لرأي الجنرال إي ويلسون قائد الإمداد في الجيش الأمريكي، «جيش المستقبل» القادر على التحرك عبر العالم بأكمله هو «قوة كاملة الأبعاد»، لذا يمكننا أن نرى أن تفكير الجيش الأمريكي عن مفهوم «الأبعاد الكاملة» يتجاهل جوهره ولا يبقي إلا على الاسم. (انصر مجلة القوة الجوية التي تصدر كل ثلاثة شهور، عدد الصيف سنة 1996). (مجلة القوة الجوية منشور من جامعة الدفاع الوطني في الولايات المتحدة. واحتوى ذاك العدد مقالاً بعنوان «الرؤية المشتركة 2010:التحضيرات العسكرية الأمريكية للمستقبل»).

الحرب. كل هذه الأشياء تجعل فكرة قصر الحرب على المجال العسكري فكرة بالية والاستفادة من أعداد الخسائر كوسيلة من وسائل تكثيف الحرب. تهرب الحرب الآن من حدود المجازر الدموية وتتجه نحو تقليل الخسائر، أو حتى تجنب الخسائر البشرية تماماً، حتى وإن كانت حرباً مكثَّفة جداً. هذه الأنواع الجديدة من الحرب مثل حرب المعلومات، والحرب المالية، والحرب التجارية، والأشكال الجديدة كلياً من الحرب هي مساحات جديدة مفتوحة في ميادين الحرب. وفي هذا الصدد، لا يوجد الآن ميدان لا يمكن للحرب أن تخوضه، ولا يوجد مجال واحد ليس له نمط حرب هجومية.

في التاسع عشر من شهر تشرين الأول سنة 1987 هاجمت سفن البحرية الأمريكية منصة إيرانية للتنقيب عن النفط في الخليج الفارسي، ووصلت الأنباء عن هذا الهجوم لبورصة المعاملات المالية في نيويورك وسرعان ما اندلعت أسوأ أزمة في سوق الأوراق المالية في تاريخ وول ستريت، هذا الحدث الذي عُرِف بـ "الثلاثاء الأسود" تسبب بخسارة 560 ملياراً في القيمة الدفترية لسوق الأسهم الأمريكية، وتعادل هذه الكمية الاقتصاد الفرنسي كاملاً. وفي السنوات التالية أدت الأعمال العسكرية إلى كوارث في البورصة من خلال الذعر الذي تصيب به الاقتصاد. وفي عامي 96-1995 أعلنت الصين القارّيّة أنها بصدد إجراء اختبارات صاروخية في مضيق تايوان وأنها ستجري تدريبات عسكرية أيضاً، وبمجرّد أن أصبحت الصواريخ في الأجواء هبطت سوق الأسهم التايوانية وتهاوت مثل انهيار ثلجي بفعل انفجار ضخم. وعلى الرغم من أن هذين الحدثين ليسا مثالين عن أعمال الجمع العابرة للدول التي نتحدث عنها إلا أنهما يندرجان تحت بند الأعمال الغبية التي تشبه رفع صخرة ثم لا تصيب إلا قدم من رفعها. فنتائجها غير المتوقعة بغض النظر عن تماشيها مع سياق الأفكار التي نتحدث عنها هي: إن سلك المرء عمداً ميدانين مختلفين أو أكثر وجمع بينهما في نوع واحد من التكتيك يمكن استخدامه، ألن تكون النتيجة أفضل؟

من وجهة نظر التفكير خارج الحدود فإن "أعمال الجمع في الميادين العابرة للدول" تعني الجمع في ميادين المعركة، وكل ميدان -مثل الميدان العسكري- قد



يشكِّل الميدان الأساسي لحرب المستقبل. لكن أحد أهداف "أعمال الجمع العابرة للدول" هو التفكير واختيار أي الميادين سيكون الميدان الرئيسي والأكثر ملائمة للمعركة. من التجربة العملية للصراع بين الولايات المتحدة والعراق يمكن أن نرى أن العمل العسكري المتمثل في عاصفة الصحراء استمر لـ 42 يوماً ثم تبعه ثمان سنوات متواصلة من الضغط العسكري+ الحظر الاقتصادي+ التفتيش على الأسلحة، حيث كانت الولايات المتحدة (وهذا مثال آخر) تستخدم أعمال الجمع العابرة لمهاجمة العراق في ميادين معركة أخرى. وفيما عدا الخسائر غير العسكرية الهائلة التي تعرض لها العراق من جرّاء الحصار الاقتصادي، فالهجوم على الجيش العراقي بشكل لجنة الأمم المتحدة الخاصة للتفتيش عن الأسلحة التي رَأسَها بتلر، والذي فتّش ودمّر كميات كبيرة من الأسلحة الفعالة، تجاوزت نتائجه بالفعل نتائج القصف أثناء حرب الخليج.

توضح هذه الأشياء حقيقة أن الحرب لم تعد نشاطاً مقتصراً على المجال العسكري، وأن مسار أي حرب قد يتغير، أو أن نتائجه تتقرر حسب عوامل سياسية أو اقتصادية أو دبلوماسية أو ثقافية أو تقنية أو عوامل أخرى غير عسكرية. وفي مواجهة التأثير بعيد المدى للصراعات العسكرية وغير العسكرية على كل جزء من العالم، فيمكننا الوصول إلى الميادين المختلفة المتأثرة تماماً بالحرب وتحويلهم إلى أوراق رابحة بأيدينا، فقط في حال تمكنّا من خرق الأنواع المختلفة للحدود التي تقف في وجه أفكارنا، وبالتالي نتمكن من استخدام استراتيجية وتكتيكات لا حدود لها من الجمع بين موارد الحرب، بحيث نضمن النصر.

وسائل الجمع العابرة للدول:

(الجمع بين كافة الوسائل [سواء كانت عسكرية أم غير عسكرية] لتنفيذ العمليات)

خلال الحرب بين دولتين، وخلال القتال بين والقتل بين جيشين، هل من الضروري استخدام وسائل خاصة لشن حرب نفسية موجهة لعائلات الجنود البعيدة عن ساحات القتال؟ [1] عندما تحمي الأمن المالي للبلاد، هل يمكن للاغتيالات أن تفيد للتعامل مع المضاربين الماليين؟[2] هل يمكن للضربات "الجراحية" دون إعلان الحرب على مناطق معينة تكون مصدراً للمخدرات أو البضائع المهربة الأخرى؟ هل يمكن للتمويل الخاص أن يؤتي ثماره بالتأثير على حكومة أو برلمان دولة أخرى من خلال جماعات الضغط؟[3] وهل يمكن للسيطرة على الأسواق المالية أو شرائهما تحويل الصحف والمحطات التلفزيونية إلى أداة للحرب الإعلامية؟[4]

وفيما عدا مبررات استخدام الوسائل، أي سواء كانت تتوافق مع القواعد الأخلاقية العامة أم لا يوجد نقطة أخرى تتعلق بالأسئلة المطروحة أعلاه وهي أن جميع هذه المبررات تتعلق باستخدام الوسائل العابرة للدولة بطريقة عابرة للميادين. كما أنها تتعلق أيضاً بما نتحدث عنه عندما نقول "وسائل الجمع العابرة". وإن كنا نريد توضيح ماهية وسائل الجمع العابرة، ولماذا يجب أن يكون هنالك أشياء من هذا القبيل، فيجب علينا أولاً أن نوضِّح ما يلي: ما هي الوسائل؟

1 شددت وزارة الدفاع الأمريكية السيطرة على المواقع العسكرية على الانترنت لتمنع القوى المعادية من استخدام عناوين الأسرة، أرقام الأمن القومي، وأرقام البطاقات الإئتمانية لمهاجمة العاملين في الوزارة.

2 بما أن الحكومة البريطانية سمحت لعملائها السريين باغتيال قادة الدول التي تصنفها على أنها إرهابية، فهل سيكون من المسموح به للدول التي تتعرض لهجمات مدمّرة عبر مضاربين ماليين من دول أخرى تصيب اقتصادها بأضرار مشابهة لتلك الناتجة عن الهجمات الإجرامية أو الإرهابية، أن تعامل هذه الدول بنفس الأسلوب؟

3 المجالس التشريعية للدول ذات أشكال الحكم المختلفة لا يمكنها تجنب محاصرتها من جماعات الضغط. على سبيل المثال، منظمات اليهود الأمريكيين وجمعية البندقية التابعة لها لديها مجموعات ضغط معروفة جيداً. وبالفعل يمكننا رؤية هذا في الصين القديمة، ففي الحرب بين تشو وهان في نهاية عهد أسرة تشين (2019-202)، أعطى تشين بنغ مبلغاً كبيراً من المال كي ينسحب شيانغ يون من ساحة المعركة.

4 مقال يكشف عن سيطرة سوروس على المشهد السياسي في ألبانيا من خلال سيطرته على صحافة البلاد.

من الناحية العملية هذا ليس سؤالاً أبداً. فالكل يعلم أن الوسيلة هي طريقة أو أداة نستطيع من خلالها تحقيق غاية مُعَيَّنَة، لكن إن كانت أشياء كبيرة بحجم دولة أو جيش مع شيء آخر صغير بحجم حيلة يُسمُّون على نحو غير دقيق وسيلة فالسؤال إذاً ليس بسيطاً أبداً.

نسبية الوسائل قضية أولى لها الناس جهوداً كبيرة، ويمكننا أن نرى هذا النوع من النسبية في حقيقة أنه على مستوى معين يمكن لشيء ما أن يكون وسيلة، بينما يصبح على مستوى آخر غاية. وعند الحديث عن الأعمال العابرة للدول، تكون الدول وسيلة، أما عندما نتحدث عن الأعمال التي تقوم بها الدول تكون القوات المسلحة أو قوة أخرى للدولة هي الوسيلة، وتصبح الدولة غاية. وبالمضي قدما وفقاً لهذا المنطق تصبح الوسائل غير المتساوية الحجم مثل مجموعة من الصناديق الصينية كلما فتحت صندوقاً وجدت بداخله صندوقاً آخر. كل وسيلة على مستوى معين تخدم أهدافاً أعلى، وفي ذات الوقت تكون الهدف لوسيلة على مستوى أدنى. وبإسقاط هذه المناقشة للأهداف، يبقى تعقيد الوسائل على حاله. يمكننا أن نأخذ أي هدف ونختبره من أي زاوية أو أي مستوى وأن نفهم ماهية الوسائل. من زاوية الميادين، فالميادين العسكرية والسياسية والدبلوماسية والاقتصادية والثقافية والدينية والنفسية والإعلامية يُنظر لها غالباً على أنها وسائل. ويمكن تقسيم الميادين، على سبيل المثال، في الميدان العسكري، الاستراتيجية والتكتيك، الردع العسكري، التحالفات العسكرية، الممارسات العسكرية، السيطرة على السلاح، حظر الأسلحة، حظر توريد السلاح، وصولاً إلى استخدام القوة، هذه جميعاً بلا شك وسائل عسكرية. وعلى الرغم من المساعدة الاقتصادية والعقوبات الاقتصادية والوساطة الدبلوماسية والغزو الثقافي والحملات الدعائية وفرض القوانين الدولية واستخدام حلول الأمم المتحدة إلخ، كل منها تنتمي إلى ميادين مختلفة مثل السياسة والاقتصاد والدبلوماسية، إلا أن رجال الدولة يستخدمونهم على نحو متزايد الآن كوسائل عسكرية قياسية.

من زاوية الطرق، فالطرق الفلسفية والتقنية والرياضية والعلمية والفنية كلها يستخدمها البشر لجلب المنفعة للبشرية، ومع ذلك يمكن استخدامها كوسائل للحرب. خذ على سبيل المثال التكنولوجيا، ظهور وتطور تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا المواد وتكنولوجيا الفضاء وتكنولوجيا الهندسة الوراثية وكل التقنيات الأخرى الحديثة جزء من مجموعة الوسائل الآخذة في الاتساع. مثال آخر من الرياضيات، فلا يوجد مكان لا أثراً واضحاً فيه للطرق الرياضية في المصطلحات العسكرية مثل توزيع القوات، أرقام الأساس (تُستخدم لتخطيط الاستهلاك) للذخيرة، حساب المسارات، احتمالات سقوط القتلى والجرحى، نصف القطر القتالي وحقول الألغام. كما أن الطرق الفلسفية والعلمية والفنية مؤثرة هي الأخرى في دعم الحكمة العسكرية والعمل العسكري. ولهذا يشير الناس عادة إلى الأيديولوجيا العسكرية والتنظير العسكري والممارسة العسكرية على أنها الفلسفة العسكرية والعلم العسكري والفن العسكري. ليدل هارت (المنظِّر العسكري والضابط البريطاني) عرّف كلمة استراتيجية على أنها: "فن استخدام الوسائل العسكرية لتحقيق الأهداف السياسية"، ومن هذا التعريف يمكننا أن نرى أن مفهوم الوسائل يغطّي مساحات واسعة، على مستويات عديدة، ووظائف متداخلة، وبالتالي فالفهم ليس سهلاً. فقط إذا وسّعنا مجال رؤيتنا ووسائل فهمنا، وفهمنا المبدأ بأنه ما من شيء يمكن اعتباره وسيلة يمكننا عندئذ تجنب مأزق مواجهة العديد من الصعوبات في نفس الوقت وأن نكون مستعدين في النهاية لاستخدام الوسائل. خلال الأزمة سنة 1978 عندما احتلت إيران سفارة الولايات المتحدة واحتجزت رهائن، كان كل ما فكّرَت فيه الولايات المتحدة في البداية هو استخدام الوسائل العسكرية، وفقط بعد أن فشلت في هذا غيَّرَت تكتيكاتها، فجمّدت أصول إيران في الخارج، ثم فرضت حظراً على توريد السلاح، ودعمت العراق في حربه مع إيران، ثم أضافت المفاوضات الدبلوماسية، وعندما استُخدِمَت جميع هذه الوسائل معاً وصلت الأزمة إلى نهايتها[1]. ويُظهِر هذا بوضوح أنه في عالم وصل درجة غير مسبوقة من التعقيد، فإن مدى تطبيق الوسائل هو الآخر في حالة من التغير المستمر، وأفضل الوسائل

1 انظر كارل دو (تحليل العلاقات الدولية) دار المعرفة العالمية للنشر، الصفحات 273-271.

لن تكون مفيدة إن استُخدِمَت وحدها بقدر ما سيكون عليه الجمع بين عدة وسائل. وهكذا فأعمال الجمع العابرة للدول تصبح شيئاً فشيئاً ضرورية جداً، إنها نعمة لا تدركها العديد من الدول. وعلى النقيض من هذا، فالمنظمات غير الحكومية في سعيها لتحقيق مصالح متعددة لا تدخر جهداً في البحث في استخدام الجمع بين الوسائل. على سبيل المثال، تجمع المافيا الروسية بين الاغتيال والخطف طلباً للفدية وهجمات الهكر ضد الأنظمة الالكترونية للبنوك سعياً وراء الثروة، وبعض المنظمات الإرهابية تسعى وراء غايات سياسية عبر الجمع في وسائل من قبيل إلقاء القنابل، واحتجاز الرهائن وتنفيذ الغارات على الشبكات. لتحريك الماء والتماس السمكة أمثال سوروس يجمعون بين المضاربة في أسواق العملة وأسواق البورصة والأسواق المستقبلية. كما يستغلون الرأي العام لإعطاء زخم لإغواء وتجميع "العمالقة" من أمثال ميريل لينش وفايديليتي ومورغان ستانلي وشركائهم[1] للانضمام إلى القوات في السوق على نطاق واسع وشن حروب مالية مرعبة واحدة تلو الأخرى. معظم هذه الوسائل ليست عسكرية بطبيعتها (رغم أنها تميل عادة إلى العنف)، لكن الطرق التي يُجمعون بها ويُستخدمون لا تفشل بالتأكيد في إلهامنا بكيفية استخدام الوسائل العسكرية وغير العسكرية بفاعلية في الحرب. يعود السبب في هذا إلى أن الحكم على فعالية وسائل معينة ليست بالدرجة الأولى مسألة معرفة الصنف الذي تندرج تحته، أو أنها تتوافق أو لا تتوافق مع بعض المعايير الأخلاقية، بل إنها بالدرجة الأولى معرفة فيما إن كانت تتوافق مع مبدأ معيَّن، وخصوصاً: هل هي أفضل طريقة لتحقيق الغاية المرجوَّة؟ وطالما أنها تتوافق مع هذا المبدأ، فإنها الوسيلة المثلى. وعلى الرغم من أنه لا يمكن تجاهل العوامل الأخرى تماماً، إلا أن هذه الوسائل يجب أن تحقق الشرط المسبق بأنها مفيدة لتحقيق الهدف. أي أن أعمال الجمع للوسائل العابرة للدول يجب أن تتجاوز ليس الوسائل الأخرى فقط،

1 يُعتَبَر بارتون بيغز المحلل الاستراتيجي العالمي لشركة مورغان ستانلي القابضة، أكثر المنظرين الاستراتيجيين في الاستثمار تأثيراً فهو يرأس شركة تبلغ قيمتها 30 مليار دولار وله 15% من أسهمها، وقبل الأزمة المالية في تايلاند وهونج كونج اتخذ وشركته إجراءات معيَّنة تمكِّنه من معرفة اتجاه المضاربين (انظر مقال «استكشاف تمهيدي لأنماط عمل الرأسمالية العالمية الحالية» بقلم سونغ يوهوا وشو يلين، (الصين والعلوم الاجتماعية) العدد 6 عام 1998).



بل المعايير الأخلاقية أو المبادئ الاعتيادية للوسائل نفسها، وهذا أصعب وأكثر تعقيداً من الجمع بين وسائل معينة ووسائل أخرى، يمكننا فقط أن ننتهك المحرمات وندخل منطقة اختيار الوسائل -عالم ما وراء الحدود- إذا أكملنا الصورة في أذهاننا لمفهوم ما وراء الحدود، والسبب في هذا هو أننا لا نستطيع تحقيق الأهداف فقط عبر وسائل جاهزة. بل نحن بحاجة لإيجاد الطريقة المثلى لتحقيق الأهداف، وطريقة صحيحة وفعالة للاستفادة من الوسائل. بمعنى: لتكتشف كيفية الجمع بين وسائل مختلفة وتُوجِد وسائل جديدة لتحقيق الأهداف.

على سبيل المثال في هذا العصر من التكامل الاقتصادي، إن أرادت شركة قوية اقتصادياً مهاجمة اقتصاد بلد آخر وفي ذات الوقت تهاجم دفاعاتها، فلا يمكنها الاعتماد تماماً على استخدام الوسائل الجاهزة مثل الحظر الاقتصادية والعقوبات التجارية أو التهديدات العسكرية وحظر توريد السلاح، بل يجب عليها تعديل استراتيجيتها المالية، باستخدام إعادة تقييم العملة أو تعويمها كخطوة أولى، والجمع بين الوسائل من قبيل السيطرة على الرأي العام وتغيير القواعد بما يكفي لجعل الاضطراب المالي والأزمة الاقتصادية يظهران في الدولة أو المنطقة المستهدفة وإضعاف قوتها الإجمالية، بما في ذلك قوتها العسكرية. في الأزمة المالية لدول جنوب شرق آسيا نرى حالة أدت فيها الأزمة إلى انخفاض حرارة سباق التسلح في المنطقة، وبالتالي يمكننا إمكانية حدوث هذا، رغم أنه في هذه الحالة لم تحدث الأزمة بسبب قيام دولة بتغيير قيمة عملتها عمداً. وحتى قوة شبه عالمية مثل الصين كانت تستطيع هز الاقتصاد العالمي عبر تغيير سياساتها الاقتصادية فقط، فلو كانت الصين دولة أنانية، ورجعت إلى كلمتها سنة 1998 وتركت الرنمينبي[1] تخسر بعضاً من قيمتها، فلا شك أن هذا كان سيزيد الطين بلة للوضع الاقتصادي في آسيا. كما يمكن أن سيؤدي هذا فيما لو وقع إلى حدوث كارثة في أسواق العالم الرأسمالي، مما يؤدي إلى أن الدولة التي تحتل المركز الأول كدولة مَدينة، وتعتمد على تدفق رأس المال الأجنبي لدعم ازدهار اقتصادها؛ ألا

1 نورس: **رنمينبي** هي عملة الجزء القاريّ من جمهورية الصين الشعبية. تعني هذه الكلمة حرفياً عملة الشعب، ووحدتها الأساسية تدعى يوان، وهي مقسمة إلى 10 «جياو»، والمقسمة بدورها إلى 10 «فن». بنك الصين الشعبي هو الجهة الرسمية المخولة بإصدار عملة الرنمينبي، والتي يرمز لها ¥، كما ترمز اختصاراً بالأحرف CNY و «RMB».

وهي الولايات المتحدة، ستعاني من خسائر اقتصادية كبيرة، مثل هذه النتائج ستكون حتماً أفضل من الضربات العسكرية.

حقيقة أن تبادل المعلومات وتشابك المصالح توسِّع معنى الحرب باستمرار، كما أن أي دولة تلعب دوراً حاسماً لديها إمكانات متنوعة لتهديد الدول الأخرى، وليس بالوسائل العسكرية فقط. فاستخدام الوسائل فُرَادى فسيؤدي إلى خفض فاعليتها مرة شيئاً فشيئاً، أما فوائد الاستخدام المجمع لأنواع مختلفة من الوسائل فإنها تصبح أكثر وضوحاً. لقد فتح هذا الباب على مصارعيه لأعمال الجمع العابرة للدول، ولاستخدام هذه الأنواع من الجمع في الأعمال شبه الحربية.

أعمال الجمع في الطبقات العليا:

(جمع كافة المستويات في كل حملة)

عندما تصبح الحرب مرحلة تاريخية، يظهر مسار الحرب شيئاً فشيئاً مثل التبريد التدريجي للفولاذ المُذاب. من الحروب القديمة الضيقة النطاق إلى الحملات المكوَّنة من المعارك المترابطة من كل الأطراف، إلى الحروب التي تتكوَّن من بعض الحملات أو العديد منها، إلى احتمال الحملات التي يمكن ان تنتشر سريعاً وتصبح عابرة للقارات أو عالمية، بهذه الطريقة تتقدم الحرب طبقة تلو الأخرى في خطوات غير مرئية، ومن المحتمل أيضاً أن تتراجع. في كل مستوى يوجد ضحايا وخسائر بشرية وجثث وقتلى، وترتفع فوهات بنادق المنتصر للأعلى بينما تُلقى وتُهمل بنادق المهزومين، وكذلك العديد من الخطط والخدع سواء كانت حكيمة أو غبية. إن بدأنا بالصفحة الأخيرة من تاريخ الحرب وعدنا القهقرة فصلاً تلو الآخر، سنكتشف أن العملية برمتها تراكمية، وكل النتائج تأتي من هذا التراكم، فالنصر تراكم والهزيمة كذلك. وفيما يخص جانبي القتال، فقد اتبعا طريقاً واحداً لتحقيق أهدافهم، الفارق الوحيد هو: هل إن صعد المرء إلى نجوم سيتابع طريقه للأعلى أم سيصل إلى النجوم ثم ينزل عنها، الطفرات والتغيرات المفاجئة تحدث جميعها عندما تضع رجلك عند الخطوة الأخيرة. وهذه قاعدة عملية.

لكن يجب احترام القواعد، أما تجنب القواعد أو التهرُّب منها فيتطلب الحذر. القضية التي نفكِّر بها هي بالضبط كيف نتجنَّب أو نكسر مثل هذه القواعد، فنحن نؤمن بأن كافة الحروب يجب أن تعمل جميعاً بالتسلسل وفق مستويات متتالية، التراكم حتى الوصول اللحظة المصيرية في المسار. نحن نعتقد أن هذه اللحظة ممكنة الوقوع، إيجاد طريقة يمكننا من خلالها إيجاد هذه اللحظة وألا ننتظر التراكم، ومن ثم نصلح تلك الطريقة كنوع من الاستراتيجية هذا هو الشيء الذي يجب علينا فعله.

بالتأكيد نحن نعرف أن معركة واحدة لا تشكِّل حرباً، وأن جنديين فأكثر يشكلون جيشاً، لكن ليست هذه القضية التي نريد التحدث عنها، بل إن قضيتنا هي كيف نستخدم بعض الطرق لنخترق كافة المراحل، ونوصِّل ونجمِّع هذه المراحل معاً عندما نريد هذا، على سبيل المثال: خوض قتال أو عمل على المستوى التكتيكي، وقرنه مباشرة بعمل على مستوى الحروب أو على مستوى الاستراتيجية. يمكننا تغيير الحرب إلى شيء مثل أطراف يمكن تبديلها لتنين وجذعه ورأسه، حيث نركِّبَهُم معاً كما نشاء، ويمكن أن نغيِّرهم كما نشاء في أي اتجاه كان.

هذا ما نعنيه بقولنا "أعمال جمع متغيرة الأبعاد"، المستوى أيضاً هو نوع من التقييد مشابه لحدود الدول والحدود الإقليمية والحدود حول الوسائل، كلها حدود يجب أن يتم تجاوزها في الممارسة العملية للحرب ذات أعمال الجمع العابرة.

قسَّم هيرمان كان بداية الحرب النووية إلى عدد من المراحل، بعض هذه المراحل موجودة بأشكال أخرى من الحرب، لكن إن تتبعنا خط كان الفكري نجد أن التقسيم للمستويات الأربعة والأربعين التي وضعها جيدة للغاية وليس من السهل التعامل معها[1]، وبسبب أنه ركَّز كثيراً على تقسيم الحرب إلى مراحل حسب شدتها، فقد افتقر إلى النظرة الثاقبة للطبيعة الأساسية لمستويات الحرب، وبرأينا إن كانت التقسيمات لمستويات الحرب مبنية على أساس اعتبارين هما مدى الحرب وطرق

1 فيما يتعلق بدرجات التصعيد عند هيرمان كان: عادة ما يقسِّم الجيش الأمريكي الأنشطة القتالية إلى ثلاث مستويات: استراتيجي والحملات والتكتيكي.



الاستجابة لها، فهذا تبسيط شديد، والتقسيم على أربعة مستويات كافٍ، وفي هذه النقطة تتفق آراؤنا مع آراء بعض المحللين العسكريين الأمريكيين، وتختلف في الكلمات فقط، وتقسيمنا المحدد هو كالآتي:

الحرب الكبرى- سياسة الحرب (دازان – زانس)

الحرب -الاستراتيجية (جانجن- جانولو)

الحملات – فن العمليات (جاني جاني)

المعارك – التكتيكات (جاندو -جانشو)

المستوى الأول هو "الحرب العظيمة-سياسة الحرب"، يتعلق بالحجم، هذه الأعمال العسكرية وغير العسكرية للحرب مع اعتبار الوسائل العابرة للدولة كحد أعلى والدولة حد أدنى. الوظيفة التي تستجيب لها هي "سياسة الحرب"، وهي ما يسميه كولينز "الاستراتيجية العليا"، ونحن نسميها "سياسة الحرب" لأن الاستراتيجية على هذا المستوى تشمل بالدرجة الأولى المكائد السياسية للحرب، والمستوى الثاني هو "استراتيجية الحرب"، العمليات العسكرية على مستوى دولة تشمل الأعمال الحربية غير العسكرية على هذا المستوى، والوظيفة التي تستجيب لها هي "الاستراتيجية"، أي: المكائد العسكرية للدولة أو مكائد الحرب.

المستوى الثالث هو "الحملات- فن العمليات"، فيما يتعلق بمدى العمليات، يشير هذا إلى الأعمال القتالية الأدنى من الحرب والأعلى من المعارك، والوظيفة التي تستجيب إلى هذا المستوى ليس لها عنوان، وعادة ما يُستخدم مفهوم "شن الحملات" بشكل عشوائي. ومن الجلي أن هذا يعرقل تنفيذ مدى وطرائق العمليات القتالية، لذا اخترنا مصطلح "فن العمليات" (جاني، أو فنون الحرب أو فن الحرب)، اختيار تصنيف هذا المستوى كمستوى أدنى من الاستراتيجية وأعلى من التكتيك، سيتطلب تفاصيل عن معنى فن الحرب.

المستوى الرابع هو "تكتيكات المعارك" يتعلق بالأعمال القتالية على معظم المستويات الأساسية، والوظيفة التي تقابلها هي "التكتيك".

يمكننا أن نرى من النظرة الأولى أن كلاً من هذه المستويات لديها وظيفة قتالية مقابلة. وعند الحديث عن العسكريين التقليديين، ربما كانت الدروس التي تعلموها طيلة حياتهم تتعلق بالمهارة في الاستفادة من هذه الوظائف والقتال الجيد في أي مستوى يقاتلون فيه، أما بالنسبة للجنود الذين على وشك الدخول في القرن الجديد، فإنه مجرد التدرب على هذه الوظائف على هذه المستويات الثابتة الأربع غير كافٍ أبداً بالنسبة لهم. بل يجب عليهم أن يدرسوا كيف يعطِّلون هذه المستويات، للانتصار في الحرب عبر الجمع بين كل هذه العوامل من الأعمال العابرة للدول إلى المعارك المحددة. وهذا بالتحديد ليس مهمة لا يمكن إتمامها، ولتبسيط الأمور، كمحاولة لمطابقة سياسة الحرب واستراتيجيتها وفن العمليات والتكتيكات مع الطرق، فمبدأ الجمع بين الأعمال العابرة للدول ليس أكثر من تبادل أدوار. وكمثال على ذلك: استخدام طريقة استراتيجية ليست نوعاً من الأعمال غير العسكرية لتتماشى مع إنجاز مهمة تكتيكية، أو استخدام طريقة تكتيكية لإنجاز هدف على مستوى سياسة الحرب. ويعود السبب في هذا إلى أن الاتجاه الذي يظهر بشكل أوضح فأوضح في هذا النوع من المؤشرات: وبالتأكيد المشكلات على مستوى واحد لا يمكن حلها إلا بوسائل على مستوى واحد. لا يهم ما إذا كانت تخصص جزءً صغيراً من الموارد أو تستخدم منجلاً كبيراً لقتل الصوص، إنها طريقة واقعية طالما أنها تعمل جيداً.

استخدم بن لادن طريقة المستوى التكتيكي بشاحنتين محملتين بالمتفجرات فقط وهدد بهما المصالح الأمريكية على المستوى الاستراتيجي، بينما لا يستطيع الأمريكيون سوى تنفيذ الهدف الاستراتيجي بحماية أمنهم عبر تنفيذ رد على المستوى التكتيكي ضده. مثال آخر: في الحروب القديمة كان أصغر عنصر قتالي هو الجمع بين الرجل والآلة، وفائدته لم تتجاوز في العادة تطاق المعارك. في الحرب التي تتجاوز الحدود، على النقيض من هذا، حقق الجمع بين الرجل والآلة وظائف هجومية متعددة تتجاوز مستويات المعارك إلى سياسة الحرب. هكر واحد + جهاز مودم يتسبب للعدو بأضرار وخسائر قد يصل مستواها لخسائر ناجمة عن الحرب، ونظراً إلى



أن هذه الطريقة في القتال الفردي تتمتع باتساع وسرية القتال العابر للمستويات، فإنها تحقق بيسر النتائج على المستويات الاستراتيجية وحتى على مستوى سياسة الحرب. هذا هو جوهر وأهمية أعمال الجمع العابر للمستويات.

في الحرب والأعمال غير العسكرية التي تكون بالدرجة الأولى وطنية وعابرة للدول، لا يوجد منطقة لا يمكن عبورها، ولا يوجد وسائل لا يمكن استخدامها في الحرب، ولا يوجد منطقة أو طريقة لا يمكن استخدامها في أعمال الجمع. قابلية التطبيق في أعمال الحرب في الاتجاه إلى العولمة تتجلى في كلمة "خارج نطاق". هذه الكلمة كافية لتعني استخدام واحدة لتطبيق عشرة آلاف. لكن ما نعنيه بكلمة عشرة آلاف طريقة مجتمعة كواحدة تغطيها كلمة "خارج نطاق" تماماً.

يجب التأكيد مجدداً على أن الحرب المجمعة التي تتجاوز الحدود هي بالدرجة الأولى طريقة للتفكير، وبالدرجة الثانية هي طريقة.

الفصل الثامن:

مبادئ أساسية

"المبادئ مدونة سلوك، لكن هذه المدونة ليست مطلقة".

جورج كينان

في تاريخ الحرب، الشخص الأول الذي يعود إليه الفضل لاستخدام المبادئ لوضع قواعد طرق القتال يجب أن يكون صن تزو. فالمبادئ التي تبنّاها مثل: "اعرف العدو واعرف نفسك، وعندها لن تهزم ولو في مئة معركة"، "اضرب حيث لم يستعد العدو، خذه على حين غرة" و "تجنَّب القوي واضرب الضعيف" ما تزال مقولات موثوقة لدى المنظّرين الاستراتيجيين الحدثاء. لكن في الغرب، بعدها بـ 2400 سنة، كشف نابليون عن رغبته الحقيقية في أكاديمية سانت كير العالمية المشهورة، التي نقشت اسمه لاحقاً على بوابتها الرئيسية: "كتابة كتاب، يتحدّث عن مبادئ الحرب بدقة، وتقديمه لجميع العسكريين". لكن لسوء عندما قاتل وانتصر في الحروب لم يكن لديه الوقت للكتابة وبعد هزيمته لم يكن بمزاج يسمح له بالكتابة. وبالنسبة للمشير الذي حقق نحو مئة انتصار في حياته، هذا مما لا يجب أن يُبدي عليه المرء كثيراً جداً أو قليلاً جداً من الأسف، لكن رجلاً وُلِدَ عظيماً، كان كافياً بالنسبة له أن يترك سجلاً حافلاً بالانتصارات للأجيال القادمة كي تلتمس من خلاله طريق النصر. وبعدها بمئات السنين، من الحروب التي شنها هذا العدو القديم وزرع من خلالها الرعب في قلوب الشعب البريطاني في الحياة وبعد الممات، استنبط الجنرال البريطاني موللر خمسة مبادئ لشن الحروب الحديثة[1]. وكل مبادئ الغرب حول الحرب الحديثة مشتقَّة من هذه المبادئ، على الرغم من أن القواعد العسكرية لعدد قليل من الدول وعدة منظّرين عسكريين اقترحوا هذا المبدأ أو ذاك المبدأ إلا

1 المبادئ الخمسة التي لخّصها فوللر من الحروب النابليونية هي: الهجوم والمناورة والمفاجئة والتركيز والإسناد. وبالإضافة إلى هذه، وباتباعه آراء كلاوزفيتز، استنبط فوللر سبعة مبادئ مشابهة لمبادئ الحروب النابليونية: الحفاظ على الهدف، تأمين العمل، الحركية، إرهاق إمكانات العدو الهجومية، الحفاظ على القوات، تركيز القوات، والمفاجئة. وباتت هذه المبادئ جوهر المبادئ العسكرية. (انظر «كتابات فوللر في جانجان زيداو (القيادة القتالية) دار نشر التحرير الشعبي، الصفحات 60-38)

أن كل هذه الأشياء لا تختلف سوى في نواحٍ جزئية عن المبادئ التي وضعها فوللر[1]، ويعود السبب في هذا الى أنه منذ بداية الحروب النابليونية الى قُبيل حرب الخليج، وبغض النظر عن الزيادة المتواصلة في القتل والتدمير، لم يكن هنالك سبب وجيه لتغيير طبيعة الحرب نفسها.

أما الآن فقد تغيَّر الوضع، بسبب كل ما حدث أثناء وبعد حرب الخليج. فظهرت الأسلحة دقيقة التوجيه، والأسلحة غير القاتلة، والأسلحة غير العسكرية التي غيَّرَت مسار القتل الجنوني التي تسير عليه الحرب، وأدت هذه الأحداث الى أول تغيير في مسار الحرب منذ فجر التاريخ، وقاد هذا الاتجاه مسار الحرب للقرن القادم، وأدى لظهور مبادئ لم يكن العسكريون المحترفون يعرفونها.

لا يمكن أن تبقى المبادئ على منصة واهية تنتظر الانهيار، وينطبق هذا أكثر على مبادئ الحرب. وأياً كان المفكِّر العسكري الذي أبتدع هذه المبادئ، أو أياً كانت اللوائح العسكرية التي جاءت بها، فلا شك أن المبادئ جميعها نتيجة لانصهار الأفكار المتكرر في بوتقة الحرب. لو لم تكن حرب الربيع والخريف لم تكن لتأتي مبادئ سن تزو، ولو لم تكن الحروب النابليونية ما كانت لتظهر مبادئ فوللر. وبنفس الطريقة، لو تم تكن الحروب الكبيرة والصغيرة وأشباه العسكرية وحتى غير العسكرية في العالم قبل وبعد حرب الخليج ما كانت لتُطرح الاقتراحات عن المفاهيم الجديدة مثل: "العمليات كاملة الأبعاد" و"حرب جمع الوسائل لاختراق الحدود"، وبالتأكيد، مبادئ الحرب التي تنبثق من هذه المفاهيم ستكون خارج السؤال.

بينما نأسف حقاً على أن نظرية "العمليات كاملة الأبعاد" عروس كُفِّنَت بثوب الزفاف، فنحن مصرّون على ألا تقتصر "الحرب التي تتجاوز الحدود" على مستوى التكهنات النظرية، بل نريد أن نراها متكاملة مع الطرق القتالية مع تطبيقات عملية. حتى برغم أن النية من وراء أيديولوجيا "خارج الحدود" التي نتحدث عنها هي كسر القيود، بغض النظر عن وجود قيد واحد يجب أن يخضع لرقابة صارمة، كي

1 كمثال على هذا: المبادئ الرئيسية التسعة للجيش الأمريكي: الهدف والهجوم والتركيز واقتصاد القوات والحركية والتأمين والمفاجأة والتبسيط والتوحيد (للقيادة)، وهذه المبادئ مشابهة جداً لمبادئ الحرب في الحقبة النابليونية.



تلتزم بالمبادئ الأساسية عند تنفيذ الأعمال القتالية. في بعض المواقف الاستثنائية فقط يمكن كسر بعض المبادئ.

عندما تتصلّب الأفكار العميقة حول قواعد الحرب لتصبح نوعاً من الطريقة القتالية، يولد المبدأ معها، وسواء كانت هذه الطرق القتالية مبادئ أم لم تكن، فهي لم تُختَبَر بعد في أية حروب، ويمكن أن تكون معالم على الطريق تشير الى أن طريق النصر القادم ما يزال بعيداً، لكن لا شك في أن طرح المبادئ الأساسية عملية نظرية لا تُعَوّض، هنا يوجد الجيروسكوب، دعه يدور هنا من أجلنا. فلنلقِ نظرة على المبادئ التالية ولنرى ما يمكن أن نستفيد منها لـ "الحرب المجمَّعة خارج الحدود".

أحادية الاتجاه.

التزامن.

الأهداف المحدودة.

التناظر.

الاستهلاك بالحد الأدنى.

التنسيق المتعدد الأبعاد.

التنسيق والسيطرة على العملية بأكملها.

أحادية الاتجاه والنظرة الشاملة بمقدار 360 درجة والتصميم، الاستخدام التجميعي لكل العوامل ذات الصلة:

"أحادية الاتجاه" هي نقطة البداية في أيديولوجيا "الحرب المفتوحة" وغطاء لهذه الأيديولوجيا. كمبدأ عام للحرب، فالمطالب الأساسية للقائمين بالحرب هي إيلاء الاعتبار الكامل للعوامل المتعلقة بهذه الحرب بالذات، وعند مراقبة ساحة معركة أو ساحة معركة محتملة: إعداد الخطط وتجهيز الإجراءات والجمع في الاستخدام بين كافة مصادر الحرب التي يمكن تعبئتها لتكوين مساحة رؤية دون بقع عمياء، ومفاهيم لا تفرّغها العوائق من مضمونها وتوجُّه دون زوايا عمياء.

فيما يتعلق بالحرب التي تتجاوز الحدود، لا يوجد أي تمييز بين ما هو ساحة معركة أو ما ليس بساحة معركة. المساحات في الطبيعة من الأرض والبحار والجو والفضاء الخارجي هي ساحات معارك، لكن المساحات الاجتماعية مثل العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية هي ساحات معارك أيضاً. والمساحة التكنولوجية التي تصل بين هذين النوعين من المساحات الشاسعة هي أكثر من ساحة معركة لا يدخر جميع الخصوم فيها أي جهد للتنافس عليها[1]. يمكن للمعركة أن تكون عسكرية أو شبه عسكرية أو غير عسكرية، ويمكن أن تكون عنيفة أو غير عنيفة، ويمكن أن تكون مواجهة بين جنود محترفين أو بين قوات ناشئة تتكون من أشخاص مبتدئين أو عاديين أو خبراء. هذه السمات للحرب خارج الحدود هي النقطة الفاصلة بينها وبين الحرب التقليدية، وكذلك خط البداية للأنواع الجديدة من الحرب.

تُطَبَّقُ تعددية الاتجاهات كمبدأ قوي قابل للتطبيق على الحرب الفعلية على كل

1 ساحة المعركة في الحرب التي تتجاوز الحدود تختلف عن تلك الحروب التي جرت في الماضي في أنها تشمل جميع المساحات الطبيعية، مثل الساحة الاجتماعية وحيّز التكنولوجيا الآخذ في النمو حيز يُقاس هذا الحيز بالنانو متر. واليوم هذه المساحات مترابطة مع بعضها البعض. على سبيل المثال، يمكن رؤية الفضاء الخارجي كمساحة طبيعية، وكمساحة تكنولوجية أيضاً، لأن كل خطوة في عسكرة الفضاء الخارجي تتطلب تقدماً علمياً. في ذات المجال، الآليات المتداخلة بين المجتمع والتكنولوجيا يمكن رؤيتها بصورة ثابتة. وأفضل مثال يعبِّر عن هذا هو تأثير تكنولوجيا المعلومات على المجتمع. ومن هذه الأشياء يمكننا أن نرى أن ساحة المعركة واسعة الانتشار ومتواجدة في كل مكان، ويمكننا أن نراها من خلال تعددية «الاتجاهات».



مستوى من الحرب المجمَّعة التي تتجاوز الحدود (تناولناها في الفصل السابع). على مستوى سياسة الحرب، فإنها تُطبَّق على الاستخدام المُجَمَّع على قوة قتالية كاملة لدولة بأسرها، وصولاً الى القوة القتالية العابرة للدول، في مواجهة عابرة للقارات أو مواجهة عالمية. وعلى المستوى الاستراتيجي، تُطَبَّق على الاستخدام المجمَّع في الحرب على الموارد الوطنية التي تتعلق بالأهداف العسكرية، وعلى المستوى العملياتي تُطبَّق من خلال الاستخدام المجمَّع في ميدان المعركة لأنواع متعددة من التدابير، وخصوصاً الجيش أو القوة على نطاق يسمح بتنفيذ أهداف الحملة. وعلى المستوى التكتيكي، تُطَبَّق بالاستخدام المجمَّع لأنواع متعددة من الأسلحة والعتاد والطرق القتالية، وخصوصاً وحدة واحدة أو قوة بحجم يمكِّنها من تنفيذ المهمة الموكلة إليها في ساحة المعركة. ويجب أن نتذكَّر على الدوام أن كافة أشكال الجمع آنفة الذكر يجب أن تشمل أيضاً أعمال جمع تقاطعي بين المستويات المعنيَّة.

وأخيراً يجب أن يتوضَّح أن مجال العمليات القتالية في كل حرب معيَّنة لن يتوسع الى كافة المجالات، بل إن المبدأ الأول للحرب المجمَّعة العابرة للحدود هو التفكير ملياً بتعددية الاتجاهات واستيعاب الموقف القتالي.

التزامن، تنفيذ الأعمال في ميادين مختلفة في ذات الفترة الزمنية:

التدابير التقنية المُستخدمة في الحرب الحديثة، وخصوصاً انتشار المعلومات التقنية، وظهور تكنولوجيا الحرب طويلة الأمد، والزيادة المطردة في القدرة على تحويل ميدان المعركة، وترابط ميادين المعارك التي تمتد للأبد متناثرة أو مختلفة حسب طبيعتها، والتعرف على القوى العسكرية وغير العسكرية على قدم المساواة مع الحرب، كل هذه الأشياء تقلِّص من طريق الحرب. لذا فالعديد من الغايات التي استلزم تحقيقها في الماضي على مراحل من خلال تراكم المعارك والحملات، يمكن تنفيذها الآن بسرعة في ظروف التنفيذ المتزامن، والعمل المتزامن، وإكمال العمل المتزامن، وبالتالي فالتأكيد على "التزامن" في العمليات القتالية يفوق التأكيد على العمل على مراحل[1].

مع الأخذ بعين الاعتبار شرط التخطيط الشامل، فالحرب خارج الحدود تجلب عوامل رئيسية للحرب التي تشتت الى مساحات وميادين مختلفة لتجمعها في نفس الفترة الزمنية المنسقة. هذه العوامل تدور في فلك غايات الحرب، وتنفيذ مجهود جماعي جيد التنظيم وهجوم مجمَّع لتحقيق المفاجأة والسريَّة والفاعلية. قد يكون إجراء واحد متزامن وكامل العمق مجرد عملية قتالية قصيرة تتجاوز الحدود، لكن يمكن أن تكون كافية لتقرير نتيجة الحرب بأكملها. ما نعنيه بكلمة "التزامن" هنا ليس "التواقت"، فلا يجب أن يكون هنالك أي اختلاف ولو حتى بمقدار ثانية، ولهذه تستحق هذه الحرب تسمية "حرب التوقيت المحدد".

وباستخدام هذا كمقياس فالقوات المسلحة التي يصل مستوى إمكاناتها العسكرية الى هذا المستوى تقريباً هي القوات الأمريكية. وبأخذ عتادها وتقنياتها الحالية، فواحدة من أنظمة حملات المعلمات العسكرية يمكنها في غضون ثانية أن تقدم البيانات عن 4000 هدف لـ 1200 طائرة. وبالإضافة الى هذا هنالك الاستخدام الواسع لأنظمة السلاح الطويلة المدى، وأدى هذا الى طرح أيديولوجيا عمليات

1 شملت الحرب فيما مضى في مجال المساحة توغل القوات من الحدود الى الأعماق ومن حيث الوقت التقسيم الزمني للعمل على مراحل، وعلى النقيض من هذا فالحرب العابرة للحدود تستهدف القلب مباشرة، وغالباً لا تتسم بالمراحل.

"الهجوم المتزامن كامل العمق". وفيما يتعلق بالمساحة، الجيش الأمريكي آخذ بالتخلي عن نموذج الأعمال مع الدفع التدريجي من الهامش الى العمق، وفيما يتعلق بالزمن، فقد بدأ يتخلى عن نموذج الأعمال القتالية المتتالية الذي عفا عنه الزمن. لكن الحكم من خلال بعض الوثائق التي نشرها الجيش للملأ، فالخط الأمريكي للأفكار في هذا الصدد ما يزال الى حد بعيد حبيس مجال العمل العسكري، ولم يتمكن من توسيعه الى ميادين خارج النطاق العسكري[1].

الأهداف المحدودة، أعداد البوصلة لتدل على العمل ضمن نطاق مقبول للتدابير (المتاحة):

الأهداف المحدودة تعني المحدودية في العلاقة بين التدابير المستخدمة. وبالتالي فمبدأ وضع الأهداف المحدودة يعني أن الأهداف يجب أن تكون على الدوام أصغر من التدابير، عند تحديد الأهداف، يجب إيلاء الاعتبار الكامل لواقعية التنفيذ، لا تسعى للأهداف غير المقيَّدة بالوقت والميدان. بالحدود فقط يمكن لهذه الأهداف أن تتسم بالوضوح والعملية، وبالحدود فقط يمكن أن تكون هذه الأهداف مثمرة. بالإضافة هذا، بعد تنفيذ هدف سيكون لدى المرء المرونة الكافية للانطلاق نحو الهدف التالي[2]. عند تحديد الأهداف، يجب على المرء أن يتغلب على عقلية الرغبة بتحقيق نجاحات كبيرة، وبدلاً من هذا عليه أن يسعى واعياً لتحقيق الأهداف المحدودة والتخلي التام عن الأهداف التي تقع خارج نطاق قدراته، حتى لو كانت هذه الأهداف مناسبة. ويعود السبب في هذا الى أن كل هدف قابل للتحقيق هو هدف محدود، لا يهم ما السبب، وضع الأهداف التي تتجاوز نطاق الحدود المسموحة للتدابير المتاحة سيؤدي فقط الى عواقب مُدمِّرة.

1 لا يوجد مثال نموذج على هذا أكثر من المبادئ الأربعة في الرؤية المشتركة للجيش الأمريكي سنة 2010، والتي هي «المناورة الطاغية، الاشتباك بالأسلحة الدقيقة، اللوجستيات المركزة، الحماية الكاملة الأبعاد». كل هذه تطرح مبادئ جديدة للحرب العسكرية.

2 تحديد الأهداف المحدودة ليس قضية ما إن كان المرء يعتبرها مقيدة ذاتياً أم لا، بل ما إن التدابير المحدودة ستُتجاوز أم لا. تكون التدابير محدودة عندما لا يمكن تجاوزها عند وضع الأهداف.

وأمثل نموذج يثبت أن توسيع الأهداف خطأ هو ما فعله ماك آرثر في الحرب الكورية. العواقب المترتبة على هذا هو الأخطاء المشابهة التي ارتكبها الأمريكيون في فيتنام والسوفييت في أفغانستان، ما يثبت أنه بغض النظر عن نوع العمل وبغضِّ النظر عمن ينفِّذه، فعندما تكون الأهداف أكبر من الوسائل، فإن الهزيمة حتمية. ولا يدرك كل رجالات الدولة والمنظِّرون الاستراتيجيون هذه النقطة. سنة 1996 نقل تقرير صادر عن وزارة الدفاع الأمريكية هذه الفرضية من الرئيس كلينتون: "بما أننا أقوى دولة في العالم فلدينا التزامات قيادية، وعندما تتعرض مصالحنا وقيمنا الى مخاطر كبيرة فلسوف نتصرّف". عندما قال كلينتون هذه الكلمات حتى لو لم يكن واعياً أن المصالح العالمية والقيم هي أهداف استراتيجية من منظورين مختلفين تماماً. فإن قلنا إن الأولى هي هدف يمكن أن تحميه القوة الأمريكية بالعمل، فإن الثانية ليست هدفاً مما يمكن للقوة أن تحميه ولا هدفاً يجب على الولايات المتحدة أن تسعى له خارج أراضيها. "الرقم واحد في العالم"، أيديولوجيا تتوافق مع "الانعزالية"، تجعل الأمريكيين على الدوام يميلون للسعي نحو تحقيق الأهداف غير المحدودة لأنها توسِّع من قوتهم العالمية. لكن هذا الاتجاه سيؤدي في النهاية الى مأساة، الشركة محدودة الموارد لكن المتحمسة لتحمل مسؤوليات غير محدودة تتجه نحو نتيجة واحدة ممكن، ألا وهي الإفلاس.



التدابير غير المحدودة، الاتجاه نحو الاستخدام غير المحدود للتدابير، لكن مع تقييد تحقيق الأهداف المحدودة:

نتحدث عن التدابير المحدودة لأنها تتعلق بالأهداف المحدودة[1]. الاتجاه نحو انعدام الحدود هو اتجاه نحو التوسيع المستمر لمدى انتقاء وطرق استخدام التدابير. وليس الإسراف في استخدام التدابير ولا التعسف في استخدامها، أو الاستخدام المطلق لها. التدابير غير المحدودة لإنجاز الأهداف المحدودة هي الحدود النهائية.

لا يمكن فصل التدابير عن الأهداف. وكمقياس فأن تكون غير محدود هذا يعني أن تنجز بعض الأهداف المُعدَّة، ويمكن للمرء أن يكسر القيود وينتقي بعضاً من التدابير، ولا يعني هذا أنه يمكن فصل الوسيلة عن الأهداف واستخدامها كيفما يشاء المرء. الأسلحة الذرية، التي يمكنها إبادة البشرية نُظِر إليها على أنها وسائل مطلقة لأنها تحديداً تنتهك مبدأ أن الوسيلة يجب أن تعمل لتحقيق غاية. وأخيراً الناس تخلت عنها. استخدام الوسائل غير المقيدة لا يمكن سوى أن، كما قال كونفوشيوس: "كما يحلو للمرء، لكن دون الخروج عن القواعد"، و"القواعد" هنا تعني الأهداف. أيديولوجيا تجاوز الحدود توسِّع "كما يحلو للمرء" نطاق انتقاء طرق استخدام التدابير، لكن هذا بالتأكيد لا يعني توسيع الأهداف كما يحلو للمرء"، وإنما يعني استخدام التدابير خارج نطاق القيود وخارج نطاق الحدود، لإنجاز الأهداف المحدودة. وفي المقابل لا يحد الجنرال الذكي من وسائله لأن أهدافه محدودة، فهذا على الأرجح سيودي به الى الفشل بعد الوصول الى حافة النجاح، وبالتالي فالمحدودية يجب الوصول إليها من خلال اللامحدودية.

لم يكن تقدم شيرمان نحو السافانا في الحرب الأمريكية بين الشمال والجنوب للبحث عن القتال، بل كان لحرق ونهب كل ما تصل أيديهم إليه على طول الطريق، لقد كان وسيلة لتدمير الاقتصاد في منطقة مؤخرة جيش الجنوب، ولتجريد الشعب والجيش في الجنوب من إرادة المقاومة، وبالتالي تحقيق الهدف من الحرب لدى

1 لمزيد من التفاصيل انظر كتاب: كيف انتصر الجنرالات العظماء، لكاتبه بيفين ألكسندر.

الشمال. وهذا مثال عن الاستخدام الناجح للوسائل غير المحدودة لتحقيق هدف محدود. وعلى النقيض من هذا المثال، في حرب الشرق الأوسط الرابعة (حرب يوم الغفران سنة 1973) لتحقيق الغاية القتالية المحددة من الجنرالات على الجبهات، والتي تمثَّلَت في احتلال شبه جزيرة سيناء، كانت خطة القائد الأعلى للقوات المصرية المسلحة تقضي باختراق خط بارليف فقط وإحكام السيطرة على سيناء، وحاولت مصر استخدام الوسائل المحدودة لتحقيق هدف محدود، والنتائج معروفة تماماً، فقد أفلت النصر من بين يدي مصر بعد أن كان النصر قاب قوسين أو أدنى[1].

عدم التناظر، البحث عن عقد العمل في الجهة المعاكسة من منظور توازن التناظر:

"عدم التناظر" نقطة ارتكاز مهمة كمبدأ لترسيخ القواعد الاعتيادية في أيديولوجيا تجاوز الحدود. والنقطة الأساسية فيها هي اتباع قطار الأفكار المعاكسة لتوازن التناظر، وتطوير العمل القتالي وفقاً لهذا المنحى. من إعداد القوة ونشرها، وانتقاء محور الهجوم الرئيسي ومركز الثِّقَل للهجوم، وصولاً الى تخصيص الأسلحة، في كل هذه الأشياء، يجب مراعاة تأثير العوامل غير المتكافئة في اتجاهين والاستفادة من عدم التناظر لقياس مدى تحقيق الأهداف.

وبغضِّ النظر عما إن كان عدم التناظر يمثِّل خطأً من الأفكار المتصلة أو مبدأً يدلنا على العمليات القتالية، فإن عدم التناظر يتجلى في بعض نواحي الحرب. فهم واستخدام مبدأ عدم التناظر يسمح لنا بأن نجد ونستغل نقاط ضعف العدو بشكل صحيح. العناصر الرئيسية للقتال لبعض البلدان الفقيرة والضعيفة والكيانات

1 قبل حرب الشرق الأوسط الرابعة قسّمت خطة «بدر» (بدأت الحرب في ذكرى معركة بدر سنة 626 للميلاد) المعركة الى ثلاث مراحل، في المرحلة الأولى؛ تقضي المرحلة الأولى باقتحام قناة السويس عنوة، وتحطيم حط بارليف، والسيطرة على مساحة بعمق 20-15 كيلومتراً شرقي القناة، وتقض المرحلة الثانية بمهاجمة والاستيلاء على الخط الواصل بين معبر متلا ومعبر الجدي وحتى معبر ختيمة، وتأمين الضفة الشرقية للقناة، ومن ثم التوسع نحو في عمق العدو حسبما يسمح به الموقف. لكن في القتال الفعلي، حالما عبر الجيش المصري القناة اتخذ موقفاً دفاعياً. ولم يواصل هجومه إلا بعد خمسة أيام، مما أعطى الجيش الصهيوني الفرصة ليلتقط أنفاسه.

التي لا تشكِّل دولة استخدمت جميعها أساليب قتالية من قبيل "لعبة القط والفأر" ضد أعداء يفوقونها كثيراً جداً في القوة. في حالات الشيشان ضد روسيا، والصومال ضد الولايات المتحدة، حرب العصابات التي شنتها إيرلندا الشمالية ضد بريطانيا، والجهاد الإسلامي ضد الغرب برمته، نرى حكمة الإصرار على رفض مواجهة مسلحة لدولة قوية وجهاً لوجه. بل إن الطرف الضعيف ينافس عدوَّه باستخدام حرب العصابات (تحدث حرب العصابات بالدرجة الأولى في المناطق الحضرية)[1]، الحرب الإرهابية وحرب الشبكة وغيرها من أشكال القتال. غالباً ما يختار الطرف الضعيف كمحور رئيس لمعركته تلك المناطق أو خطوط المعركة التي لا يتوقع فيها العدو أن يتلقى الضربات، مركز الثقل في الهجوم يكمن دوماً في المكان الذي ستنتج عنه صدمة نفسية هائلة على العدو. استخدام التدابير غير المتناظرة بشكل تنتج عنه قوة بحد ذاتها وتجعل الأمور تتطور كما تريد، يكون له عادة تأثير هائل. وغالباً ما يجعل هذا العدو الذي يستخدم قوات تقليدية ووسائل تقليدية كقوة رئيسية له يبدو مثل فيل ضخم يتخبط في متجر صيني. حيث يكون حائراً وعاجزاً عن توظيف قوته.

وبغضِّ النظر عن الفاعلية التي يبديها عند استخدامها، فانعدام التناظر بحد ذاته قاعدة تطرحها القاعدة النسبة الذهبية. من بين كل القواعد فهذه هي القاعدة الوحيدة التي تشجّع على كسر القواعد بدلاً من اتباع القواعد. كما أنها توصيف فعّال للمنهجية والمعالجة الطبية لمرض التفكير المزمن.

1 أكّد الباحث الشهير في تطور المجتمع الرأسمالي فيرناند بروديل على «الفائدة التنظيمية» للمدن الكبيرة في العالم الرأسمالي. فرغم حجمه الكبير يحتاج هذا العالم الى عدد من نقاط الارتكاز، والمدن الرئيسية مثل نيويورك ولندن وطوكيو وبركسل وربما هونج كونج، فإن هوجِمَت هذه المدن في وقت واحد أو إذا شُنَّت حرب عصابات عليها في ذات الوقت فربما يترنح العالم بأسره بتأثير الفوضى العارمة (كتاب القوة الدافعة للرأسمالية، فيرناند بروديل).

الاستهلاك بالحد الأدنى، استخدام أقل كمية من المصادر القتالية بما يكفي لتحقيق الهدف:

مبدأ الحد الأدنى من الاستهلاك، في المقام الأول هذه العقلانية أهم من التوفير[1]، ثانياً حجم الاستهلاك القتالي يحدده شكل القتال[2]، وثالثاً استخدام وسائل أكثر للوصول الى استهلاك أقل.

العقلانية تشمل جانبين، التخصيص المنطقي للأهداف والاستخدام المنطقي للموارد. التخصيص المنطقي للأهداف إضافة إلى تحديد الأهداف التي لا تقع في دائرة الوسائل المستخدمة، وكذلك الإشارة الى الحاجة الى ضغط تنفيذ الأهداف، وجعل هذه الأهداف بسيطة ومحددة قدر الإمكان. العقلانية في استخدام المصادر تعني بوضوح استخدام أكثر الوسائل ملائمة لتحقيق الهدف، وليس مجرد فرض شرط عقلي واحد للتدبير الاقتصادي. التدبير الاقتصادي بمعنى استخدام أقل كمية من المصادر إذاً، يكتسب هذا المعنى فقط بوجود شروط مسبقة بأن يحقق الغاية المنشودة. والأهم من إضفاء الشكليات على المبادئ هو كيف تُطَبَّق المبادئ. أما استخدام الحد الأدنى من المصادر لتحقيق الهدف أو عدم استخدامها فيتوقف على اختيار شكل العمليات القتالية. ويسمّي مؤرخو الحروب حملة فيردان بمفرمة اللحم، لأن جانبي القتال كلاهما خاضا حرب استنزاف لا هوادة فيها. وفي المقابل فالسبب الذي سمح لألمانيا باكتساح القوات الفرنسية البريطانية المشتركة بعد تجاوز خط ماجينو هو أنها جمعت بين الفترة الزمنية القصيرة في الوقت وخطوط الإمداد القصيرة وأقوى الأسلحة في هجوم بليتزكريج، وبالتالي يمكننا أن نرى أن المفتاح الحقيقي لتحقيق "الحد الأدنى من الاستهلاك" هو إيجاد طريقة قتالية تسمح بالاستخدام العقلاني للموارد القتالية.

1 المبادئ العسكرية تتضمن على الدوام مفاهيم «التدبير الاقتصادي» الذي يشير بشكل رئيسي الى إيلاء الاهتمام بالسيطرة على استهلاك القوة البشرية والمادية أثناء الحرب، وخارج أوقات الحرب «الاستخدام المنطقي» هو السبيل الوحيد للتدبير الاقتصادي السليم.

2 الحرب العابرة للحدود تمنح قدراً كبيراً من الفسحة لانتقاء أشكال القتال، وبطبيعة الحال ثمة فروقات كبيرة بين كلفة الحرب العسكرية التقليدية والحرب التي يلعب فيها المال الدور الأبرز، لذا فتكلفة حروب المستقبل تعتمد بالدرجة الأولى على اختيار شكل الحرب.

اليوم، يتطلب إنجاز الأهداف بالوسائل العديد من الصيغ المختلفة التي لم يكن من قبل، وبالتالي مواجهة الهدف المركب بمرحلة واحدة فقط وبوسيلة واحدة فقط سيكون بالتأكيد أدنى بكثير من المطلوب. النتيجة الحتمية لعدم المطابقة بين الوسائل والأهداف هي الإسراف في الإنفاق وانخفاض الفعالية. الخط الفكري الذي يقود هذه الصعوبات هو استخدام "المزيد" لتحقيق "الأقل"، أي الجمع بين مزايا أنواع عديدة من المصادر القتالية في أنواع عديدة من الميادين لتشكيل شكل جديد تماماً من القتال، يحقق الهدف وفي ذات الوقت يقلل التكاليف الى الحد الأدنى.

التنسيق المتعدد الأبعاد، تنسيق وتخصيص كافة القوى التي يمكن تعبئتها في المجالات العسكرية وغير العسكرية لتغطية الهدف:

"تعددية الأبعاد" هنا هي طريقة أخرى للإشارة الى المجالات المتعددة والقوى المتعددة. ليس هنالك ما يمكن فعله مع تعريف الأبعاد فيما يتعلق بالرياضيات أو الفيزياء. يشير "التنسيق المتعددة الأبعاد" الى التنسيق والتعاون بين قوى متعددة في مجالات متعددة لتحقيق هدف. يبدو هذا التعريف غير جديد، حيث نجد شروحاته في العديد من القوانين العسكرية، سواء كانت قديمة أو جديدة، والفارق الوحيد بينه وبين الشروحات القديمة -وهو فارق كبير- هو أن إدخال العوامل غير العسكرية وغير الحربية في مجال الحرب بشكل مباشر أو غير مباشر. بمعنى أنه بما أن أي مجال يمكن أن يصبح ميدان معركة، وأي قوة يمكن أن تُستَخدَم في ظروف القتال، يجب أن نتجه أكثر لفهم التنسيق متعدد الأبعاد على أنه تنسيق البعد العسكري مع أبعاد متنوعة أخرى سعياً للوصول الى هدف محدد. فليس صحيحاً أنه في جميع الحروب يجب أن يُعتَبَر العمل العسكري صيغة العمل الرئيسية، ومع مواجهة الحرب تعديلاً في أبعاد متنوعة، سيصبح هذا المفهوم صيغة للرد على الأسئلة التي تُعنَى بمستقبل الحرب[1].

1 أهم خطوة نحو المساواة بين الأبعاد المتنوعة هي التغلب على مفهوم «العسكرية هي الأهم». ففي حروب المستقبل ستُعتَبَر الوسائل العسكرية واحدة من الخيارات التقليدية.

ويمكن ترسيخ التنسيق المتعدد الأبعاد ضمن مفهوم هدف محدد. دون هدف لا يمكننا الحديث عن التنسيق متعدد الأبعاد، لكن حجم الهدف يحدد اتساع وعمق التنسيق في كل بُعد. فإن كان الهدف الموضوع هو الانتصار في الحرب على المستوى السياسي، المجالات والقوات المطلوبة عندئذٍ ربما تشمل البلاد برمتها، ويمكن أن تكون حتى عابرة للدول. انطلاقاً من هذه النقطة يمكننا تعميم أنه في أي عمل سواء كان عسكرياً أم غير عسكري، لا يهم ما هو عمق المجالات ونوعية القوات المُشارِكة، فالتنسيق بين الأبعاد المتنوعة في غاية الأهمية. وهذا لا يعني أن كلما حُشِدَت مزيد من التدابير كان ذلك أفضل، بل يجب الاكتفاء بما هو ضروري، فاستخدام كمية مفرطة أو غير كافية من كل بعد لن يتسبب إلا بالتأرجح بين الإفراط والتفريط، وفي النهاية ستكون الأهداف نفسها معرضة للخطر. الحكمة الشرقية القائلة: "الزائد شقيق الناقص" مفيدة لفهم وتطبيق هذا المبدأ.

كما أننا نحتاج بشدة الى توسيع مجال الرؤية لدينا حسب القوى التي يمكن حشدها، وخصوصاً القوى غير العسكرية. بالإضافة الى ذلك، في الماضي كان توجيه الانتباه الى القوة التقليدية والمادية، أما اليوم فيجب توجيه الانتباه الى استخدام العوامل "المصادر الاستراتيجية" غير الملموسة مثل العوامل الجغرافية، ودور التاريخ، والتقاليد الثقافية، والتجانس العرقي، وهيمنة واستغلال نفوذ التنظيمات الدولية... إلخ[1]. لكن هذا يبقى غير كافٍ، فعند تطبيق هذا المبدأ يجب أن نقوم بعمل خارق للحدود، وأن نجعل التنسيق متعدد الأبعاد خطوة مألوفة في العمليات العادية الى أقصى حد ممكن، والقيام بأعمال الجمع المتشابكة تدريجياً على كل المستويات من سياسة الحرب وحتى التكتيكات.

1 في هذا الصدد الصين غنية بطبيعتها، فلها تقاليد ثقافية ممتدة وأيديولوجية سلمية، وتاريخ غير عدواني، وقوة اقتصادية للشعب الصيني، ومقعد في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إلخ. كل هذه الأشياء هي «مصادر استراتيجية» هامة.

المواءمة والسيطرة على العملية بأكملها، خلال سير العمليات في الحرب، من بدايتها وحتى نهايتها، وخلال سيرها نحو نهايتها، اكتساب متواصل للمعلومات، وتعديل العمل، والسيطرة على الموقف:

الحرب عملية مرنة مليئة بالعشوائية والإبداع، وأي محاولة لربط الحرب بمجموعة من الأفكار ضمن خطة معدَّة مسبقاً ما هي إلا سخافة أو سذاجة محضة. لذا فمن الضروري إجراء تصويبات ومراجعات لكامل مسار الحرب في الوقت الذي تجري فيه، ولحفظ زمام المبادرة في اليد، هذا هو المقصود بـ "تعديل والسيطرة على العملية برمتها".

بسبب إضافة مبدأ التزامن، لا يمكننا فهم تطويل "المسار الكامل" المعدَّل والمُسيطر عليه. بوسائل التقنيات العالية الحديثة، يمكن أن تحدث هذه العملية بطرفة عين. وكما قلنا من قبل: الوقت الذي قد تأخذه لخوض معركة يمكن أن يكون كافياً لشن حرب كاملة. ويمكن لهذا أن يجعل كامل مسار الحرب قصيراً للغاية، ويجعل في المقابل موائمة الحرب والسيطرة عليها أكثر صعوبة.

اليوم تصهر تقنية المعلومات العالم برمته في بوتقة واحدة هي الشبكة، وبالتالي فعدد العوامل الداخلة في تكوين الحرب أكبر بكثير مما كان في الحروب السابقة. قدرة هذه العوامل على طمس حقائق الحرب وتأثيرها الكثيف على الحرب، يعني فقدان السيطرة على أي صلة يمكن أن يكون مثل الخسارة التي تعبِّر عنها المَثَل الذي أدت فيه خسارة مسمار نعل حصان الى خسارة الحرب برمتها[(1)]. لذا فالوسائل الجديدة والميادين الجديدة عندما تُخاض بها الحروب الجديدة وتتعرض لطفرات

---

1 في الحروب الحديثة يؤثِّر تصادف العوامل على نتيجة الحرب كما حدث في العصور القديمة؛ إن ارتفعت حرارة فيوز في حاسوب من حواسيب مركز القيادة واحترق في لحظة حاسمة يمكن أن يؤدي هذا الى كارثة. (هذا ممكن جداً، فقد حدث هجوم خاطئ بطائرة إف 16 في الخليج. حدث هذا الهجوم بسبب ارتفاع حرارة دارة كهربائية في «جهاز تحديد الصديق/ العدو» على متن مروحية من طراز بلاك هوك على نحو متكرر، واضطر الطيارون الى إطفائها لخفض الحرارة) ربما يكون هذا الإصدار الجديد من قصة فقدان نعل الحصان. ولهذا السبب «المواءمة والسيطرة» يجب أن تستمر «خلال العملية برمتها».

التكنولوجيا الحديثة وأعمال الموائمة والسيطرة على العملية بأكملها تصبح شيئاً فشيئاً أكثر مهارة. ليس الأمر نوع التكنولوجيا، فالمطلوب للسيطرة على ميدان المعركة دائم التغير أكبر من مجرد استخدام البديهة أو حتى الاستنتاج الرياضي. فالأهم من التغييرات المستمرة في أحكام القوة والتحديث المتواصل للأسلحة هو وضع مجموعة كاملة من القواعد القتالية التي هي انتقال ميدان المعركة إلى المجالات غير العسكرية. ونتيجة هذا كله هي أن المرء سينتقل الى ميدان معركة لم يسبر أغواره بعد ليخوض حرباً غير مألوفة بالنسبة له ضد عدو مجهول. وبغض النظر، يجب على المرء أن يوائم هذه العملية غير المألوفة بأكملها ويسيطر عليها إن أراد النصر.

"الحرب التي تسودها أعمال الجمع وتتجاوز الحدود" هو هذا الاستخدام للطرق الغريبة والجديدة تماماً للقتال لخوض الحرب.

وكل المبادئ الواردة آنفاً قابلة للتطبيق على أي حرب مجمَّعة تتجاوز الحدود.

النصر بالتأكيد ليس في الحقيبة لمجرد التزام طرف ما بالمبادئ آنفة الذكر، لكن انتهاك هذه المبادئ سيؤدي بلا شك إلى الهزيمة، فالمبادئ دائماً ما تشكِّل ظروفاً أساسية للنصر في الحرب، لكنها ليست بالتأكيد الظروف الوحيدة.

في غياب مبدأ أن النصر مؤكَّد هنالك مبادئ أساسية فقط، فلنتذكر دوماً هذه النقطة.

الخلاصة

"الحوسبة والعولمة... أنتجت آلاف المشاريع العالمية وعشرات آلاف المنظمات العالمية والحكومية الدولية"
إي.لازلو

"البشرية تتقدم، ولم تعد تعتقد أن الحروب محكمة استئناف ممكنة"
بلوش

استخدمت شركة آي بي إم في إعلاناتها صورة نمطية قديمة للإنسان "عائلة الإنسان"، لكن "العولمة" لم تعد مجرّد تنبؤات للمستقبليين. الحقبة التي ساقنا فيها الميل العظيم الى التكامل التقني الذي عزز كل العناوين المعلوماتية، والتي يثيرها تناوب تيارات المحيط الباردة والدافئة من: صدام الحضارات واندماجها، واضطربت بالحروب المحلية التي تلتهب تارة هنا وتارة هناك، وبالأزمات المالية التي تماثل في تواليها واتساعها تأثير تساقط أحجار الدومينو، وثقب الأوزون فوق القطب الشمالي، التي تُسبب للجميع بمن فيهم المستقبليّون والحالمون شعوراً غريباً بالغربة، ومثل هذه الحقبة في حالة من انجلاء الغبار البطيء عن غروب القرن العشرين وبزوغ شمس القرن الحادي والعشرين.

التكامل العالمي شامل وعميق، وخلال تنويره الذي لا هوادة فيه، الأشياء التي يجب أن تتبدل حتماً أو تتبدد هي في مواقع السلطة وحدود المصالح التي تكون فيها الدول هي الكيانات الأساسية. المفهوم الحديث لـ "الولايات المتحدة" التي نشأت من معاهدة سلام ويستفاليا[1] سنة 1648 لم تعد الممثل الوحيد الذي يحتل موقع القمة في المنظمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فظهور أعداد كبيرة من المنظمات المتعددة الجنسيات والعابرة للدول وغير الدولية بالتزامن مع

1 المصطلح العام للاتفاقية الأوروبية سنة 1648. وضع هذا نهاية لثمانين سنة من الحرب بين اسبانيا وهولندا، وحرب الثلاثين سنة في ألمانيا، ويُنظَر إليها أيضاً على أنها أساس لجميع المعاهدات التي أنهت تفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة سنة 1806.

التناقضات المتأصلة بين دولة وأخرى، يؤدي الى تحدٍ غير مسبوق لسلطة الدولة، ومصالح الدولة وإرادة الدولة[1].

منذ فجر ظهور الدول الوطنية، كان مخاض ولادة هذه الدول حروباً تتلاقى فيها عواصف الدم والحديد. وبنفس الطريقة خلال انتقال دولة وطنية الى العولمة، فما من وسيلة لتجنُّب اندلاع الصدامات بين تكتلات المصالح غفيرة العدد. أما الاختلاف فهو أن الوسيلة التي نستخدمها اليوم لحل "عقدة غورديان"[2] ليست

1 موقع الدولة ككيان مطلق خضع للتحدي من زوايا عديدة، وأكثر ما يعبّر عن هذا وأكثر ما يثير القلق هو أن احتكار الدولة للسلاح تعرض لتحدٍّ كبير. وحسب رأي إرنست جيرنا في: الجنسية والقومية، فالدولة هي الكيان الوحيد الذي يمكنه استخدام السلاح قانونياً. وحسب استطلاع رأي عام أُجرته مجلة نيوزويك سنة 1997 في الولايات المتحدة حول: «من أين سيأتي التهديد على الأمن القومي في القرن الحادي والعشرين» أجاب 32 بالمئة بأنه سيأتي من الإرهاب، وأجاب 26 بالمئة بأنه يأتي من الجريمة الدولية ومجموعات الاتجار بالمخدرات، وأجاب 15 بالمئة بأنه من الكراهية العنصرية، وتأتي الدول في المرتبة الرابعة. في كتاب وضعته الولايات المتحدة على الانترنت لكن لم تنشره، صنَّفت القوى غير الدولية بوضوح على أنها «أعداء المستقبل» قائلة أن «التهديدات الأمنية غير الصادرة عن دول، تستخدم تقنيات حديثة تعطيهم إمكانيات مشابهة لتلك التي عند الدول، باتت على نحو متزايد واضحة، وتمثِّل تهديداً لبيئة الدولة التقليدية. وبناءً على هذا المنظور، يمكن تقسيم هذه التهديدات الى ثلاثة فئات: (1) اللاوطنية: تشمل التهديدات اللاوطنية السياسة والعرق والدين والثقافة والصراعات الإثنية وهذه الصراعات تتحدى السمات المميّزة للدولة القومية وسلطتها من الداخل.

(2) غير الوطنية: التهديدات غير الوطنية لا تتصل بالدول التي تنتمي إليها، وهذه الكيانات ليست جزءاً من الدولة الوطنية، ولا ترغيب بترسيخ مثل هذه الحالة، الجريمة المنظمة على مستوى إقليمي، القرصنة، والأنشطة الإرهابية من ضمن هذه التهديدات.

(3) المتعددة الجنسيات: التهديدات المتعددة الجنسيات تتجاوز حدود الدول، وتعمل على نطاق إقليمي أو دولي. وتشمل حركات دينية ومنظمات الجريمة المنظمة ومنظمات اقتصادية غير رسمية تسهّل انتشار السلاح. انظر الى خريطة العالم في العصر المعلوماتي، وانغ شياو دونغ الصفحات 46-44. الجيش الأمريكي لا يتعامل مع الشركات النقل التي تستحوذ على أرباح الاحتكار على أنها تهديد للأمن القومي. وبالإضافة الى وعي الجيش الراسخ بحرية الاقتصاد، يرتبط هذا بحقيقة أنها ما تزال تهديدات محدودة على الميدان العسكري. الشركات العابرة للقوميات مثل مايكروسوفت وستاندرد وأويل إكسون، التي تضاهي ثرواتها ميزانيات دول، ربما تشكِّل تهديدات حقيقية على سلطة الدولة، وربما يكون لها أيضاً تأثير خطير على الشؤون الدولية.

2 تقول الأسطورة أنه بعد أن توغَّل الاسكندر الأكبر بجيشه في آسيا الصغرى، ذهب للتعبُّد في معبد زيوس في مدينة جورديوم. وفي المعبد كان هنالك عربة كانت ملكاً لميداس ملك فريجيا. وكانت مربوطة بقوة بحبل متشابك، وقيل إنها ما من أحد يمكنه حل هذه العقدة. وإزاء هذه المشكلة تفكَّر الاسكندر ملياً لبعض الوقت، ثم سحب سيفه فجأة وقطع الحبل بضربة واحدة. ومنذ ذاك الحين باتت «عقدة غورديان» مصطلحاً آخر يشير الى المشكلات المستعصية والمعقَّدَة.

السيوف فقط، وبسبب هذا لم يعد فرضاً علينا أن نكون مثل أسلافنا الذين رأوا الحل من خلال غروب السيوف وفوهات المدافع كمحكمة استئناف أخيرة. أياً كانت الوسائل سواء كانت سياسية أو اقتصادية أم دبلوماسية ففيها من القوة ما يكفي لتحلَّ محل الوسائل العسكرية. لكن ليس للبشرية أي سبب على الإطلاق كي تكون مسرورة بهذا، لأن ما فعلناه لم يكن سوى استبدال حرب غير دموية بأخرى دموية قدر المستطاع[1]. ونتيجة لهذا، بينما كان ميدان المعركة ينكمش الى نطاق أضيق، حوّلنا العالم برمَّته الى ميدان معركة بالمعنى الواسع. وفي هذه المعركة، لا يزال الناس يقاتلون وينهبون ويقتِّلون بعضهم كما كانوا يفعلون من قبل، لكن السلاح بات أكثر تطوراً والوسائل أكثر تعقيداً، وبالتالي فهذه المعركة رغم أنها أقل دموية بعض الشيء، إلا أنها ما تزال بنفس الوحشية. وبأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار فما يزال حلم البشرية بالسلام بعيد المنال كما كان من قبل. حتى عند الحديث بتفاؤل، فلن تتوقف الحروب فجأة في المستقبل المنظور، سواء كانت دموية أم لا. وبما أن الأشياء التي يجب أن تحدث ستجري في النهاية أم لا، فما يجب أن نركِّز عليه في الوقت الراهن هو كيف نحقق النصر.

عند النظر الى الحرب بمفهومها الواسع سنكتشف أن المعركة في ساحة لا حدود لها، لم يعد من الممكن أن تُعتمَد القوات العسكرية والأسلحة فقط لتحقيق الأمن القومي على النطاق الاستراتيجي الأوسع، ولا يمكنها حماية هذه المصالح الوطنية الطبقية. ومن الجلي أن الحرب في خِضَمِّ عملية تحوُّل في ميادين الجنود والوحدات العسكرية والشؤون العسكرية وتصبح على نحو متزايد سياسات وعلماء وحتى ملاجئ. من الجليّ أيضاً أن مسألة خوض الحرب لم تعد مسألة تخص العسكريين وحدهم. في بدايات هذا القرن صرّح كليمنصو (رئيس وزراء فرنسا خلال وبعد الحرب

---

1 في حروب المستقبل ستحدث أعمال أكثر عدائية مثل الحرب المالية، يمكنها أن تُخضِع دولاً دون إراقة دم واحدة. فكِّر للحظة، ما هي الآثار المدمِّرة التي كانت ستلحق باقتصادات هونج كونج وحتى الصين لو فشلت معركة شهر آب لحماية أسواق هونج كونج المالية؟ بالإضافة الى هذا فمثل هذه المواقف ممكنة بلا شك، ولولا انهيار الأسواق المالية الروسية، الذي تسبب بوقوع المضاربين الماليين للهجوم من جميع الاتجاهات، ليس بوسع أحد معرفة ما كانت ستؤول إليه الأمور.

العالمية الأولى) أن "الحرب مسألة أخطر من أن تُترك للعسكريين"، لكن تاريخ آخر 100 سنة يقول لنا أن تحوُّل الحرب الى أيدي السياسيين ليس طريقة مثالية لحل هذه القضية المهمة، أيضاً[1]. يتحوَّل الناس الى الحضارة التقنية على أمل أن يجدوا في التطورات التقنية صماماً يتحكّم بالحرب، لكن ما يحبط الناس هو أنه رغم أن شمس القرن على وشك الأُفول، ورغم أن التكنولوجيا قد خَطَت خطوات واسعة، ما تزال الحرب الوسيلة التي لم تفقد بريقها بعد. وما يزال الناس يتوقعون العجائب من الثورة في الشؤون العسكرية، على أمل أن تقلل الأسلحة عالية التقنية والأسلحة غير القاتلة من الخسائر في صفوف المدنيين وحتى العسكريين بغية التخلص من وحشية الحرب. لكن حدوث الثورة في الشؤون العسكرية بالتزامن الثورات الأخرى، دقَّ ناقوس الخطر في العقد الأخير من القرن العشرين. فالعالم لم يعد كما كان، أما الحرب فما زالت تحتفظ بوحشيتها التي كانت سِمَتَهَا الأزلية، والاختلاف الوحيد هو أن هذه الوحشية قد توسَّعَت من خلال الاختلافات في طبيعة أسلحة الطرفين المتحاربين. تذكَّر كارثة لوكربي الجوية، تذكَّر قنبلتي نيروبي ودار السلام، ثم تذكَّر الأزمة المالية في غرب آسيا، عندها لن يكون من الصعب أن تفهم معنى هذا النوع المختلف من الوحشية.

هذه إذاً هي العولمة، هذه حرب في عصر العولمة. وعلى الرغم من أن هذا ليس سوى جانب واحد إلا أنه جانب مذهل، عندما يقف الجنود على مفترق طرقات القرنَين فإنهم يواجهون هذا الجانب، وربما يجب على كل واحد منهم أن يسأل نفسه، ماذا يمكننا أن نعمل؟ إن كان يمكن اعتبار أشخاص مثل موريس وبن لادن وسوروس جنوداً في حروب المستقبل، فمن هو الذي لا يمكن اعتباره جندياً إذا؟ وإن كان يمكن اعتبار أشخاص مثل باول وشوارزكوف وديان وشارون سياسيين يرتدون اللباس العسكري، فمن ليس سياسياً إذاً؟ هذه هي المُعضِلة التي خلَّفتها العولمة والحرب في عصر العولمة للعسكريين.

---

1 بغضِّ النظر عما إن كنا نتحدَّث عن هتلر أو موسوليني أو ترومان أو جونسون أو صدام، فلا واحداً منهم أتقن الحرب بنجاح. وينطبق هذا على كليمنصو أيضاً.



على الرغم من أن الحدود بين الجنود وغير الجنود تلاشت الآن، ورغم أن الهوَّة بين الحرب واللاحرب قد رُدِمَت تقريباً، إلا أن العولمة جعلت كافة المشكلات الصعبة متداخلة ومتشابكة، ويجب أن نجد مفتاحاً لهذا، مفتاحاً نتمكن من خلاله من فتح كافة الأقفال، إن كانت هذه الأقفال جاثمة أمام باب الحرب. ويجب أن يكون هذا المفتاح مناسباً لكافة المستويات والأبعاد، من سياسة الحرب الى الاستراتيجية والتكتيكات العملياتية الى التكتيك؛ كما يجب أن يكون هذا المفتاح ملائماً للأفراد، سواءً كانوا سياسيين أو عسكريين من الجنرالات وحتى الجنود العاديين.

لا يمكننا أن نجد مفتاحاً أنسب من "الحرب المفتوحة".

خاتمة

الدوافع لكتابة هذا الكتاب تعود في الأصل الى المناورات العسكرية التي جذبت انتباه العالم. منذ ثلاث سنوات وبسبب المشاركة في المناورات قابلتُ شيانغسو في مدينة صغيرة في فوجيان تدعى شياو آن. وفي ذاك الوقت كان الوضع يزداد توتراً يوماً بعد يوم في الساحل الجنوبي الشرقي، حيث كان جانبا المضيق متأهبين للمواجهة، وحتى حاملتي الطائرات الأمريكيتين هرعتا الى المنطقة وقطعتا مسافات شاسعة لإضافة مزيد من التوتر. وفي ذاك الوقت كانت العاصفة على وشك الهبوب في الجبال والموقف العسكري كان ضاغطاً لدرجة أن الناس تحوّلوا فجأة "للتفكير بالاستراتيجيات المحيطة بالموقف". لذا قررنا كتابة هذا الكتاب، بحيث نستطيع فيه أن نركِّز المخاوف والأفكار لدى كل منا في العقود الماضية وخصوصاً في السنوات العشر الماضية فيما يتعلق بالقضايا العسكرية.

ولسنا بصدد التحدث بالتفصيل عن عدد المكالمات التي أجريناها وعدد الإيميلات التي أرسلناها وعدد الليالي التي سهرناها على مدى ثلاث سنوات، لكن الشيء الوحيد الذي يثبت هذا هو هذا الكتاب الصغير الذي بين أيديكم.

يجب أن نعتذر أولاً لجميع القرّاء عن أنه على الرغم من أننا أنجزنا هذا الكتاب وفقاً لما يمليه علينا ضميرنا وبمنتهى الدقة التي نستطيع، إلا أن الكلمة المكتوبة التي تعبِّر عن الأفكار تشبه إطلاق الصواريخ نحو النجوم مع النيازك، لذا فكلنا يمكن أن نجد العديد من الأخطاء في العديد من المواضع. ونحن لن نستخدم كلمات الاعتذار من قبيل "نطلب لطفكم" لمسامحتنا بل إننا نعد بإجراء التصحيحيات في الطبعة القادمة (إن كان هنالك طبعة ثانية).

وبمناسبة نشر هذا الكتاب، نحبُّ أن نعبِّر عن شكرنا الجزيل لرئيس الأركان شينج بوتاو ومساعده هوانج جورونج، من دار نشر الأدب والفنون بجيش التحرير الشعبى الصيني لدعمهم الثابت حيث تمكّن هذا الكتاب من الإنتشار بسرعة كبيرة خلال فترة زمنية قصيرة كهذه. كما نود أيضًا أن نشكر شانغ شامي، مدير قسم

تحرير الكتاب الأول، لقد قامت بمراجعة الكتاب بالكامل بعناية ودقة كما فعلت مع الكتب الأربعة الأخرى التي قمنا بتحريرها، وقدمت العديد من التوصيات القيمة للغاية. ولا نعرف طريقة أفضل للتعبير عن شكرنا وامتناننا.

وفي النهاية نود أن نشكر أسرنا للتضحيات التي بذلوها في سبيل إتمام هذا الكتاب، وهذا أيضاً مما لا يسعنا التعبير عنه بالكلمات.

لقد اكتمل هذا الكتاب ما بين 2 آذار و8 كانون الأول سنة 1998 في كانتشوفن وبيجافانج في بيجين.

الأول من شباط سنة 1999

الفهرس


NORS
Studies
مركز نورس للدراسات